شمس
ش
للنشر والتوزيع

الشاحنة

رواية

محمود سعيد

الشاحنة

محمود سعيد

الكتاب : الشاحنة (رواية)

المؤلف : محمود سعيد

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١١

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٩٧٧٠

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 058 - 4

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى-المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٠٤ ٢٧٢٧٠(٠٢)-,٠٠٦٥ ١٨٨٨٩٠(٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع

الشاحنة

رواية

محمود سعيد

شمس
للنشر والتوزيع

خيوط الماضي

يُغمض عينيه.. تنتصب نبْع أمامه، تلفه الأحداث متشابكة بعنف كمن يكون في وسط دردار هائج يعصف ثم يغور في البحر. يعرف أنه وُلِدَ سنة ١٩٨٠ في بغداد، لكنه لم يرَ والده، كان اسمه حسين، غيَّره، أصبح له اسمٌ آخر، جواز سفر آخر، وطن آخر. هو الآن في مأمن في منفاه، لا أحد يعرفه في الدّولة التي اختارها وطنًا ثانيًا ولا في مدنها أو قراها أو أسواقها ومقاهيها، بيته على قمّة جبل يطل على البحر، يشرب كما يقول أبو مازن "شراب أهل الجنة" النبيذ والجعة فقط، لم يعد يشرب الماء، ولا يريد أن يرجع طعمه على لسانه، الماء لا يدفعه إلى النسيان والنعاس! الجعة بطعمها المميَّز الفريد في الظهيرة تفعل ذلك حين يسخن الجو، تسري برودتها إلى فمه، حلقه، جسده كله. أما النبيذ ففي المساء حتى ينعس ويغفو. أمله أن يغفو وينام بلا كوابيس، ذلك مستحيل. يحاول طرد الماضي عبثًا، الماضي شعاع لا يراه الإنسان، يخترق زجاج الشباك، الجدران، ينسل من تحت الباب. ينبجس من الرمال، من هبات الهواء، من موجات البحر الذي يمتد أمامه الآن. يغلق الأبواب بإحكام، يرقد وهو مطمئن، لكن الكوابيس تلاحقه. تلك

الانفجارات الجبارة، الانفجارات الهائلة المدمِّرة أسفل غرفته مصحوبة بصوت مرعوب. أول انفجار رهيب هزّ البيت كله، ظنّه سيتهاوى ويندك مع الأرض ويندك هو معه فيصبح عجينًا.

كان يتمنى أن يرى والده، لم تتحقّق أمنيته، مات أبوه غريبًا، لا يتذكر أي شيء عنه حتى وجهه. تمنى من كل قلبه أن تعيش أمّه طويلاً كباقي الأمهات، لكن أمه ماتت أيضًا. كان يعبُد "نبْع" ويخطط ليبقى معها حتى يفرق الموت بينهما، لكن أين نبْع؟

التفت إلى اليمين، من خلال النظارات الشمسية رأى التاريخ، رقعة بخط يد أرجواني فسفوريّ كبير: (الثامنة مساءً. ١١ تموز. ٢٠١٠)، هنا على الشاطئ البعيد البعيد يطفح الفرح بمتعة مشاهدة اللعبة، أينما يلتفت يرى رقعة مشابهة، يأتي المستحمّون، يغادرون، ينظرون إلى الرقعة، يبتسمون، يتكلمون اللغة التي لم يفك مغاليقها بعد، لكنه يفهم معنى ابتساماتهم وأي متعة تنتظرهم. نعم هذا اليوم، في الثامنة مساءً ستكون اللعبة الأخيرة لكأس العالم، يستمتعون، يرقصون، يعومون في البحر، تجري الحياة. لا يستطيع أحد إيقاف دواليبها قط. مشرب، ملهىً، صداقات، عرب، أجانب، شاشة تلفزيون، كتب، سينما، مقاهٍ. أجمل ما في حياة الهارب مقهىً منعزل على شاطئ بحر مزدحم، نظارات شمسيّة، سروال قصير، قميص مشجر، قبعة قش، تنكُّر هائل يستحيل على أحد تشخيصه، قنينة جعة باردة، في الفجر تقتحمه زقزقة

العصافير، تعيد له طفولته، يغرق في ذكريات لا مناص من التّخلص منها، ينهض في الثامنة، يوقظ صفاء يُعد له فطورًا كيفما اتفق، يضع صفاء مستلزمات العوم في حقيبة الظهر: نفّاختا الذراعين نفّاخة الصدر الكرة السطلين الصغيرين مجرفة البلاستيك المحفار، نظارات الماء قصبة التنفس، يساعده على تثبيتها يخرجان من الشقة. يقضم صفاء فطوره وهو يسير مدجّجًا بعدّته كجندي يتوجّه إلى ساحة المعركة.

يختار الجلوس تحت الشجرة الوارفة العملاقة أمام الأمواج، يركض صفاء نحو البحر، يأتيه أرنان بكيس الشعير، يضعه في جانب المتكأ الأيسر. يمد يده إلى الكيس، يرمي حفنة على الرمال السمر، تنزل العصافير فجأة تحدث عاصفة صغيرة يشعر بأجنحتها الرقيقة تغمره بنسائم الهواء، تلتقط بنهم حبات الشعير، تهجم فوقها موجة حمام كبيرة، تغتصب الحَب، تهرب العصافير، ينتشر الحمام في كل مكان، تحت المنضدة، فوق المنضدة، يقف على فخذه، رأسه، بين رجليه، تنتهي حبات الشعير، يختفي الحمام.

طفلة في العاشرة، ذات كسوة بحر حمراء مشجرة بالأخضر، تنحني على الرمال حين ينحسر الموج، تلتقط المحارات الجميلة المغسولة بماء البحر، يتبعها صفاء ليرى ماذا يثير انتباهها، تنظر إليه بازدراء، ربما لأنه في الخامسة فقط، أو ربما لأنه يتكلم معها العربية، يبتعد عنها، يجلس على حافة ارتداد الموج، يُخرج عدّته،

يبدأ الحفر. تضع الطفلة المحارات المنتقاة في كيس نايلون، ينهض أخوها ذو الثامنة من قرب أمّه تحت المظلة البنفسجية فجأة، الأم على ظهرها، فخذاها بضان عاريان مطبوقان مثيران بفتنة تنافس حوريات البحر، ثدياها مضغوطان على الصدر بحمالة بيضاء، على عينيها نظاراتان سوداوان، يركض الطفل بسرعة شديدة كسهم منفلت، يضرب أخته على يدها، يسقط الكيس، تتناثر المحارات الجميلة، تصرخ، تقع محارتان في الحفرة التي أحدثها صفاء، تُطلق الفتاة دفقة كلمات غاضبة وبصراخ تلمع أسنانها الصغيرة البيضاء، تمنى لو يعرف اللغة ليفهم ما قالت، ينظر إليها صفاء يضحك بتشفٍ.

يتوقف شاب وشابة في بداية عشريناتهما، الفتاة عارية الصدّر، بيضاء لوّحتها الشمس، رشيقة. ينظران إلى كلب بإعجاب شديد، يرميهما الكلب بنظرة عميقة أنيسة، يشد أحدهما الآخر من خصره باستمتاع، الكلب صغير رشيق جميل بطول قدم واحد فقط، ينبح نباحًا خافتًا كأنه يغازل الفتاة، يحرك ذيله بسعادة. يقهقه الفتى يتكلم معه، ينبح الكلب ثانية بصوت هامس كأنه يغني، ينظر إلى الفتاة فقط، يتكلم الشاب معه ويشير إلى الفتاة، ماذا يقول له؟ لابد أنه سأله: هل أحببت صديقتي؟ يلوي الكلب رأسه بتفهم، نظرته العميقة مازالت تضيع في مفاتن الفتاة، ماذا يريد أن يخبرهما؟ صاحبة الكلب أربعينية سمراء محروقة بلهيب الشمس، تضع

نظارة كبيرة سوداء، تمنى لو رأى عينيها، أكانت تنظر إلى الكلب أم إلى الشابين أم إلى البحر أم إلى لاشيء؟

يسرع كهل بحبتي "آيس كريم" مغلفتين "بالشيكولاتة" إلى حبيته الثلاثينة الشقراء، تفرش له خدّها، يقبلها وهو منحن، تفسح له مجالاً على المتّكأ الخشبي تحت المظلة الكبيرة، يجلس يلف يسراه حول خصرها النحيل، يُقدّم لها الآيس كريم، تضحك وتعتدل، يبدآن بقضم الآيس كريم، يقبلان بعضهما بطعم الآيس كريم، تمنى لو نبْع معه لجرب القُبل بطعم الآيس كريم.

ينطلق صوت أغنية جميلة خلفه في إيقاع راقص من مذياع المقهى على بعد عشرة أمتار، ينتشر اللحن في الفضاء، يطغى على الضوضاء وأصوات أمواج البحر، تبدأ طفلتان بالرقص على النغم على بعد خطوتين من خط الموج فوق الرمل، تركض الطفلة ذات الكسوة الحمراء نحو أمها، تضع كيس القواقع على صدرها، تهرع نحو الفتاتين الراقصتين تتلوى مع النغم، يتكاثر الجمع، يضع صفاء مجرفة الرمل فوق السطل، ينضم إلى المجموعة، يتكاثر الأطفال. أهي أغنية للأطفال فقط؟ تختار كل طفلة من تراقصه، بقيتْ صاحبة الكسوة الحمراء وحدها. انتقلت أمام صفاء، تمايلت أمامه، تمايل مع اللحن وهو يمدّ يداه نحوها. أمسكت بأصابعه، رقصا معًا، تتمايل ضاحكة، مدَّت كفّها فوق

شعره الأسود الكثيف، أهي معجبة به أم تسخر منه لأنه أصغر الراقصين؟

تتكلم التي وراءه بعصبية وسرعة، ترفع صوتها، مرة أخرى آه وألف آه لو يعرف اللغة! أهي تتشاحن مع مرافقها الشاب؟ يلتفت وراءه، عارية الصدر. نهداها كمثرتان من زجاج ساحر، بارزان منتصبان، سمراء عيناها نجلاوان، شعرها أسود، تصرخ، تشير إلى صدرها بينما يدير صديقها لها ظهره، يتكلم بهدوء، يستلقي على المتكأ، وجهه نحو البحر، ترفع حمالة صدرها من فوق السرير، ترميه بها بقوة تسقط على عنقه، يضحك يشم الحمالة، يضعها على وجهه، يخفي تجويفاهما عينيه، تصرخ تهجم عليه، تضربه على كتفه، ذراعه، صدره. يثب على الأرض بقفزة رياضيّة يعانقها من ساعديها، يهصرها، يخترق النهدان الزجاجيان صدره، يقبلها بحميمية، تذوب بين يديه.

الساعة قبل العاشرة بدقيقتين، امتلأ الفضاء أمامه بالمستحمين. بدؤوا بوضع الزيت المُشقر على أجسادهم، تنزع فتاة في الخامسة والعشرين حمّالة صدرها، يبدو نهداها القويان بحلمتيهما الكستنائيتين مثيران، رمانتان يدويّتان توشكان على التفجر، تمسح صدرها، فخذيها، تتكلم معه، يبدأ بمسح ظهرها، تضحك، لم تذق "نبْع" مثل هذه المتعة، أسيعجبها لو كانت معه هنا؟ تصل يدُ صديق الفتاة إلى جيدها، كان شعرها مرفوعًا فوق رأسها ككرة شقراء.

قبل جيدها، نزل بشفتيه إلى أعلى كتفها، بغتة انتفضت، التفتْ إليه، أخذت تعصر جسده بوحشيّة.

حشد لا ينتهي من الفتيات، معظمهن شابات بعمر "نبْع"، أكبر من "نبْع" قليلاً، أصغر من "نبْع". لكن "نبْع" ليست معهن؟ لم ترَ شيئًا، حتى أنها لم ترَ صفاء كيف تغيّر، كيف انسجم في بيئته الجديدة، كيف نسي، لم ترّ ابنها، هتفت بصوتها الموسيقي الجميل ما إن رأته قادمًا من رحلته: "حسين"، عانقته لم تفلته إلا بعد دقائق.

– احزرْ

– لا أستطيع.. متعب، دعيني أغتسل، أرتاح، آكل.

تدخل معه الحمام تغسله تدلكه تأكل معه:

– والآن؟

– ماذا؟

– احزر

يقهقه يقبلها:

– قولي أنت!

– أنا في الجنة.

– أي جنة؟ معي؟

– أنا حامل.

ينتفض، لا تكاد الدنيا تسعه، يحملها يدور بها، كانت تحلُم بطفل، أين نبْع؟ أين الطفل؟

يجب أن تنسى، لست وحدك، لماذا أنت حزين؟ احمد الله، قتلت ثلاثة عشر أسود، هربت، ماذا تريد أكثر؟. لن يجدوك حتى لو جندوا السي أي إيه كلها! أنت بعيد في أقصى الدنيا، أنت في مكان آمن، لا يطالك أي أذى، آه لو وقعت بيد السود! لثرموك وأكلوك، أنت في قمة جبل يُطل على بحر بعيد، بعيد عن المآسي. العراق يغرق يومًا بعد يوم، يموت ساعة بعد ساعة، أنت آمن تتخذ احتياطات للاتصال كي لا يعرف أي كان مكانك حتى من تعرفهم، من تثق بهم، أبو مازن، خالك، أمينة، رفل، أهل نبْع، الدكتور مروان، إحسان، أم زينة. تتصل بهم جميعًا بين مدة ومدة، إلا خالك كل يوم في عمّان، يضبط خالك نفسه لا يبوح بشيء، زوجته هي التي تذوب، تنشج وتتكلم:

– عادت الجثث مرة أخرى في كل شارع كل عطفة وكل زاوية، لم تبقَ عائلة لم تُنكب، مليون ونصف أرملة، مليون طفل في الشوارع، مليونا مهجّر فقط في سوريا، ستة ملايين في العالم داخل وخارج العراق، أربعمائة مليار دولار مسروقة من عوائد النفط، يسرق المسؤولون البنوك. صاغة الذهب. مكاتب الصرافة. الشركات التجارية نهارًا جهارًا، تغتال القوات الحكومية ومليشيات السود العلماء الأطباء المحامين الناس العاديين، بدأت الرسائل السرية والتليفونات تصل الأبرياء تهددهم بالذبح بعد خروج الغزاة، لا يوجد من يحمي المواطن العادي، لا يوجد من يفسر الغموض!.

يحدث كل ذلك، أنت ناج بعيد، يقول الطبيب مروان:
- مصيبتي رقل. لا أعرف كيف أنقذها من نفسها، من الذكرى، من الجنون، رجاءً تعال، حاول أن تنسيها مصيبتها.
هه هه أنسيها مصيبتها بمصيبتي؟ يتوسل إليك أبو مازن:
- رجاءً رجاءً تعال، لا أستطيع إدارة إمبراطورية ضخمة وحدي، تعال وخذ نصفها.

كل ذلك ماضٍ ماضٍ، لماذا يقولون ماضٍ، وآنيّ وآتي، يكذبون علينا، الآنيّ سيكون بعد أقل من لحظة ماضٍ، والمستقبل سيكون حاضرًا، والحاضر يحتضر في لحظة واحدة ويصبح ماضيًا، لا يوجد غير الماضي. الماضي في المخ. في أعماق النفس، في الأحلام، في الكوابيس.

لم يفكّر في أبيه، لم يخطر له على بال إلا بعد أن سُجّل في المدرسة، يردد زملاؤه في الصف: فعل أبي ذلك، سافر أبي إلى أوربا، أمريكا، تركيا، سوريا. أبي ضابط، أبي نجار، أبي مُعلم. أبي أبي أبي، أمّه دائمًا مشغولة، ترجع معه إلى البيت، تعد الطّعام. تسأله عمّا حصل في المدرسة، يريد أن يسألها عن والده لكن شيئًا ما يبعد الموضوع، ربما تفكيره بشيء آخر، ربما ينسى، ربما لأنه لا يعرف كيف يسأل! أو لا يستطيع أن يُعبر عما في داخله، ربما أوامرها التي لا تنقطعْ: "تعلمْ كيف تعد الشاي، راقبْه كي لا يغلي فيطفح، يجب أن تتعلم كيّ قميصك وسروالك، تعلم كيف تعد لك لقة

طعام، جيءْ بواجباتك المدرسيّة، أجلس هنا، لا تحاول أن تتماهل، ما بك؟، راجعْ بقيّة الدّروس!" يغفو يفتح عينيه يجد الوقت عصرًا، يهرع راكضًا، لا يلتفت إليها، يلعب مع أصدقائه، يرجع تعبًا جائعًا، يتفرج على التلفزيون ينعس، ينام.

متى عرف أن أباه أسير في إيران؟ في الخامسة؟ السادسة؟ لا يتذكّر، أسيرٌ مع خاله شريف، أمّه معلمة المدرسة الابتدائية القريبة إلى دائرة البريد، مبنى المدرسة كبير، عشرات الصفوف في طابقين، معلمة في مدرسته نفسها، لكنه لم يرّها تدخل صفه قط، رأى معلمات كثيرات غيرها يعلمنه: فردوس، ماري، كريمة، نُجود الخ. كانت أمّه تمزح دائمًا: "أنا صاحبة المصيبتين". بعد مدّة أدرك أنها تعني مصيبتي أسر أبيه وخاله، منذ أن فتح عينيه رأى أمه تدخن، عندما يقترب منها يخرج من فيها دخان السجائر ساخنًا، ضايقه أول الأمر، ثم اعتاد عليه، أحب من كل قلبه غلاف سجائرها، يا له من غلاف رائع، أزرق بنفسجي أبيض، حتى الحروف الإنكليزية كانت مكتوبة بشكل ملتوٍ رشيق جاذب للنظر، أخذ يتهجى اسمها، سأل مدرس الإنكليزية عن معناه قال له إنه اسم شخص أو شركة، انقطعتْ أمه عن شراء السجائر الإنكليزية المُهربة لارتفاع ثمنها، أو بسبب الحصار، بدأت تدخّن سجائر بغداد أو سومر، أحب العلبتين كلتيهما وبخاصة سومر بقيثارتها التاريخية الجميلة.

أمه متوسطة الطول، أنيقة سمراء، يحب أن ينظر إلى عينيها، عيناها سوداوان طبيعيتان، لا كبيرتان ولا صغيرتان، لكنهما جميلتان جدًا، وأجمل ما فيها ابتسامتها، لكن عينيْ "نبْع" أجمل أكبر، عينا "نبْع" ساحرتان، لا مثيل لهما، قهوائيتان معبرتان بينما عينا أمّه أبنوسيّتان، يتذكر حاجبيها السوداوين الصغيرين جدًا، بينما حاجبا "نبْع" طويلان كهلالين رقيقين يحيطان بعينيها، عندما تكلم مع "نبْع" عنها قالتْ: "أحببتُها؛ إنها جميلة"، أراد أن يعقب لكنه لم يستطع أن يجد الكلمة المناسبة.

"نبْع" رقيقة حالمة مثله، تعرف ما يقصد من دون أن يكلمها، لم يفهمه أحد مثل "نبْع" قط، تدرك مرامه من دون أن يتكلم. تنظر إلى عينيه فتفهمه، لكن أين نبْع؟

مات أبوه بمرض الإسهال الدموي، سمع خاله يقول: "لستُ متأكدًا الأميبا أو الشكلا، أجبروا مئات الأسرى على شرب مياه المراحيض، مياه المراحيض؟ أكل الديدان، الخراء"، تقزّز، امتلأ قلبه كراهية، اللعنة! كيف يجبرون إنسانًا مثلهم على شرب مياه المراحيض؟ أتعس من ذلك وضع السجين في زنزانات انفرادية، لا ضوء مطلقًا يدفعون الماء والطعام من خلال فتحة تحت الباب، المرافق حفرة، يجب أن تبحث عنها في صدر الزنزانة، لا فراش لا بطانيّة، السجن في الشمال، درجة الحرارة عشرون تحت الصفر، هناك

ينغلق المرء على برده، أمراضه، همومه، ليس عنده ما يشغل ذهنه سوى اقتراب الموت وذكريات تحيا وتموت؟"

لو لم يكن خاله هو الذي روى ذلك لما صدق، لم يمتْ خاله شريف، أطلق الصليب الأحمر سراحه، عاد وحده بعد عشر سنين من تاريخ أسره، تسلموه نحيفًا يمشي على عكّاز، لا يتجاوز وزنه خمسة وأربعين كيلوجرامًا، تصفه أمّه: "كالريشة يكاد ينقصف"، كان ذلك قبل بدء حرب الخليج الأولى ببضعة أشهر، يفكّر دائمًا بعد وفاة أمّه: هل كانت أمّه تحيا على الأمل؟ لا يستطيع الإجابة، توقيت عندما أصبح في الثانية والعشرين، بعد وفاتها ظل يتساءل: لماذا ماتت؟ أكانت تحلم بعودة زوجها فغضت الطرف عن كل ما تظنه عائقًا للعودة للسعادة، عاشت سعيدة مع الأماني والأمل، مرحة بشوشة لا تفارقها الابتسامة، تتراقص النكتة على لسانها، كانت متأكدة أن أباه سيرجع، ثم انقلب الحال بعودة خاله، اختفت السعادة، لم يبق سوى شقاء ولدّهُ اليأس، لم تعُد تبتسم، لم تعد تنكت، لم تعد تسخر قط. رجوع الخال المريض الذي تحسنت صحته بالغذاء والدواء كانت علامة فارقة لا تُنسى لنقيضين، بداية حياة طبيعية لخاله وزحف موت بطيء لأمه، اكتشف أمّه تمثل عليه، اكتشف ذلك فيما بعد، حينما تلقاه تتصرف معه بطبيعية؛ تعانقه تقبله فتلفه رائحة السجائر المنبعث من فمها، تترطب وجنتاه بقبلها التي لا تحصى، لكنه عندما يفاجئها في خلوتها يراها

ساهمة في تفكير عميق، يستنشق عرف الحزن الذي تغرق فيه مع دخّان سجائرها، فرضت على نفسها الخلوة، يدفعه البيت المكلوم ليهرب بقوة. لم يعد البيت بيتًا بل هيكل أحزان وأشجان، تلك أول فترة حرجة في حياته، حاول جاهدًا أن لا تعود.

هل فرح بموت أمه؟ لا. حَزِنَ بعمق من بقي وحيدًا، لكنه فرح بحريته، بكيانه المستقل من دون تبعة، برغم الألم، انهمر عليه شعور دفعه لتذوّق معنى التفرد والبحث في المجهول عن مستقبل، تفرد متبل بحرية التصرف من دون وصاية أو مسؤوليّة.

يفتح عينيه برهة كل الناس سعداء إلا نحن، تشتد حرارة الشمس، يتوقف النسيم كلية، يبدأ العرق ينز من جسده، يقهقه شابان وفتاة في الثانية والعشرين عارية الصدر يلعبون الكرة، يرمونها بالتناوب، عندما تقفز لا يترجرج نهداها، يظلان ثابتين، يبدو مثلث أبيض ناصع في كل نهد يحيط حلمة سمراء صغيرة بحجم العدسة، يقفز معها كلب أشمط غزير الشعر بحجم قدم ونصف، تتزل ذؤابات من الشعر على عينيه، كيف يستطيع النظر؟

تقف كهلة في الخمسين تُعري صدرها، نهداها صغيران جدًا، لكنهما منتصبان، تزيتهما بفخر، تشرع بمسح مؤخرتها بالزيت، فوق وتحت إليتيها، ثم تضع قدمها على المتكأ، وتمسح الفخذ من الأمام ومن الوراء بالعناية والمهل نفسيهما.

يتوقف الشابان والفتاة عن اللعب بالكرة، يتجهون نحو البحر، يضع أخرهم الكرة تحت المَظلة، يتبع الكلب الأشمط الفتاة، ينبح بشدّة، يعيق قدميها من الحركة، تحمله على نهديها، يلطعهما. تقهقه، ينظر إليه أحد الشابين، يضحك. تجلس الكهلة بعد انتهائها من المسح على متكأ، تُخرج نظارتيها السوداوين، تضعهما على عينيها، تتمدد، تفرج ما بين ساقيها البضين للريح.

يُغمض عينيه، توقعه الذكريات بتمنيات متناقضة، يتمنى لو نسيت أمُّه أباه، لو عاشت كباقي النسوة، لو تزوجت رجلاً آخر، يتمنى ذلك مع بقاء رغبته برؤية والده حيًّا. أو في الأقل يتمنى من كل قلبه أن يزور قبر والده، حينما أبدى رغبته لخاله طفق يضحك ثم اكتست ملامحه الجد مصحوبة بألم عميق، قدَّر أنه يعاني ليسد ثغرة مؤلمة في منمنمة الذكرى:

- لا تُفكّر في ذلك قط.

سأل حسين بصوت متأثر خافت:

- لماذا لا أفكر! أمّي تقول إن من حق أبيك أن يدفن في العراق، في مدفن طائفته.

- وأنت؟

- لا يهمني. أظنني لا أؤمن بشيء.

ابتسم خاله:

- هذا أفضل، علماني. أظن أن أمّك تخلط، لولا الغزو لما فكرت في ذلك. كان أبوك مثلي علمانيًّا، لا يهمه أين يدفن، ملتزمًا بحرية الفكر أكثر مني، ذكرت أمّك ذلك أمامي. قلتُ لها: إحسان لا يمكن أن يفكر في ذلك. تأثرتِ بدعايات الملالي. يقول القرآن إننا من تراب، والتراب لا يعرف مذاهب وأديانًا، كل الأراضي سواء، أنا مثلكَ أمّي من فئة وأبي من أخرى، أمينة مثلنا، أنا أحبها وهي تحبني. أتمنى أن أدفن معها في أي بقعة في العالم. أمّك لا تعرف كل شيء. اسمي شريف علي نايف أحمد سايح، سأبدأ من سايح. سايح درويش تركي جوّال أفّاق كأي درويش في عصره، عاش في وقت لم تكن فيه حدود أو جوازات سفر، تزوج هندية ولدت أحمد، أحمد تزوج أرمنية مسيحية ولدت نايف، نايف تزوج نجدية ولدت علي. علي (أبي) تزوج إيرانية. تقول أمي إنه تحوّل إلى طائفتها، لكني لا أصدق. أتذكره كيف كان يحتقر الملالي! ماذا تصنفني؟ هندوسي، أرمني، عربي، فارسي، مسيحي، سني، شيعي؟ أنا لا أعرف ولا أريد أن أعرف، ولدتُ في العراق أنا عراقي، أنا أتكلم العربية، إذن أنا عربي، لكني قبل كل شيء إنسان فقط، والإنسان لا يهمه مع من يعيش، ولا يهمه أين يدفن.

"تبُع" كخاله تتكلم، لبقة، تعرف كيف تتخلص من الإحراج، تعرف كيف تعبر عن نفسها، تختلق المناسبات الأفراح، الانسحاب من المواقع الشائكة. تعرف كل شيء، لكنها غير موجودة، يا لجسدها

الرائع، بشرتها الملساء الناعمة البهيجة! لنغماتها وهي تتكلم! تسأله عن ماضيه، أكان سعيدًا أم شقيًّا، تريد أن تعرف كل شيء، هذا مستحيل. لكي يفعل ذلك عليه أن يمتلك مقدرة تعبير يفتقدها. ذلاقة لسان لا يتمتع بها، قابلية على الحديث يحسد الآخرين عليها.

عندما أبدى لأمّه سأمه من المدرسة ورغبته بالعمل، لم تطاوعه. قالتْ له: "مستقبلك بالدّراسة"، لكنها كانت تعرف أنه لا يمكن أن يستمر. لم يكن يحضر بعض الدروس، كره قواعد اللغة العربية والكيمياء وبخاصة معادلاتها، أعجبته قراءة القصص والكتب التّاريخية ودروس الهندسة المستوية واللغة الإنكليزية، بعد دوامه ببضعة أشهر في الصف الثاني المتوسط انقطع عن الذهاب إلى المدرسة، تبتسم أمّه بحنان وهي تضمّه إلى صدرها فيلفهما أريج السجائر:

– حبيبي قل لي فقط ماذا ستفعل؟

– سأتعلم الكاراتيه.

– ماذا؟

– الكاراتيه، لعبة تُعلم الإنسان الدفاع عن نفسه.

– أهناك من يُعلمُها؟

– نعم.

حدّقت أمه في عينيه ابتسمت، عانقته ثم أبعدته قليلاً: "انظر إليّ، أنت قوي جدًا، أقوى مِن كل مَنْ في سنك، أخشى إن تتعلمْ الكاراتيه أن يُصيبك الغرور فتعتدي على الناس، إن أقسمت أن لا تضر أي مخلوق تعلمها، وإلا فلا"، عانقها وهو يبتسم: واللهِ لنْ أعتدي على أي كان. في النادي الكبير القريب إلى البيت، أمره المدرب بدر النعيمي، أسمر لوَّحته الشمس كادت أن تجعل بشرته بلون التراب: "هرول نصف ساعة وارجع". قال له بعد أن رجع: "قويّ عضلاتك بالأثقال نصف ساعة أخرى"، بعد أن انتهى قال له: "اذهب إلى بيتك، استحم، كُلْ، نام".

ضحكت أمّه من كل قلبها:

– والكاراتيه؟

– لم يعلمني أي شيء منها.

– ثم ماذا؟

– سألني كم ساعة في اليوم أستطيع أن أتدرب، قلتُ له: ساعتان كل يوم. في أيام الأسبوع كله، أخذ يضحك ظنّني أمزح، سخر مني: "نعم؟".

– لماذا ظنك تمزح؟.

– قال: ستموت لا يوجد من يتدرب يوميًا لساعتين. قلتُ له: يجب أن أفعل.

– لماذا لا تسمع كلامه؟

- أريد أن أتعلم بسرعة، إن تعبتُ سأفعل ما يقترحه.

بعد أسبوعين بدأ المدرب بتعليمه مبادئ الكاراتيه، قبل أن يترك النادي قال لأمّه: "سأتعلم ميكانيك السيارات في محل ابن عمك "أبو فضل"، فضل صديقي، ترك المدرسة مثلي. ابتسمتْ مدَّت ذراعيها، سحبت رأسه إلى صدرها، قبلته في جبهته. فغمته رائحة الدّخان. هزّته كأنها تقول له أبق ما سأقوله في رأسك: "فضل يتعلم مهنة أبيه، أما أنت فأبوك أستاذ جامعة وأنا مُعلمة!" ثم طفقت تضحك وتدّق صدرها: "ابن أستاذ جامعة ومُعلمة صبي ميكانيك؟ أين أذهب بوجهي من الناس؟" ضمَّته إلى صدرها، عانقها، أخذ يدور بها حتى داخت، سألها:

- أتعرفين كم يربح أبوه في الشهر؟

- لا.

- خمسين ضعف راتبك!

لم تصدّق ما سمعت:

- من قال ذلك؟

- فضل، قال إن أباه يربح في الشهر ما يعادل خمسمائة دولار، نحن في حالة حصار-راتبك يُعادلَ عشرة دولارات، أرأيت؟.

حدّقتْ فيه، هو على حق. ابتسمتْ ضمَّته إلى صدرها مرة أخرى، قالت لها هناء: "ليبقَ في المدرسة، صغير لا يعرف مصلحته. ابنك عبقري باللغة الإنكليزية، يتكلمها بطلاقة، لم أرَ مثله طيلة عشرين

عامًا في التعليم. كأنه وُلِدَ هناك. أهو مدمن في مشاهدة الأفلام الإنجليزية؟". ابتسمت أمّه: "فيلم السهرة فقط، معلمة الهندسة تقول الشيء نفسه، لا أستطيع إجباره إنه عنيد، إن ألححت عليه سيترك البيت". كان طويلاً قويًا واثقًا من نفسه وكانت تخشى عليه الانحراف، لو لم يكن أبو فضل ابن عمها لما وافقتْ، من دون علمه قابلت أبا فضل، أوصته عليه، طفقتْ تستقصي عنه الأخبار دائمًا من زوجة أبي فضل.

* * *

يوم أطلِقَ سراح خاله شريف من الأسر حُفِر في ذاكرته، وافق على مضض أن يسير مع أمه، لا يحب أن يراهما الناس معًا لا في الشوارع ولا في أي مكان، لكنه لم يعترض ذلك اليوم، تضحك أمّه وتضربه على كتفه: "أنت سخيف، تخجل من المشي مع أمّك؟" امتنع عن ذلك حين بلغ الثانية عشرة. كان الناس ينظرون إليه باستغراب. امرأة في ثلاثيناتها تسير مع طفل أطول منها بقدم، عيناه تثقبان كل من ينظر إليها، أو ينقل نظره بينهما.

نُقل الأسرى إلى مدينة الطب أولاً، جرى إسعاف من كان بحاجة لذلك ثم أعلن الخبر بالإذاعة والتلفزيون قبل ثلاثة أيام، نشر في الجرائد جميعها، تقاطر الناس من مختلف أنحاء العراق، تبرع أصحاب الحافلات بنقل الجميع مجانًا ذلك اليوم، امتلأت الساحة أمام المستشفى الكبير، وصل التزاحم إلى بُعد كيلومترات في

الشوارع المتصلة بها، طفقت الفرق الموسيقية تعزف، مزامير، صنوج، طبول، "دنابك" أبواق، أصوات موسيقية في كل مكان. بدأت الجموع تغني وترقص، مئات المايكريفونات تُذيع أسماء المحظوظين المُطلق سراحهم خمس إلى عشر مرات وسط موجات لا تهدأ ولا تنتهي من الزغاريد. تتفجر الساحات، الشوارع، الأرصفة البيوت السيارات فرحًا وبشرًا، موسيقى أغاريد، طبولاً. تصفيقًا. يطرق ذهنه منظر أعجبه فجأة من دون أن يفكر فيه. شباب أربعة يتشابهون في الملامح، أكبرهم في الثلاثين. أصغرهم في السادسة عشرة يبدو أنهم إخوة، بغداديون أصليّون بـــ (يشاميغهم) البيض المرقطة بالأسود، بلفّتها الصغيرة، بإيقاعاتهم المنضبطة على الـــ "الدّنبك" و"الطبل" والدف. أما أكبرهم فكان يغني بصوت رخيم عذب: "يا بهجة العيد السعيد، يا طلعة اليوم الجديد، يوم التهاني بين الأحبة، يوم الفرح".. لم يعد يتذكّر الكلمات. لكن الوجوه أمامه حتى الآن، النغمة تملأ عليه الوجود. لو كان يملك "فيديو" لسجّل ذلك، لكن أنى له ليسجل؟ أناس من شتى الطبقات والقوميات، المدن والقرى، أناس في أزياء رسميّة وآخرون ببزات في منتهى الأناقة، سياسيون مرموقون، مسؤولون حزبيون، رجال أمن ومخابرات يكتشفهم المرء من نظراتهم وتعاليهم، من شوارب بعضهم الملتفّة إلى الأسفل "رقم ثمانية". فقراء حفاة يتلهفون لرؤية وحيدهم، قريبهم، صديقهم. عسكريّون

يعجز الذهن عن تصنيفهم. قالتْ أمّه إنه المحشر، ضحكتْ. لم يضحك هو، كان التلهف لرؤية والده وخاله يشظيه. من يشك أنه سمع اسمًا قريبًا لمن كان يتوقعه. يهرع إلى استعلامات مبثوثة في زوايا شوارع عدة، شخصت أمّه أخاها من اللحظة الأولى بعد خروجه من باب المستشفى العريض مع أربعة آخرين أسن وأصغر منه، هتفت وهي تُشير إليه: "خالك شريف". أحس بسعادة متميزة لم يشعر بمثلها من قبل وهو يعانق خاله. سعادة لم ينغصها علمه بوفاة والده. لكنها تضاعفت بزواج خاله من أمينة، فلأوّل مرة أحس أن له عائلة ينتمي إليها كالآخرين.

أمينة في الثلاثين، مُعلمة مع أمّه في المدرسة نفسها، شقراء زرقاء العينين، لم تقضِ مع زوجها المهندس سوى أسبوع واحد. ثم اختفى في الجبهة إثرَ سوقه مع فصيل من الجيش الشعبي لم يعد منه سوى بضعة أشخاص، بقيت أخبار زوجها مقطوعة لسبع سنين، بعدئذ أعلمتهم منظمة الصليب الأحمر أنه قضى نحبه في الأسر، لكن المحكمة لم تثبت استشهاده قانونًا إلا قبل أشهر. لم تفاتحها شريفة برغبة أخيها بالزواج إلا بعد أن رجع إلى وظيفته في الجامعة يُدرس علم الاجتماع والفلسفة، ثم مكّنت أخاها من رؤيتها، رسمت خطة مُحكمة، أرته أين يقف هو وحسين قبل خروج المُعلمات من المدرسة، قالتْ له إنها ستجعل أمينة تسير

إلى جانبها الأيسر، أعطتهما أوصافها، فوجئ حسين وشريف بجمالها، هيبتها، تناسق جسدها، همس شريف:

– أتمنى لو ترضى بي.

ضحكت شريفة:

– سترضى.. ثِق.

* * *

فضّل حسين أن يستقل في محل له كميكانيكي، لكنه غيَّر رأيه حينما سمع من عارف أبي "نبْع" في أحد اجتماعاتهم المتكررة في بيت خاله، أن تجار الشورجة الذين يجلبون بضائعهم من الأردن، الفاو، تركيا، يشتكون كثيرًا من معاملة سواق الشاحنات وتأخيرهم وجشعهم، وأنهم سيرتاحون إن رأوا سائقًا مستقيمًا، عندئذ سأل خاله: "أيمّا أفضل المحل أم الشاحنة؟" ابتسم خاله حدّق في عينيه: "لكل صفاته سلبًا وإيجابًا، عليك أن تسأل من تعرف عن ذلك، ثم فكر واتخذ قرارك بنفسك كي لا تلوم الآخرين في المستقبل."

هذا دأب خاله دائمًا، لا يُبدي رأيه، لكنه يدله كيف يتخذ قراره. فكّر حسين طويلاً ثم قرر أن يشتري شاحنة، عندما أبدى رغبته لأبي فضل قال له إنه يعرف أحد مالكي معرض سيارات يريد أن يتخلص من شاحنة مصابة بأضرار شديدة إثر انقلابها في طريق الأردن، عرض عليه أن يدفع تكلفة "أرضية الجراج" الرمزية فقط. حين رأى حسين الشاحنة لم يجد فيها شيئًا سليمًا، شاحنة ميتّة،

بقايا، "سكرابًا" بكل ما للكلمة من معنى، شاهد أبو فضل خيبته قال له:

- هذه ستكون المُطعم الثاني لك.

حدَّق بأبي فضل:

- ماذا تعني؟

- علمتك أنا الميكانيك. وستُعلمك هذه "السمكرة" والتّعديل، أنت شاب قوي قادر على التّصليح..

لأنه لا يستطيع شراء شاحنة أفضل دفعَ الأرضية، نقل ملكيّتها إلى اسمه ثم تركها. يذهب كل يوم ينظر إليها يسأل نفسه: من أين أبدأ؟ يفكر ثم يرجع إلى عمله، اقترح عليه شندخ زميله في ورشة التصليح أن يبدأ بالماكينة، ثم أخذ يساعده في أوقات فراغه. صلح الماكينة بعناية شديدة، أبدل ما احتاجته بقطع غيار أصليّة. باتت تدور بهدوء كما لو كانت جديدة. صلَّح قمرتها تصليحًا ممتازًا. القمرة غرفة نوم لمن يسافر بعيدًا، يجب أن تكون غرفة النوم مريحة، أما هيكل السيارة فثبته بشكل ملائم كي لا يضر بالبضاعة المنقولة. أخذ منه ذلك أكثر من أربعة أشهر، قسعات الهيكل وقصعاته وأعوجاجه الكبيرة عُدّلت. أما الصغيرة فتُركت كما هي مع بقع لا تحصى زال صبغها، صدئة شبه ملوّنة، باهتة منفرة. قدَّر أن تصليح الهيكل وصبغه كما يجب يكلف أكثر مما كلفته

الماكينة وتصليحها. قال له أبو فضل: اتركها كما هي مجلبةً للحظ. في المستقبل عندما "ترقى" افعل ما تشاء.

احتفل في بيت خاله بعد تدشينها في نهاية أول رحلة له إلى الفاو لجلب ألف "درزن" من ملابس رياضية لأحد تجار الشورجة، كان ذلك في نيسان من عام ٢٠٠٠، صادف ذلك مناسبة زواج خاله من أمينة. حضَّروا الشراب والمقبلات والحلوى، خرج وخاله من البيت لجلب الخروفين المحشوَّين، في رجوعهما رأى "نبْع" لأول مرة في حياته، رآها قادمة وبيدها صينية كبيرة فارغة، كانت في الثامنة عشرة، قميص أبيض، نصف ردن، شعر طويل قهوائي حتى الكتفين، عينان واسعتان معبرتان، بشرة بيضاء ناصعة، تقاطيع آسرة. ما إن التقت عيناهما حتى ومضت شحنة برق حارق ضرجت وجهيهما، أهكذا يؤثر الجمال على البشر؟ يجعل القلب يضرب كالطبل؟ يُشعل قدرًا تحت الدماء؟ يشل الحركة! ينزل كالصاعقة يسحق المخ، يلغيه كإنسان، يمسخه جمادًا، ظل في مكانه كالصخرة، جذبه خاله. لم يرجع إلى وعيه إلا بعد دخولها البيت، سأل خاله وهو يكاد يفقد صوته:

– من هذه؟

– "نبْع".. نبْع ابنة عارف.

كان بيتها ملاصقًا لبيت خاله، أبوها صديقه الحميم. يسهران معًا يوميًا، ضرب جبهته بكفه:

– يا لي من غبيّ! كيف لم أرها من قبل؟
لولا خاله معه لدخل البيت وراءها لكنه انتظر حتى سبقه، البيت مليء بالنساء والأطفال، الكبيرات مشغولات بالتحضير للحفلة. بينما الصغار يضجون سعداء، يحلمون بقضاء وقت ممتع مع الطعام والحلويات.

مناسبتان في حفلة واحدة، الرجال في بيت خاله الذي ورثه عن والديه، والنساء في بيت عارف أبي "نبْع" المجاور، ثم انضمتْ النساء إلى الرجال حين عُقِدَ الكتاب، وقفن بعيدًا عن مجلس الشرب. التمّ الجمع حول الطعام، شندخ وباقي زملاء الورشة، أبو فاضل، أبو نبْع، الأقرباء يأكلون ويشربون ويسمعون زغاريد النسوة وغناءهن وضحكهن. يزدادون نشوة وسعادة، الضجيج على أشدّه، اكتشافُ حقيقة أن نبْع ابنة عارف غيَّر داخله، جعل قلبه يُحلق في السماوات، كانوا جميعًا ينكّتون يضحكون إلا هو. هجره فكرُه ووجودُه إلى "نبْع". جاملهم بابتسامة عيناه تفتشان عنها، لم يرَها مع المحتفلين، لم يرَها تأكل! أمها أبوها أهلها كلهم إلا هي؟ أين ذهبت؟ لم يأكل، ناولته أمّه صحنًا مليئًا مع أمر: "كلْ"، خرج من البيت إلى الزقاق والصحن بيده، لا يمكن أن تكون هنا. دخل، مسح بنظراته أنحاء البيت، لم يجدها. غاص قلبه تحته، أين اختفتْ؟ لم يرَها قط، ضاع منه شيء إلى الأبد، ضاع استقراره النفسي، ضاع السلام الذي يعمّر داخله، أصبح هلامًا رجراجًا

كزُلال البيض، ظل يفكر فيها، بات كله عينًا تبحث عن نبْع، أذنًا تحلم بسماع نغمة صوت تصدر عن نبْع، التفتَ بغتة رآها خلفه تنظر إليه وعلى وجهها ابتسامة أشبه بغطاء يستر ثورة محتدمة كما في داخله، مزقه الاضطراب والخجل، يا الله.. كيف تحرق نظرة بسيطة نارًا تستعر في الجوانح! لم يترك الفرصة تفوت، صارح أمّه. استطلعت رأي أمينة زوجة أخيها، ابتسمت أمينة: "إن شاء الله تكون من نصيبه، سأحاول جهدي".

سافر في رحلة إلى عمان، لم يسمع رد عائلة "نبْع" حتى إذ جاء من رحلته الثالثة قالت له أمّه:

– ليس عندهم مانع، لكن تأجيل الزواج حتى تنهي الجامعة أمر ضروري بالنسبة لهم.

– وماذا عن الخطبة؟

– مستحيلة الآن.

بعد نحو سنة رآها في بيت خاله مرة أخرى، تغيَّرتْ طالتْ قليلاً، نضج جسدها عمّا قبل، تكامل نهداها، أحس أن بشرتها أصبحت أكثر انسيابية كالزجاج، قال لخاله بوجود أمّه وأمينة:

– هي الآن كبيرة، الفتيات يتزوجن قبل هذا العمر، ماذا لو تزوجنا الآن؟ لن أتدخل في دراستها، لتُنهِ لا الجامعة بل الدكتوراه.

– وماذا عن الأطفال؟

– تطور العلم، نستطيع أن نبقى من دون أطفال عشر سنوات، عشرين سنة، حتى الموت، أنا لا أفكّر في الأطفال، إن شاءت فقرارها.

حدّق فيه خاله:

– لنْ أعدك، سأنقل كل شيء بأمانة.

تساءلت أمّه:

– أسيوافقون؟

هزّ رأسه:

– لا أدري.. لا أريد أن أشعر باليأس.

أضافت أمينة:

– اصبر قليلاً.

عانقته أمّه قبلته، أشعلت سيجارتها:

– ليس لنا غير وسيلة العاجزين.

– ماذا تقصدين؟

– الصبر وسيلة العاجزين.

عندما يأتي من الفاو. كان يجلب معه سمكًا كثيرًا "القطان" الضخم، "البرزم"، "الصبّور"، سمكة "القطان" الواحدة تكفي أكثر من خمسة أشخاص، يدفع خاله وأمينة وأمّه إلى دعوة عائلة عارف، تأتي "نبْع" وأمّها وأبوها وأختها وأخواها الصّغيران ليحتفلوا جميعًا. يتابع نبْع بعينيه أينما ذهبت، يتوقف عن الأكل والكلام والنظر إلى شيء

آخر، يختفي الجميع يصبحون أشباحًا، يفتحون أفواههم ويسدّونها، لكن لا شيء يصل منهم إليه، لا شيء يستقر في ذهنه سوى صورة نبْع، وما يصدر من فم نبْع، حين يأتي من تركيا أو سوريا أو الأردن يجلب للجميع هدايا مناسبة، تُسلم أمينة الهدايا، يتساءل مع نفسه: كيف تتلقى نبْع هديتها؟ يتخيّل ما ستقول، لكنه لا يسأل أمينة أي سؤال عن انطباعاتها، إن قالت شيئًا مصادفة فسيتضخم بالتصورات، إن لم تقل شيئًا فسيكتفي بخيالاته الخاصة. يدعوهم عارف أبو "نبْع" أحيانًا إلى بيته في اليوم التالي أو الذي يليه. أو في أي مناسبة قريبة، يتوقع أن يراها أكثر مما يحدث في بيت خاله. عندئذ تبدأ عيناه البحث عن نبْع، حينما تلتقي نظراتهما يحس أن سعادته تغطي شقاء العالم كله، طفق يعد الأشهر حتى إذا أصبحت في العشرين، طلب من خاله وهو يتوسل إليه أن يفاتحهم بشأن الخطبة، قال له خاله: "لا تعجل. إنني دائمًا أذكّر أبا "نبْع"؛ لكن الإلحاح في هذه الأمور يأتي بنتائج معاكسة.

بعد أسبوعين قدم من سوريا، قال له خاله: "معجزة! أبشر وافق أبو "نبْع" خطبة فقط، بشرط أن تسمح لها بالدوام حتى تُكمل الجامعة"، لم يرد على خاله سوى بقهقهة عالية، بينما وجد خاله نفسه يدور وهو عالق بين ذراعي حسين، تلك عادته عندما يفرح. يرفع من يحبه ويدور به.

جلست قربه أول مرة، لامست تنورتها سرواله، كانت أجرأ منه، اقتربت أكثر، أحس بساقها وساعدها يلامسانه، جاشت نفسه، اصطبغ وجهه خجلاً، تتمالك أعصابها خيرًا منه، لا يظهر على تقاطيعها أي اضطراب. تبتسم تتكلم تضحك، كأن ذلك يحدث منذ عهد بعيد، تضع راحة يسراها فوق كفَّهُ اليمنى، يلتهب. كانوا جميعًا في غرفة الجلوس في بيت خاله، يحتسون الشاي مع البقلاوة. ربما تعمدوا أن لا ينظر أحدٌ ناحيتهما أبدًا، تكلمون بانفعال عن المعارضة، الضجة المحمومة للتفتيش على أسلحة الدمار الشامل، الاستعداد للغزو. لم يفهم أي كلمة، ملمس راحتها طريّ كالزبد، ركبتها تنقر ركبته بين لحظة وأخرى، تقدح في داخله شرارة كهربية تحرقه، يشعر بحرارة خديه، أذنيه، روحه ترقص سعيدة، تتحرك على ألحان خيالية، لم يغمض عينيه، ظلت نظراته ساهمة على أشجار الحديقة الصغيرة من خلال الشباك، لم يجرؤ على النظر في عينيها ليرى هل تحرقهما النار كما تحرقه! كان يتشرب روحها من ملمس يدها، تمنى لو يحرك يده نحو الأعلى، أن يلمس ساعدها، جيدها، صدرها، أن يقبلها من جيدها، خديها، عينيها، فمها، بدل ذلك أصيب بدوار وحمّى خفيفة، قدَّر أنه سيسقط إن لم يتمالك نفسه، سحب يده وضعها فوق يدها، ضغط عليها بقوّة، تفتَّتَ الدّوار من تلقاء نفسه، أحس بها تنتفض، لا بل أحس بنهديها ينتفخان، أكان ذلك حقيقة أم شيئًا تخيّله؟ زحف قليلاً

ليلاصقها بحميمية أكبر، ندت عنها تأوّهة خفيفة، شيء ما قرص ساقه، انحنى ليحكه، انحنت هي أيضًا، وضعت ساقها على ساقه، مسح بكفّه الساقين، التهبت دماؤه، أصابه الدوار مرة أخرى، بدا أن الجميع يتحاشونهما ليتركا لهما قليلاً من الحرية، مدّ يمينه عانقها من الخلف، مالت عليه قليلاً، اختفت ملابسهما، أغمض عينيه برهة، أصبحا ملتحمين، أصبحا جسدًا واحدًا، لن تقدر قوّة على وجه الأرض فك ارتباطهما، تفجّرت سعادة فجائية في عروقه، سيطرت على كل خلية في جسده، دخَلَ الغرفة مع أمه وحدها، لكنه حينما وضع رأسه على المخدة ليلاً كانت هي لصقه، تغفو إذا غفا، تستيقظ حين يستيقظ. ظن أن لقاءاتهما الكثيرة بعد ستعيق دراستها، لكن الأمور جرت عكس ذلك، تحسنت درجاتها في اختصاصيها "اللغة الإنكليزية" "تقنية المعلومات".

من محاسن العمل في الشاحنة عدم الاستقرار في مكان واحد، هذا يعني مفاجآت مستمرة، بعد كل رحلة يجد مفاجأة تنتظره تقتل ملل المكوث في مكان واحد وانتظار ما يحدث، بعد شهرين اثنين فقط همس خاله بأذنه: "معجزة ثانية وافق أهل نبْع على الزواج قبل أن تُكمل الجامعة"، حدث هذا التطور من دون أن يفكر فيه قط، لكنه علله بموقف نبْع الجرئ أمام أهلها، قالتْ له قبل الزواج بأيام: –

– بدلاً من المكالمات الهاتفية سنتصل يوميًا بالبريد الإلكتروني.

اشترى حاسوبين واحدًا لها وآخر محمولاً له، بدأت تعليمه الطباعة بالعربية والإنكليزية بأصابعه العشر، قال:

– لنْ أتعلم، الموضوع معقد، هذا مستحيل.

– ستتعلم.. انظر إلي، أنا تعلمت.

– أنتِ تتمرنين في الجامعة.

– تمرن أنت أيضًا، خذ الحاسوب معك في الشاحنة، تدرب عليه وقت الفراغ.

لم يصدق نفسه.. أتقن الكتابة خلال ثلاثة أشهر بأصابعه العشر، أحس أنه اجتاز عقبة كبيرة بمعجزة اسمها الحب، لم يكن يصدق قبل ذلك أن بإمكان أي كان أن يكتب بمهارة ومن دون أخطاء بمثل تلك السرعة! عزا ذلك إلى الرغبة بإرضاء "نبْع"، لكن خاله قال له:

– ليست هي السبب وحسب بل أصابعك التي تمرنت على الأشياء العملية.

– ابتسم: ماذا تعني؟

– مهارتك في الميكانيك.

* * *

البيت الذي ورثته عن أمك غرفة واحدة، سقيفة صغيرة لصيقة بالغرفة، حجمها أربعة أمتار قسّمت إلى قسمين، حمّام قسم

ومرافقٌ آخر، أردْتَ أن تبيعه وتشتري آخر بعد وفاة أمك، رفضت "نبْع":

- أتملك ثمن البديل؟

- لا.. سأقترض من المصرف العقاري.

ابتسمتْ:

- لا داعي لذلك سنسكن فيه، سنبني غرفتي نوم، واحدة فوق الغرفة الأرضية، والثانية فوق المطبخ والحمَّام، سيكون عندنا بيت من ثلاث غرف، سنضع مرشا في المرافق، سنتصرف ببحبوحة عندما ندَّخر ما يكفي.

ابتسم ابتسامة هادئة وفكَّر "أي عبقرية! من يستطيع أن يفكر مثل "نبْع"؟ سنتان أصغر منه. عقلها أكبر من عقلك ستون ألف سنة ضوئية"، حلا له تعبير "سنة ضوئية" من أين اقتبسه؟ لا يدري. التعبير لطيف، ربما من كتب أمه، دائمًا كانت تقرأ، بعد اختفاء والده لم يكن لها همّ سوى القراءة، في السفرة التي سبقت رحيلها يتذكر بوضوح عناقها وهي تبتسم: "تسرطنت المكتبة مثلي لكني سأموت وستبقى هي"، تكدَّست الكتب طوال سنين. إضافة إلى كتب والده كانت تشتري الجديد في بداية كل شهر، لم يكن يتصور أنه سيعود إليها حينما قرر امتهان السواقة! أدرك بعدئذ أنها ساعدته كثيرًا مع الإنترنت والحاسوب على قتل الضجر في سفراته التي لا تنقطع.

يغلي جو الشاطئ تحت سياط الشمس. لكن الماء بارد، بيضاء تجاوز خصرها بإنش واحد حد المعدل، ثدياها ممتلئان عاريان. تلمع حلمتاها الدكناوان، تمسك يدا صديقها السوداوان ساقيها البضين النازلين على صدره، كفاها متشبثتان برأسه ذي الشعر الملفلف القصير، يجتاز المظلات، يمر من أمامه، يقطع المسافة من الشاطئ حتى بدء الموج بهدوء كي لا تسقط من على كتفيه، فجأة تفتح ذراعيها تستقبل الكون كله بهما، تدفع صدرها إلى الأمام بانتشاء، يقترب بها من البحر، تقهقه بصوت عالٍ، يدخل الماء يسير فيه، تغطس قدماها في هبة الموجة، تستند على رأسه وهي تنهض فوق كتفيه، تتأرجح قليلاً وهي تشد على رأسه، تنتصب ثابتة بعد لحظات على كتفيه، تتنفس بعمق، تُلقي نفسها في الماء، يرتفع الرذاذ دائريًا نحو السماء. تختفي تحت السطح لحظات، تظهر على شكل كرة صفراء فوق مستوى البحر، تنفض شعرها الأشقر، ترتجف كمن لذعتها البرودة، تهجم عليه، تضربه على صدره بقوة، يرفع يده ليرد الضربة، تغطس في الماء، يمسك بها من خصرها يرفعها أذرعها تتأرجح كالأخطبوط، يرميها بالماء. تنهض تهز رأسها، تتطاير خصل شعرها الأشقر، تنثر رذاذ الماء في الجهات كلها، تُزيح خصل الذهب عن عينيها، يغطس تفتِّش عنه، يظهر بعد دقيقة، يتنفس بعمق، شعر رأسه كثيف، يرجعه بيديه إلى الخلف، يعدله، يفاجأها بدفعة أخرى، يسقطها على ظهرها في الموجة القادمة، تصرخ بقوة تعتدل وتتراجع لتهرب.

يغطس يوقفها، تقهقه من كل قلبها، تمد يديها نحو وسطها لتبعده عنها وهو تحت الماء، يظهر يتنفس يُعدل شعره مرة أخرى، يهجم عليها بعنفوان شديد، يروحان في قبلة عميقة وهما يغطسان في الماء.

الانحراف

غادر بغداد مع الفجر، وصل في السابعة والنصف إلى مدينة جنوب بغداد. أحس بمعدته تخرشه، أوقف الشاحنة في أول شارع، لم يدر لماذا صُدَّت نفسه عن المطاعم الكبيرة على الجانبين. كان هناك قتار قوي يعبث في الجو يُثير المعدة، تلمع وسط المدينة قبب ذهب تحت أشعة الشمس القادمة من الشرق، ترتفع قريبة منها بتواضع منائر ذهبية تتناثر في منطقة غير بعيدة عنه.

استمر بالسير رغم صراخ معدته بالجوع، يجذبه قتار الشواء كعفريت ينبع من الفضاء، يدفعه الجو الأنيس المُطعَّم بهدوء الخلاء في أزقة المدينة العتيقة إلى مصدر الرائحة، يتقدم كالمسرنم، دخل عطفة ضيقة، التفت، وقع نظره على مطعم متواضع، جدران طينية فيها صدوع كثيرة، خالية من النوافذ، بقع رطوبة مختلفة تُزيِّن الحائط موزعة عشوائيًا، خارطة عراق قديمة ممزقة في أسفلها، مثبتة في صدر المطعم الصغير بمسمار حذاء أسود، منقل طويل تُذكي ناره مروحة كهربية صغيرة، يتصاعد القتار يلتف ضبابًا على شكل أفعى تتجه نحو السماء، خرشت

الرائحة معدته مرة أخرى، توقف.. حدّق، لم يكن في المطعم سوى أربعة أشخاص.

فخذ خروف صغير وردي اللون بطول قدم لا أكثر معلق بخطاف، تمنى لو كانت "نبْع" معه لتتذوّق هذا اللحم الطري وهو يُشوى معبقًا بالفلفل والملح، وتُشوى معه قطع الطماطم والبصل.

وجهه إلى الزقاق وهو يأكل بشهية ومتعة لا يفتقد معها سوى وجود "نبْع". ضوء الصباح الأنيس يُعمّر الكون، زقاق مترب مرشوش بالماء خالٍ من المارة، فجأة سُدَّ المنظر.. وقف أمام المنضدة الصغيرة رجل قصير عريض مكرش مشوّه، بشرة أقرب إلى السواد، التفتَ إلى صاحب المطعم هتف وبصوت مسرحي وهو يُشير إلى حسين: "هذا الرجل الكريم ضيفي". لم يبدُ على صاحب المطعم أي تغيّر في الملامح كأنه لم يسمعه، كانت عيناه على أسياخ اللحم يقلبها، عاد صوت المسخ بما يشبه الهتاف: يا ألف أهلاً وسهلاً، يا ألف مرحبا بالسيد.

حدّق به مرة أخرى.. ألتقاه يومًا ما؟ لا. لم يتوقف عن الأكل، لابد أنه واهم أو دجّال كبير! أي مهارة يمتلكها النصابون! خطفه بنظره ثانية، مظهره لا يدل على ذلك، ملابس أنيقة، عطر ثمين، ثقة لا حدّ لها، أكبر منه بعقود، لا شعرة سوداء في وجهه أو رأسه،

مكرش، ينسى الأسماء لكنه لا ينسَ الوجوه. عليه أن يعترف أن طلاقة لسانه أحلى من العسل:

- أنا أعرفك.. اسمك حسين أليس كذلك؟

أغمض حسين عينيه، أين التقاه؟ أين؟ لم يعد المخ يعمل، لو كانت "تبغ" معه لقالتْ شيئًا، هو لا يستطيع التصرف في مثل هذه المواقف، كثيرًا ما قالتْ له أمّه: "أنت كأبيك.. لا يستطيع الدفاع عن نفسه". ابتسم وهو يلوك لقمته بهدوء، ليتجنب المُتدَّخلين الفضوليين يتظاهر بالخرس، يتعمَّد أن يعتقد الناس أنه كذلك، لكن هذا القصير المكرش لم يكن من هذا النوع، جلس قربه ضحك من دون سبب ثم قال:

- ألا تسألني كيف عرفت اسمك؟

هزّ حسين رأسه، ليعني لا يهمني الأمر.

- احزر!

حرك أنفه إلى الأعلى. ليؤكد عدم الاهتمام، دفع القصير طرف يشماغه إلى الخلف، وهو يثبت عقاله على رأسه:

- قبل أيام في الحصوة موظف الإخراج الجمركي زياد، لابد أنك تعرفه، أشار إليك وقال: سائق ممتاز أمين كتوم قويّ كامل، كل الصفات الجيدة تتوافر فيك، ألم يصف الله موسى بالقويّ الأمين؟ عندي مصالح كثيرة، أريد هذا الصنف من الناس، عندما أردت اللحاق بك في جراج الحصوة اختفيت، إرادة الله رب صدفة خير

من ألف ميعاد، أتبعك هناك تغيب عن عيني، أتمشى هنا على رسلي أراك أمامي.

ذهل حسين أي ذكاء! أي ذاكرة جبارة! حدَّق فيه لحظة، مشوَّه وذكي! كاد يضحك، حوَّل نظره إلى الدرب المترب الضيق الخالي المرشوش، جاءه الصوت:

- توكل على الله وتعامل معي، اسمك حسين وأنا عليّ أبو حسين، انظر إليَّ.

رفع حسين رأسه إليه، كان يحدّق فيه بعينيه الجاحظتين السوداوين وبتركيز، لم يسحب حسين عينيه بانكسار كما يفعل الآخرون، أدرك هذا أن هذا الشاب يختلف عن الآخرين، أن له طاقة هائلة من تحدٍ وثبات لا حد لهما، وضع حسين أخر لقمة في فمه، سأل بيرود:

- ماذا تريد؟

قهقه أبو حسين:

- علمتِ أنني أستطيع استخدامك!.

لم ينزل حسين عينيه عن عيني المشوَّه الجاحظتين، لكنه لم يقل أي كلمة، فنطق هذا:

- زنابيل.

- حمولة؟

- نعم.

- إلى أين؟
- تركيا.
- تمزح.
- لا.. مطلقًا.

الزنابيل والمكانس والمراوح، الكراسي الأسرة المناضد الرخيصة؛ تُصنَّع كلها من النخلة، رآهم في رحلاته يصنعونها في قرى الوسط والجنوب، قال خاله له عندما جلب هدايا منها: "هذا وقتها، توقفت مصانع البيتروكيماويات وما تُنتجه من حبيبات البلاستيك، قاطعتنا دول العالم كلها، لابد إذن من أن نرجع إلى إرثنا التاريخي للتغلب على الحصار القاتل". ضحكت أمينة زوجته: "أنا فرحة لرجوع صناعاتنا التقليدية الميتة إلى الحياة، ستُعيِّش الكثير من الفقراء". حدَّق بأبي حسين بنظرات متسائلة، ظنه يروي نكتة، يسخر منه، من يشتري زنابيل في تركيا؟ عندهم حقائب نايلون قوية متينة أصلية تتحمل ثقل أكثر من عشر كيلوجرامات ويرجعون إلى صناعات القرون الوسطى؟ من يشتري مراوح خوص وهم يصنعون المكيفات؟ من يشتري مكانس يدوية وتحت أيديهم أرقى المكانس الكهربية، أمامه عاقل أم مجنون؟ ظل يفكر..

- لا تتسرع.. فكر، أريد مصلحتي ومصلحتك، سأعطيك أكثر مما يعطيك أي كان، قل لي كم تأخذ على الشحنة إلى اسطنبول؟ هاك

مقدّمًا الضعف، ثلاثة أضعاف، تبدو ابن حلال، أنا أبحث عن أولاد الحلال، أثق بهم.
أغمض حسين عينيه، مشوّه طويل الرقبة بشكل مقزز، أقسى ما يشوهه جحوظ عينيه، لكنه يعرف كيف يقنع الآخرين، الإقناع سيد التفاهم.

وصل حدود اسطنبول في الخامسة عصرًا، ساق ذلك اليوم إحدى عشرة ساعة، صدق أبو حسين أعطاه ثلاثة أضعاف أجر النقل إلى اسطنبول، امتزجت فرحته بأمل رؤية المفاجأة على وجه نبْع حينما ترى هديتها غير المتوقعة، كيف ستتلقاها؟ ماذا ستقول؟ توقف صباحًا في قيصرية تناول الفطور، توقف مرة ثانية في أنقرة تزوّد بالوقود، أكل رزًا وباذنجانًا مطبوخًا على الطريقة العراقية، شعر بجوع شديد قبل أن يصل اسطنبول بساعة، في بداية اسطنبول برزت مئات لوحات الدعايات: إطارات سيارات، أجهزة منزليّة، أثاث مختلف المناشئ! فنادق، لكن أهم ما كان يبحث عنه استراحات يسد فيها جوعه، بيد أنه لم يتوقف سيأكل بعد الوصول، ذهب إلى تركيا عشرات المرات، لكنه لم يصل اسطنبول قبل هذه الرحلة، انهال عليه جمالها من بُعد، أي مدينة؟ مدينة تحرس البحر الشاسع، تمد فوقه جسرًا عملاقًا يبدو من بعيد كعود ثقاب مجلل بغيوم تحميه، تشدّه إليها كإله صغير معلق بإصبع الوجود ليصل الضفتين ببعضهما، في الغروب يبدو من بعيد يلمع تحت

أشعة شمس تتأهب لتودع الكون، تترك أصباغ بهجة فوق مدينة عملاقة كذكرى تتجدد كل يوم، كانت النوارس تحوم فوق الضفاف الخضر في مهرجان عبثي لا ينتهي إلا بنهاية النهار، تمنى لو لم يكن جائعًا لوقف ينتظر نهاية مغيب الشمس الفاتن وكيف تتضخم كرتها في مهرجان الغروب الذي لا يمل النظر إليه! كيف ستبدو المدينة التي تشبه جبلاً غير سامق بملايين الأضواء معكوسة على البحر؟ أصبر على الجوع حتى تسلم البضاعة لأهلها.

في اسطنبول كان هناك من ينتظره، تشخيص شاحنة برقم عراقي في المدن الغريبة أمر سهل، حين ترجّل انفجرت حوله في الجو ضحكات وقهقهات مرحة سعيدة، تقدم منه كهل مهيب طويل لكنه أقصر منه قليلاً، رشيق:

– أنا أبو مازن، جعفر.. أخو عليّ أبي حسين.. يا مرحبا.

استقبله بالأحضان كأنه أبوه عمه خاله..

– أهلاً.. أهلاً وسهلاً.

حدث ذلك في ساحة تقسيم الهائلة الواسعة التي سمع عنها كثيرًا ولم يرها في حياته إلا الآن، ازدحام على أوجّه. سيارات أجرة في علاماتها المميزة، أشرطة طولية بمربعات سود وبيض، آلاف السيارات، متجولون سياح، رجال شرطة، باعة جوّالون، عربات طعام كما في أي ساحة كبيرة في بغداد، نظر إلى المتكلم حدّق فيه، يخلو من أي شبه بأبي حسين المشوّه، رشيق، سمرة أقرب إلى

البياض، صلع خفيف في جانبي الجبهة، كيف إذن أخوه؟ ابتسامة حلوة في الخمسينات، معه أربعة شباب أكبرهم في نحو الخامسة والثلاثين، تعلقت نظراته بأحدهم، بطول أبي مازن لكنه أنحف منه، أزالوا تعبه بابتساماتهم وضحكاتهم، عناقهم وتقبيلهم. يبتسم أبو مازن فتبدو تجاعيد وجهه خطوطًا رقيقة تنتشر من زاويتي فمه، يتذكر المغناطيس الذي يوضع تحت زجاج تُنثر فوقه بُرادة الحديد، كيف تتوزّع في قطبين متعاكسين متماثلين! ترى ماذا يفعل هذا الرجل المهيب بتجارة الزنابيل والمراوح والمكانس الخوص؟ لكن لماذا تسأل؟ أنت مجرد سائق قمت بواجبك وحسب، لا يبدو أي شبه في الشباب الأربعة بأبي مازن، أتراهم يعملون عنده؟

- يا هلا.. هات مفاتيح الشاحنة، عندنا سواق وجراجات، لا تقلق سنهتم بكل شيء من المعاملات الجمركية حتى وثائق الإقامة إن أردت أن تبقى في اسطنبول أي مدة شئت ففي أعيننا.

لم يرد أن يترك الشاحنة بغير أن يتأكد أنها في موقع أمين، لكن شعوره بالقلق تلاشى كلية، لم يدر كيف اطمأن إلى أبي مازن! جال بصره في محيط الساحة العملاقة، استطاع أن يقرأ وسط الازدحام الذي كان يألف مثيله في بغداد أسماء عشرات الفنادق. فكّر يصلها خلال بضع دقائق، اسم أبي مازن، عنوان شركته، أرقام الهواتف، مسجّل ذلك في أوراق التّصدير. نظر إلى أبي مازن وقال:

- سأذهب؟

رفع يده ليودعهم انفجر أحدهم يقهقه، التفت إليه مستفزًا، قصير نحيف أنيق قصة شعره حديثة، شبيهة بـ "قصة المارينز"، لماذا أحس أن قهقهته عدوانية؟ استثير لكنه ضبط أعصابه، تمرن طويلاً على كبت انفعاله، نظر إلى الباقين، كانوا يبتسمون بحميميّة امتصت غضبه:

- حجزنا لك في مكان جيد.

- كم الكلفة؟

- لا تسلْ.. أنت ضيفنا.

- لا أقبلْ.. لم يأخذ رأيي أبو حسين.

ابتسم أبو مازن:

- أين يوجد أبو حسين؟.

لولا الابتسامة لظنهم يسخرون منه، لم يجب، أضاف أبو مازن:

- في العراق.. نحن في اسطنبول، سنأخذك لترتاح.

نظر إلى الشباب المرافقين: "هيا". في ثوانٍ تفرق الجميع، بعد قليل شاهد أحدهم يقف قربه بسيارة مارسيدس صغيرة لم يرَ لها مثيلاً في العراق: "تفضل". صعد المقعد مريح، لوحة كشوفات واجهة السيارة غاية في الجمال، لوحة أسطورية، بيانات خضراء في خلفية رمانية، الشاب السائق هو صاحب قصة المارينز، في عشريناته، ربما أكبر منه بضع سنين، من ينظر إليه يتوقعه قادمًا من اليمن، نحيف أسمر أنف معقوف:

- أنت الآن ضيفي.. سنذهب إلى بيتي.

هتف حسين:

- لكني أريد أن آكل.. أن آخذ حريتي، اذهب بي إلى فندق رجاءً.

- كل ما في الفندق متوافر في البيت.

- إنترنت؟

- نعم.

- أريد أن أكلم أهلي.

- الهاتف موجود.. مجاني.. أي شيء تريده موجود.

لم يدر أكان هذا الشارع الذي سلكه الشاب هو طريقه أم تعمَّد أن يسلكه ليريه المدينة، في البداية كانت الطرقات صاخبة مزدحمة، ثم أخذت الضوضاء تخف. الشوارع شبه خالية، أطفال، نساء، معظم الأبواب مواربة، الطرق مرصوفة بالآجر أو بقطع صخر رمادي صغيرة بحجم نصف آجرة، اختفت أشعة الشمس إلا من بقع صفر حمر برتقاليّة تلطخ أعالي البنايات السامقة، تترك نوعًا أنيسًا من الضوء يمس شغاف القلب بالحنان، أحيانًا تدخل السيارة شوارع عريضة تزدان على الجانبين بصفوف أشجار اليوكالبتس والصّفصاف الضخمة، لتعود ثانية إلى دروب ضيقة تُلقيه في مطاوي ألفة حبيبة تُذكره بأزقة بغداد قبل الحصار.

* * *

البيت قديم على الطراز الشرقي يفصح عن عراقة وذوق، الأرض والجدران مرمر أبيض، يميل إلى الزرقة أو الاصفرار، في وسط الحوش فسقية صغيرة تموسق بماء يرتفع نحو نصف متر ثم ينزل في حوض من الموزائيك الأزرق، بينما يرصف المرمر الأزرق الفاتح المضرب بالرمادي والتبني أرض الحوش، أربع غرف في الطابق الأسفل ومثلها في الأعلى، تُشرف على الحوش بممر مربع ينتهي بسياج حديد مصبوغ بالأزرق على ارتفاع متر واحد، أعجبته الغرفة؛ السرير نظيف متوسط العرض أغطية ناصعة البياض، ضوءان إلى يمين ويسار السرير، ثريا صغيرة في السقف. أراد أن يتحمّم لكنه شعر بالجوع والنعاس معًا، قرر أن ينام قليلاً، سمع فجأة نقرة على الباب، دخل الشاب بيده صحن كبير من الكريستال فيه تفاح، عنب، برتقال، موز:

- أعرف أنك جائع، ألهِ معدتك بهذا حتى نذهب إلى العشاء.

ابتسم حسين:

- كنت أفكر بالطعام قبل أن تأتي.

تناول موزة ثم تمدّد أغمض عينيه، جاءت "تبْع" تداعبه تغرقه بالسعادة، أحس بالبرد، فتح عينيه رآها تجاوزت الثامنة، سمع بعض الأصوات الخفيفة، خمّن أن في البيت أناسًا آخرين، أنهى حمّامه، لكنه ما إن خطا في الحوش بضع خطوات حتى سمع صوت أقدام إلى اليمين، التفت رأى الشاب القصير النحيف الأنيق

ببذلة زرقاء من دون رباط عنق، كما في المرة الأولى جذبت نظره قصة شعره الحديثة "قصة المارينز" مع شعيرات فوق الجبهة ترتفع قليلاً، وقف قربه انفرجت أساريره مّد يده معرفًا:

- ميثم.

فعرف حسين نفسه، قال ميثم:

- لابد أنك جائع.

هزّ حسين رأسه: نعم.

- سيعجبك الكباب، هنا في اسطنبول أفضل كباب في العالم.

ابتسم حسين:

- كلهم يقولون ذلك.

غمز ميثم عينه:

- تعال معي واحكم بنفسك.

- هيّا.

- هل تشرب؟.

باغته ميثم بالسؤال، حدّق في عينيه. ماذا يجيبه؟ مرة أخرى تمنى لو كانت معه "نبْع" لعرفت كيف تجيب: "لماذا؟" انفرجت تقاطيع ميثم:

- لنقضي ليلة جميلة! كما في أبي نؤاس.

- قلتَ إننا سنأكل كباب.

- هل يتعارض أكل الكباب مع الشرب؟.

أنهى ابتسامته بضحكة خفيفة، وصلا بعد قليل إلى بناء واسع من طابقين، أضواء خافتة حركة دائبة، السقف مثلثات خضر حادة الزوايا ودوائر حمر متداخلة مع بعضها في ديكور فتنه جماله وغرابته، ينبجس في زويا ودوائر السقف أضواء ملونة، بينما كانت الحيطان مصبوغة بالماروني والبنفسجي، تنفرج عن "بار" مليء بعشرات أنواع المشروبات، يفصله عن الجمهور منضدة طويلة، هرعت نادلة جميلة في العشرينات، شقراء تنورة سوداء قميص أحمر ينفتح على أعلى نهدين يكشفان معظم سفحهما الأعلى، سأله ميثم:

- ماذا تفضل؟

- جعة.

- عندهم نوع من العرق ممتاز.

- لا أشرب العرق.

لم يقل له إنه لم يشرب في حياته سوى ثلاث مرات.. مرة عندما احتفل بأول رحلة بالشاحنة، ومرة ليلة خطبته، وثالثة في البصرة قبل أسبوعين.

- ماذا تتمزمز؟

- أي شيء. لكن قل لها أن تأتي بالكباب.. أنا جائع.

- تأكل قبل الشرب؟

- بل معه.

بعد قليل جاءت فتاتان، صافحهما ميثم وهو يبتسم ويتكلم بالتركية، قال بالعربية يعرفهما: "خير البنات، زالة". وإذ جاءت النادلة بعربة الطعام والشراب، طلب ميثم لكل من الفتاتين كأسًا من الوسكي، أخذ حسين يأكل، بعد دقائق انفجرت في الجو أغنية راقصة، أخذ معظم الموجودين يصفقون، امتلأت الباحة بالراقصين والراقصات. نهض ميثم وخير البنات، حثته زالة ليرقص معها، كان فمها ساحرًا جذابًا وهي تلم شفتيها وتتكلم، بدت له اللغة التركية جميلة وهي تنطقها، بخاصة حرف الزّاء. أشارت إلى ميثم ومراقصته وانصهارهما، ابتسمت، ابتسم هو أيضًا هزّ رأسه بينما بقيت نظراته تراقب ميثم وهو يذوب وسط راقصين دفعهم الشرب والمرح إلى رقصات حسية متهتكة تزدهر في جو لا قيود فيه، انتصب أمامه خيال نبع، لو كانت موجودة لأخذت تضحك، ربما لدفعته ليراقصها. شدت الفتاة كفها مرة أخرى على ساعده، ثم أخذت تربت على شعره، لم يستطع التحديق بها، تمنى لو كان يستطيع أن يتكلم التركية، قال: "آسف" بالإنكليزية، تكلمت معه بالإنكليزية جادة تستفسر منه عن السبب! قال:

- أنا متزوج.

أخذت تضحك:

- كلهم متزوجون.

ارتشف قليلاً من الجعة، ابتسم:

- حتى ميثم؟

- قهقهت: نعم.. زوجته في العراق.

كانت في بداية الامتلاء، طويلة بعض الشيء بيضاء شعرها أسود حالك، عيناها واسعتان، عطرها طيّب، فجأة أجلست مخيلته "نبْع" لصقها، بدا البون شاسعًا بينهما لصالح نبْع. اعتذر منها مشيرًا نحو المرافق، تجاوز الموائد المزدحمة، حتى إذ وصل إلى السهم المناسب نزل بضع عشرة درجة. وجد باحة مربعة بمقاعد ملتصقة بالجدران، يقبع على كل منها ثنائي شاب وشابة متعانقان، غارقان في قُبل لا تنتهي حتى تبدأ من جديد، قرر أن يسأل "ميثم" إن كانت القبل والعناق مباحان فوق فلماذا يفضلون الجلوس قرب المرافق! لكنه بعد ثوانٍ سمع تأوهات حارة ولهاث أنثى متسارع، التفت إلى يمينه رأى فتاة تجلس في حضن شاب، ثوبها الأحمر المشجّر بالبنفسجي يستر وسطها وفخذي صاحبها وينزل حتى حذائه، وهي تتحرك في مكانها بانتشاء مغمضة العينين، رجلان وامرأة واحدة ينتظرون دورهم للدخول إلى دورة المياه غير آبهين لما يفعل الآخرون، أدار لهم ظهره هو أيضًا، حين خرج من المرافق وجد "ميثم" وصديقته في حضنه على أحد المقاعد تدوّمهما نشوة سكرى، صعد مسرعًا قبل أن يفتح ميثم عينيه ويراه، لمّا جلس أمسكت الشابة يده أخذت تدغدغها، بمرور الوقت وربما بتأثير الشرب ازدادت لمساتها جرأة، بدأت دماؤه تسخن حتى إذ وضعت

يدها على وسطه توتر فجأة أغمض عينيه، رأى "تبغ" تحدّق به، تمالك نفسه التفت إليها شدَّ على كفّها، أرجعها برفق وابتسامة إلى حجرها وهو يهز رأسه: "لا." في الوقت نفسه بدا لنظراته "ميثم" خارجًا من فتحة المرافق. متّجهًا نحوه مورد الخدين في أقصى حدود السعادة، يسير وذراعاه تعانقان شابته الصغيرة التي كانت ترتدي ثوبًا من الساتان الأخضر يكشف بسخاء مغر عن صدرها وأعلى ظهرها، وقف أمام المنضدة وهو منتش بلحظته التاريخية، تكلمت الفتاتان بضعة جمل بالتركية ثم قهقهتا، أمَّن ميثم على كلامهما انفجر ضاحكًا هو أيضًا، سحب الكرسي لمرافقته كي تجلس، التفت إليه حسين قال له بصوت حاول أن يكون طبيعيًّا ما أمكن وهو يشير إلى زالة:

- قل لها أن توقف محاولاتها. أنا أحب زوجتي.

قهقه ميثم وهو يرتشف قليلاً من العرق، ويمسح فمه بظاهر كفه:

- تساهل يا أخي. أحل الله لنا التّمتع بما ملكت يميننا.

ابتسم حسين للفتاة معتذرًا، نهض بهدوء غادر المنضدة، فكّر أنها اللحظة المناسبة لكي يسترد حريته التي افتقدها منذ وطئ اسطنبول، خرج من الملهى فوجئ بنسيم بارد لطيف معبق برطوبة ورائحة البحر، أغمض عينيه ليترك النسيم يهدئه سيتمتع بحريته، سيرجع إليهم في الغد، إن كان تحت المراقبة فهذه هي اللحظة الأمثل للخلاص منها؟ سيجبرهم على احترام حريته. غدوه رجوعه

متى شاء؟ سيذهب إلى أول مقهى إنترنت يقرأ رسائل "نبْع" يغرق في أمواج حبها، يبحث عن عطرها في ثنايا كلماتها، يتفتت ذرات ليتحد في أريجها، يرتوي من رضابها، اللعنة! كيف يؤجج البعد الحب! أشار إلى سيارة أجرة، اقتربت منه صغيرة جدًا لم يرَ مثلها من قبل، لم يستطع أن يعرف علامتها، أعجبته، ربما لا تتسع لأكثر من ثلاثة أشخاص، لماذا لا يوجد مثلها في العراق؟

تذكّر عندما جاء مع ميثم كان الليل في أوله، استطاع أن يرى آخر نشاط للنوارس فوق الشاطئ، وأن يُميّز البيوت المنحدرة من فوق الجبل، أما الآن فقد ساد الظلام، أخذت أضواؤها تلمنم سفحًا واسعًا مكونة مثلثًا هائلاً زاويته إلى الأعلى، قريبة منه، مثلث يتوهج بالنور وبالأشجار وبدل القمر فضّلت السماء نقش ثوبها بدر ناعم متوهج خلاب يتجمع وينفرط في غير مكان من قبة السماء. كانت الرؤية واضحة، يستطيع أن يرى في أضواء الميناء سفنًا شتى راسية، ونورًا يقطع الأفق من الشمال إلى الجنوب، أتراه لقارب صغير؟ في أقصى الشرق لمع شهاب لثوانٍ وانطفأ، تمنى لو يستطيع أن يجلس هنا على كرسي ليتملى المنظر بهدوء، سائق سيارة الأجرة شيخ تجاوز ستيناته، أنف معقوف عينان لم يعجم في ضوء السيارة الخافت لونهما، لحية محناة، يضع على رأسه عرقي صلاة بيضاء، ويعلق في مرآة سيارته مسبحة عقيق، قرآن صغير أمامه فوق عجلة السيارة، ابتسم بحميمية وهو يقف، مدّ

حسين يده ليفتح الباب، فوجئ بميثم يندفع إليه كالمجنون يسحبه يتوسل إليه بصوت لا أثر فيه للشرب:

- أرجوك.. ستقتلني.. أنا مأمور.

ثم انحنى يُقبّل رأسه:

- أرجوك.. أرجوك، لا تخذلني.

أمسك حسين بكتفيه فكّر، طلاسم لا يفهمها، ما معنى ستقتلني؟ لماذا؟ من أي شيء ينقذه؟ لم يتوقع أن يكون للموضوع مثل هذه الأهمية:

- حسنًا لا بأس.. ابقَ أنت.

- إن رجعتَ وحدك عاقبوني.

- تعال معي.

- سيدركون أني لم أوفق في إدخال البهجة إلى قلبك.

- سأقول لهم إني مريض.

- لا. هذا لا ينفع معهم، لا يدركون أن عراقيًا لا يحب الجنس، يرفض التمتع بما أحله الله.

- هل البغاء حلال؟

- إنها متعة.

قهقه حسين:

- متى تنتهي السهرة في نظرهم؟

- بعد ساعة ونصف في الأقل.

- حسنًا. أدفع لهذا السائق أجرته كاملة، ليس عندي صرف، سأبقى معك على أن تطلب من التي تجلس قربي أن تدعني وشأني، وتكرمها كأنها متّعتني.

- لا بأس.

* * *

عندما أفاق في الصباح طرق عليه الباب ميثم، ناوله شيئًا ملفوفًا داخل حقيبة بلاستيك أنيقة، قال له باعتيادية:

- هذه لك.. ارتدِها اليوم.

فتح الحقيبة، وجدها ملابس جديدة، تساءل:

- مقياسي؟

- نعم.

- كيف عرفت؟

- لستُ أنا بل زيد، ذلك الشاب الطويل الذي كان معنا البارحة، هذه مهمته، يعرف المقاييس ما إن ينظر إلى الإنسان.

ابتسم حسين:

- لنر فراسته.

قال ميثم:

- هنا قيمر ممتاز، سنفطر على قيمر وعسل كما في العراق.

هزّ حسين رأسه لم يقل شيئًا، كان ميثم يرتدي مثله قميصًا أبيض مخططًا بالأخضر، وسروالاً فاتح الخضرة وحذاءً يلمع بشدة، قال لميثم:

– لا يعجبني استنساخ ما يرتدي الآخرون، سيظنون أننا نعمل معًا في مؤسسة واحدة.

– نحن نعمل فعلاً لمؤسسة واحدة.

– الآن فقط؟

– نعم.. لكنك تبدو أنيقًا.

سارت السيّارة في طريق ضيّق إلى مكان يشرف من علٍ على البحر، الضفة الشمالية من الخليج تنحدر بشدة تارة وببطء تارةً أخرى، موشاة بوحدات بيوت مبنية حديثًا وبطراز أندلسي يغمرها البياض، شاطئ مليء بالصخور تتدرج في ارتفاعاتها حتى تصل المطعم، ساحة كبيرة مرصوفة ومُسيَّجة محمية بستارة قرمزية اللون بارتفاع نحو نصف متر، بينما كان قارب شراعي صغير بلون الفستق الزاهي يشق عباب الماء متجهًا نحو الشرق على بعد كيلومتر من الشاطئ، نظر إلى أسفل.. أمواج البحر صاخبة، تلطم الصخور بعنف وتنسحب، ثم يبدأ شاطئ كلسان رملي رقيق، يعرض شيئًا فشيئًا حتى يُشكّل على بعد نصف ميل دائرة عظمى أهليلجية، تحدّدها من الخلف غابة خضراء تبدو من بعيد كأنها خط أسود، في الشاطئ العريض انتشرت صفوف من مظلات زاهية

الألوان تكاد الواحدة تلامس الأخرى، تمتد أقواسًا توازي انحناءات الماء، أعجبته مجموعة كبيرة في الوسط، شكّلت مربعًا كبيرًا. كانت مظلاتها برتقالية مطرزة بالأحمر والأصفر، بدت تحت الشمس، نارًا تحترق، كان البحر يبدو من الأعلى متفاوتًا في ألوانه، خط أبيض مزبد يسيطر على حافة الرمال، ثم تسري عليه قتامة رمادية فيعود أخضر، ثم تأخذ الزرقة بمد أهدابها إليه لتجهزه ببقع زرق متفرقة، لكنه وفي حالة هدوئه التي بدا عليها ذلك الصباح كان يزدهي بشتى الألوان؛ زرقاء رمادية خضراء.

قال لميثم وهو على الفطور:

– أريد أن تدلني على شركات النقل لأسجل عندهم فآخذ دوري فربما أجد حملاً.

ابتسم ميثم:

– لا تقلق.. حملك موجود لكنه لنْ يكمل إلا بعد ثلاثة أيام.

– أريد أن أطمئن على الشاحنة.

– لا بأس، بعد أن نذهب إلى السوق.. لكن ألا تحب السباحة في البحر؟

– أحب أن أرجع إلى زوجتي.

ضحك ميثم:

– وهذا المنظر؟

– جميل إلى حد أنني أتمناها معي هنا.

في السوق وجد محل أبي مازن، رقعة صغيرة بطول نصف متر، وعرض ثلاثين سنتيمتر، وبخط ثلث: "أبو مازن". بضع كلمات بالتركية، بعد قليل جاء أبو مازن وبرفقته شاب واحد ممن كان معه في اليوم السابق. ابتسامته العريضة نفسها عناقه، قال لمرافقه وهو يُشير إلى حسين، خذه إلى الأستوديو، لماذا الأستوديو؟ لم يسأل، لابد أن هناك أمرًا مهمًّا هناك، تُرى هل سيرى فيلمًا سينمائيًا؟ الطريق بعيد.. شوارع متقاطعة، نصف ساعة من القيادة المتواصلة جعلته يدرك أنه الآن في ضاحية بعيدة عن اسطنبول، أكان بإمكانه أن يصل لو جاء وحده؟ ربما، لكن بصعوبة، ماذا لو تسلموا البضاعة وتركوه، أكان سيرى ما يراه الآن، سيضطر ليفعل ما درج عليه في أي مدينة يراها أول مرة، يتمشى يسجل أسماء الشوارع البنايات المهمة، أوصافها أهم محلاتها، يختار أمكنة للطعام، مقاهٍ تشدّه إلى جو معين ثم يرجع.

المدينة على ضفتي البسفور بموانيها الكبيرة وجسرها المعلق، ومآذنها تبهر النظر، في الأستوديو الواسع الذي سارت به السيارة نحو عشر دقائق كان كل شيء فاتنًا جميلاً جديدًا، توقفتْ في "جراج" واسع فيه مئات السيارات، تمشيا نحو قاعة التصوير الهائلة، في السقف جسور حديد تمتد عرضًا، يتعلق بها عشرات أجهزة تضبط الضوء والصوت تتحكم به، كاميرات على عربات

صغيرة. استقبلهم أحد الشباب الذين رآهم البارحة مع أبي مازن، قال لهم:

- انتهى التصوير.. سيكملون طبع رقع الدعاية وسيلصقونها في جميع أنحاء اسطنبول في الغد، تعالوا الآن تفرجوا على الصور.

خرجوا من قاعة التصوير، استقبلتهم أشعة شمس قوية، حتى إذ قطعوا نحو ثلاثين مترًا تلقاهم رجل متين يسوق سيارة كهربية في ممرات الأستوديو، سلمهم بضع صور بحجم الكف، ناول زيد الصور لحسين، ابتسم:

- خذ هذه بضاعتك.

فقدّ حسين قابليته على التخيل، أيمكن أن يحدث هذا في أي مكان؟ أهذا هو الزنبيل العراقي ينقلب بعد تغيير بسيط في إطالة حمـالته يُصبح مهدًا رائعًا لقطط وكلاب ثمينة فائقة الجمال! تحملها السيدات الفاتنات تحت آباطهن، أصبح حقائب لسيدات ذوات أجساد ملساء متناسقة مثيرة على شاطئ البحر، حمالات لأصص ورد معلقات فوق أبواب البيوت وفي الشبابيك، مراوح الخوص التي لم يكن أحد يلتفت إليها من العراقيين قبل الحصار أصبحت في يد شابة حسناء جميلة آية في الجاذبية والجمال. ترفع الكاعب الحسناء طرف تنورتها باليسرى وتحرك المروحة باليمنى لتدخل نسمة هواء إلى وسطها. عارضة لباسًا أبيض من الدّانتيلا يلتف حول ساقين ممتلئين تنبض إثارة، المروحة والدانتيلا والساقان

لوحة فاتنة آية في الإبداع، حورية أخرى تهف باليمنى على صدر ناهد وترفع باليسرى طرف ثوبها ليبرز ثدي سخي، لكن السخاء يتوقف حتى الحد الأول لدائرة الحلمة الغامقة، حدق برفاقه قال بتلقائية وهو لا يكاد يضبط نفسه:

– عبقريّة.

ضحكوا جميعًا، أمَّن ميثم على كلام حسين:

– من كان يتوقع كل ذلك؟

تدّخل أبو مازن وهو يتقدم نحوهم:

– إنه الفن!

لم يدر كيف انقضى الوقت، حتى إذ أشرقت شمس اليوم الثالث قال له ميثم:

– حمولتك ستكون جاهزة اليوم مساءً، فمتى تريد أن تسافر؟

تهللت أسارير حسين وهو يحلم بلقاء "تبْع"، هتف تلقائيًا:

– اليوم.

ردّ زيد:

– لا سفر في الليل.. أوامر أبي مازن.

امتعض حسين:

– إذًا غدًا فجرًا".

همس ميثم كأنه يكلم نفسه:

– مناسبة جيدة، سنتجوّل.. تعال.

انتقلا إلى أماكن كثيرة، جلسا أول الأمر في مقهى آخر مطل على البحر، منضدة صغيرة في باحة مكشوفة، الهواء قوي في ذلك الصباح، يلامس سطح الماء مكونًا مويجات صغيرة تطفو كالزّبد الأبيض لامعًا مثيرًا، فجأة غامت السماء، اختفى صفاء الأفق، أصبح رماديًا. اشتد الهواء، تخللته برودة مفاجئة، أمطرت الدنيا. أصابتهما بالبلل، انتقلا إلى الداخل، كبرت الموجات، تجللت بالبياض، انقلبت خيولاً بيض هائجة ترتطم بالشاطئ وترتد، مصحوبة بصراخ سفن حزينة يتردد بين الحينِ والآخر في البحر العريض. جاء صوت سفينة من بعيد يخور كبقرة مريضة في حقل موحش، فيتجاوب معه صوت النوارس الدائم، اعتصر قلبه شيء ما مغموس بالحزن يندفع من داخله يغريه بالبكاء، لكن النوارس لم تكن تبكِ، تتأوه، تمارس نشاطها بحيوية. يا لذكاء هذه الطيور، تُرى متى وُجِدَت؟ إنها تسيطر على شواطئ البحار كلها كما لو حازت ملكيتها قبل ظهور الحياة على اليابسة، ثم انتزعها منها الإنسان ليلعب بها ما شاء، ألهذا هي حزينة! ألهذا ظلت تقاومه بشراسة، إنها تشم رائحة الطعام تتجمع فوق سفن الصيد، تملأ السماء ضجيجًا وصخبًا، اشتدت الريح، تبلد الجو بغيوم سود، أظلمت السماء، أمسى لون البحر ضاربًا نحو السواد قاسيًا فظًا عنيفًا، يا للبحر من صديق متقلب الأهواء!

غادرا المقهى تجولا بضع ساعات، توقفا في مطعم تُشوى فيه البطاطا وكيزان الذرة والطماطم والبصل مع اللحم على الفحم، في العشاء ذهبا إلى آخر يتقلب أمامهما خروف كامل على نار تُحمّصه فيبدو أحمر شهيًّا، قال ميثم:

- اختر من الخروف ما تريد، يعجبني أنا لحم الزّند.

لم يدر لماذا يفرض فكره عليه "نبْع"؟ لماذا يشتاق لرؤيتها كل لحظة؟ ردّد ميثم وهما يأكلان:

- في الفجر مستحيل.

فكّر حسين: "ماذا تقصد؟ " ثمّ تنبه إلى موعد رجوعه:

- لماذا؟

- لأن أبا مازن يريد توديعك وتسليمك شيئًا مهمًّا بيدك، وهو لا يستيقظ قبل التاسعة، ليكون قرب الشاحنة بعد العاشرة.

- أمري لله.

قال ذلك وشعر بغصة في بلعومه، ضحك ميثم:

- سيقدّم لك هدية.

- لا تهمني الهدايا.

- في الأقل اسألني ما هي؟

- قلتُ لك لا يهمّني الأمر.

- أمّا أنا فيهمني.

- هل تريد أن تُسدي لي خدمة؟

- قل.

- أريد أن تذهب بي إلى سوق الذهب لأشتري هدية مناسبة لزوجتي.

- هل لي أن أسأل عن المناسبة؟

- أيجب أن تكون هناك مناسبة ليقدم الزوج لزوجته هدية؟

- أنت على حق.

* * *

جراج الشركة التي يديرها أبو مازن واسع جدًا؛ فيه ثلاثة مخازن بحجم مخازن الجمارك في الحصوة في بغداد، لم يدر بالضبط ماذا فيها، لكنه شاهد عشرات الشاحنات واقفة في الجراج فيها الكبيرة والصغيرة وفيها سيارات صالون، وأكثر من بيك أب واحدة، لكنه لم يرَ شاحنته، بدلاً من ذلك وجد أبا مازن ومرافقيه الذين ازدادوا الآن ليصبحوا نحو عشرة أشخاص، فيهم من يرتدي بزة عمل ذات قطعة واحدة: زرقاء، حمراء، خاكية، فيهم من كان أنيقًا كالشباب الأربعة. كانوا يقفون في مقدمة شاحنتين تبدو إحداهما زرقاء جديدة بحجم شاحنته، والثانية فضية تلمع تحت أشعة الشمس أكبر حجمًا.

تقدم إليه أبو مازن بشوشًا تملأ الابتسامة وجهه، عانقه.. فعل مثل ذلك الشباب الأنيقون، تساءل مع نفسه: لماذا هذه المبالغة في الاستقبال؟ أقام بما يوجب الاحتفاء؟ اقترب منه زيد. تذكَّر أنه خبير

الملابس الذي اختار له بضعة سراويل وما يلائمها من قمصان.
سلمه رزمة أوراق:
- هذه أوراق البضاعة كاملة، ملابس أطفال.
حدّق حسين به:
- لكن أين الشاحنة؟
ضحك زيد أشار إلى الشاحنة الزّرقاء على بعد متر منهم:
- هذه هي.
بُهت حسين قال غاضبًا:
- لماذا لم تأخذوا رأيي قبل أن تصلحوها وتصبغوها؟.
انفجر الآخرون ضاحكين:
- لماذا؟
- لأني لا أملك ثمن التصليح، وأحتاج أجرة الشحن.
نبر أبو مازن:
- هدية مني أنا.
ثم التفت إلى ميثم معاتبًا مع ابتسامة تملأ وجهه:
- لِمَ لَمْ تخبره بأني أبطن له هدية.
ردّ ميثم حالاً:
- قلتُ له، فردَّ: لا أريد هدايا.
قال أبو مازن:
- أرأيت؟ كنت أتوقع ذلك فقررت أن أهديك شيئًا لا تستطيع ردّه.

علتْ مرة أخرى ضحكتهم جميعًا، ثم أمسك أبو مازن يمناه جره ليبتعد عن الآخرين، أحس أن هناك أمرًا مهمًا، وأن تلك الحركة إشارة لكي يتفرق الجمع كلهم إلا المرافقين الشباب الأربعة الذين رآهم مع أبي مازن حين قدم من العراق، قال وهو ينظر في عينيه بتركيز:

- اصعد إلى الشاحنة.

أطاع حسين وحينما صعد إلى القمرة صعد معه من الباب الأيمن أحد الشباب المرافقين لأبي مازن وهو يبتسم، لم يقل شيئًا، كان يراقب رد الفعل الذي أحدثته التغييرات الجديدة في قمرة الشاحنة، لم يتوقع حسين ولو في الأحلام أنها ستكون هكذا، قُلّعت الواجهة القديمة كلها ووُضعَ مكانها واجهة حديثة، بما فيها لوحة إعلانات ومؤشرات الشاحنة، قال الشاب:

- شغل السيارة.

أدار حسين مفتاح التشغيل، ضغط الشاب على زر فبدأ مكيف هواء يعمل:

- ما رأيك بهذا؟

ابتسم حسين ذاهلاً، أهو في حلم؟ لو قيل له سجّل تصوراتك لما تُحب أن يُجدَّد في شاحنتك ما استطاع أن يتخيل هذه التطويرات، لا بل لم يتوقعها ستكون كذلك في يوم من الأيام، كان يُشوى في الصيف. فيفتح شباك السيارة الأيمن كله، أما الأيسر فيفتحه قليلاً.

لأن فتحه على آخره يُصيبه بالصداع، ارتطام الهواء بالسيارة يتضخم، يقتلع جهاز السمع من أساسه، وحينما تهب الريح تحمل معها ذرات غبار تكاد تعميه في بعض الأحيان، أين أنت يا شندخ؟ في أحيان كثيرة يتذكر شندخ لا ينساه، كلما ينظر إلى ماكينة السيارة يتذكر مساهمة شندخ في مساعدته، يتذكر عائلة شندخ الفقيرة، يغبطه لعائلته، أفرادها كُثر؛ أب وأم وإخوة وأخوات، كانوا يلعبون معه في الشارع والبيت عندما كان صغيرًا، ويغبطه لأنه كان له جد وجدة وأعمام وأخوال في مناطق بعيدة عن بغداد. يسافر أبوه وأمه عندما يتزوج أو يتوفى أحد أقاربه، أما هو فلم يكن له سوى أمّه، وحينما رجع خاله من الأسر وجد فيه كل هؤلاء فأحبه من كل قلبه، فرحَ بزواجه فرحًا لا يوصف ليكتشف أن في قلبه أمكنة محجوزة سلفًا لحب جديد، من دون كل معارفه تمنى لو كان شندخ معه ليرى الماكينة الجديدة التي وُضِعَتْ بدل التي حملت بصماتهما، ماذا سيقول له حينما يرى هذه التحسينات؟ ماذا سيحس وهو يقطع الفيافي بعد الآن مرتاحًا، لا حَر لا برد لا ضوضاء لا صداع لا غبار، ما إن يصل بغداد ويُنزِّل بضاعته سيأتي بشندخ: أغمض عينيك.. افتح عينيك: "أين شاحنتنا؟" أراد أن يضحك، لكنه سيطر على نفسه:

- شكرًا.. إنها أشياء مهمة.

ثم فكّر قليلاً، تساءل مع نفسه: "لماذا غيَّروا كل شيء من دون إذنه ومن دون ثمن؟ أسيرغمونه على عمل لا يرضاه؟، قال الشاب:

- ليس هذا حسب.. انزل.

قال ذلك ونزل، دار الشاب ليصبح قربه من جهة عجلة القيادة، فتح الباب بوسعه:

- انظر هنا.. أترى شيئًا غريبًا؟

- لا.

- حسنًا.. انظر وراء مقعد السائق.

حدّق حسين، لم يرَ شيئًا..

- انظر بتدقيق.

ابتسم حسين:

- امتحان؟ لا أرى شيئًا.

ثم لاحظ رقا حديديًا يُطوى ويُنزّل ليضع عليه الحقائب الصغيرة، علت ضحكته:

- نعم هذا ممتاز، أحار دائمًا أين أضع حقيبة الملابس الاحتياطية، وحقيبتي اليدوية، لا يتسع المكان إلا لصندوق الثلج.

- لا.. ليس هذا ما أقصد.

تساءل حسين:

- ماذا إذن؟

ابتسم الشاب وأشار إلى زر صغير أعلى دوّاسة الفرامل، قال:

- اضغط عليه.

ضغط حسين على الزر انفتح حالاً باب وراء مقعده على طول القمرة كاشفًا عن فراغ بعمق ثلاثين سنتيمترًا ينزل من الأعلى حتى الأسفل، "اضغط على الزّر"، فعل حسين ما أمره به الشاب. انسدّ الباب، تغييرات الشاحنة مذهلة، لكن مرة أخرى: "لماذا فعلوا كل ذلك من دون إذنه ومجانًا؟ أيترتب أن يدفع شيئًا ما مقابل كل هذا؟ وما فائدة الفراغ وراء مقعده؟" كاد صوته يختفي، همس وكأنه يكلم نفسه:

- لماذا؟

- ماذا تقصد؟

- هذه التغييرات؟ هذا الفراغ؟

- مهمتي أن أريك لا أن أبوح لك.

أشار إلى أبي مازن، كان يقف على بُعد متر والابتسامة تملأ وجهه نصف الحليق مع مرافقيه، تقدم هذا نحوه أمسك يمناه مرة أخرى، أخرج ظرفًا مغلقًا سلمه له:

- هذه عشرة آلاف دولار، هدية أخرى لك.

دفع حسين يد أبي مازن:

- لماذا؟ تصليح الشاحنة، إضافتي في اسطنبول كافٍ، لنْ أقبلها، لستُ بطماع.

– أعلمُ أنك قنوع، أنت ممتاز، أخلاقك سامية، أبو حسين يتسمّع أخبارك لأشهر، وأختارك لذاك، هناك مهمة لنْ يقوم بها سوى شاب جريء شجاع أمين وهو أنت، هذه مقابل تلك.

كاد يضحك، آه.. إذًا هناك شيء، لا يوجد إحسان للاشيء في هذه الدنيا، تُرى ما هو؟ لم يترك أبو مازن له مهمة السؤال عنها، استمر:

– نريد أن تهرب ضيفًا عزيزًا علينا إلى العراق.

– كيف؟

أشار أبو مازن إلى الفراغ في قمرة السيارة، دق قلب حسين بعنف، احترقت دماؤه، إذًا هذا هو الثمن، هل ينفجر؟ غيَّروا شيئًا خاصًا له من دون إذنه! سيرغمونه على فعل لا يرضاه، كانوا كمن اغتصب شرفه، هل يثور عليهم؟ هل يعاركهم؟ أيفيد العراك بعد أن فعلوا ما فعلوا؟ هل يجن؟ هل يصرخ؟ فرحة انقلبت إلى مصيبة، تمنى لو كان قريبًا من البحر لرمى نفسه به وعام حتى تعب، لو كانت أمّه حية وهي قربه لوضع رأسه على كتفها وبكى، لو كان خاله معه لاستشاره! لكنه وحده، عليه أن يقرر وحده، ثم فجأة انتابته موجة ضحك، قهقه من كل قلبه "لعبوا به وعليه"، احتجَّ:

– لنْ ننجح ستصلهم أخبار الفراغ، سيتطوع من فعله بإيصال المعلومات.

ضحك أبو مازن:

- مستحيل.. صنعنا ذلك بمعامل شركتنا، لنْ يكتشف ذلك أحد ما لم تقم أنت بإخبارهم، هذا مستحيل، ستحاسب أيضًا.

لفّت الحيرة حسين فيما أخذ أبو مازن يضع يده على ظرف النقود ويطبقها عليه:

- لا تحترْ، كل شيء مدروس ومُخطط له، لنْ يحدث شيء، وزيادة في الحذر، لا تذهب عن طريق الشمال، فالأمريكان والأكراد يشددون كثيرًا، اذهب عن طريق سوريا.

- والكلاب؟

- لا يستخدم السوريون الكلاب في التفتيش، وحتى إذا استخدموها فالحل موجود عندك.

توقف وأشار إلى الشاب، تقدّم هذا فتح مجر الواجهة فرأى حسين بضع قناني رشاشة، تناول إحداها رش على الفتحة، فانبعثت رائحة طيبة جدًا، قال أبو مازن:

- إنها تصدُّ الكلاب ولها مفعول ثانٍ للدفاع عن النفس، فإن كان الرش مباشرًا من مسافة قريبة فهي تفقد المخلوق كلبًا أم إنسانًا وعيه حالاً.

- ماذا عمن يبقى في مكاني، أنا قريب من المخبأ، أتؤثر الرائحة عليّ؟

- لا تؤثر مطلقًا إن كان من يجلس بعيدًا عن نقطة الرش نصف متر أو أكثر.

- ألا يعرفها الأمريكان وباقي المفتشين؟

- لا.. إنها تصنيع محلي خاص لشركتنا، لنْ نُعلنْ عنه، لنْ نبيع تركيبه، لنْ ننتجه للبيع قط.

توقف برهة ثم نظر إليه بجدّ:

- أعندك سؤال آخر؟

- نعم.. كيف يتنفس المُهرَّب داخل صندوق حديد في هذا الصيف اللاهب؟

ابتسم أبو مازن، نظر إلى مرافقه الشاب، ركّز هذا عينيه في عيني حسين وقال بجد:

- يبدو الصندوق حديدًا لكنه مغلف بالخشب من الداخل، أما عن الحر، لو نظرت إلى الأعلى لرأيت ثقوبًا دقيقة لا يستطيع اكتشافها إلا من يصعد إلى سقف القمرة، ويخلع غطاءً آخر، مدّ يدك.

مدّ الشاب يده إلى الصندوق، فعل حسين مثله فسرت البرودة إليه، تأكد أن كل شيء مدروس بعناية كما قال أبو مازن.

- سيركب معك ضيفنا في القمرة حتى تقترب من نقطة الحدود، عندئذ تُدخله إلى المخبأ وتغلقه عليه، لا يزيد الوقت على نصف ساعة، إن تركتَ التبريد يعمل يستطيع أن يبقى لا نصف ساعة بل ساعات.

نظر زيد إليه وهو يؤكد:

- سأجيء معك أنا.

- إلى العراق؟

ابتسم أبو مازن:

- لا.. حتى الحدود السورية العراقية، حينئذ لا يبقى أمامك سوى نقطة مراقبة واحدة تمر بها وحدك.

التفت أبو مازن إلى محسن، نظر إليه نظرة ذات معنى فهرول هذا إلى سيارة مرسيدس صغيرة واقفة، استقلها ثم اختفى، أمسك أبو مازن يد حسين بحميمية والابتسامة تملأ وجهه

- لا أوصيك يا ابني بالرجل، أريد أن توصله إلى أخي عليّ أبي حسين آمنًا.

ردد حسين بآلية والصدمة تدوخه فتجعله يكاد يفقد شعوره بأنه حيّ:

- إن شاء الله.

لم يُفلت أبو مازن يده، قال باللهجة نفسها:

- تذكّر أن لا تسأله أي سؤال حتى عن اسمه، أن لا تسأله أين سيمكث في العراق، مَنْ عائلته.

ثم ابتسم بتهديد مبطن:

- أي سؤال، أي استفسار.

هزّ حسين رأسه من دون أن ينبس بكلمة، أكد أبو مازن مرة أخرى بلهجة تهديد واضحة:

- أرجو أن تكون وعيتَ ما أقصد.

فجأة تملك الغضب حسين حدّق فيه ساخطًا تلتهب دماؤه، هتف وهو يرجع كيس النقود:

– لا أحب من يهددني، خذ المال والشاحنة لا أريد شيئًا.

قال ذلك وتركهم مذهولين ضحك أبو مازن بقوّة أشار إلى الشباب، هرعوا جميعًا نحوه سدوا طريقه، اقترب منه زيد عانقه قبّله في جبهته:

– لا تغضب هو كأبيك، لا يقصد التّهديد.

أمسك أبو مازن يده:

– ثق أني لم أنو تهديدك.

أحس حسين بدمه يبرد، مدّ أبو مازن ذراعيه عانقه حدّق فيه:

– اهدأ.. لا نريد سوى خيرك.

فكّر حسين طويلاً ثم نظر إلى أبي مازن:

– أريد أن تغيروا لون الزجاج إلى أسود، سيقضي الرجل مدة طويلة جالسًا قربي، لا أريد أن يراه أي كان، من يقابلني وأنا أسير، أو من يحاذيني فيسبقني.

فتح أبو مازن عينيه بإعجاب:

– أنت تُفكّر في كل شيء.

– أتمنى ألا يفوتني شيء، قضية حياة أو موت.

التفت إلى اليسار شاهد محسن قادمًا بالسيارة، توقّف قربهم، كان متلهفًا لرؤية الرجل اللغم، انفعل، بلل العرق جسده بالرغم من

نسيم الصباح، حدَّق بزجاجة السيارة الأمامية وهي تعكس أشعة الشمس، أراد بلهفة شديدة أن يتبين الشخص الجالس قرب السائق لكنه لم يستطع تشخيص ملامحه، شاهده وهو يفتح الباب الأيمن، يمد يده بحقيبة دبلوماسية خارج الباب، ردن قميصه زيتوني غامق فيه نقط سود، ثم شاهد ساقه اليمنى تلامس الأرض بسروال رمادي عميق يقارب السواد، ثم به يترجل، ها هو الرجل اللغم الذي سيقع على عاتقه تهريبه، تُرى هل سينجح؟ أم ينفجر اللغم ويقتله معه؟ انتصبت أمامه "تبْع" التي تعد أوقات غيابه بالساعات، بالدقائق "رحلتك هذه المدة قصيرة، خمسة أيام وعشر ساعات واثنتا عشرة دقيقة، يعني مائة وعشرين ساعة، سبعة آلاف وثمانمائة واثنتي عشرة دقيقة"، تضحك من كل قلبها، تسجل ذلك في دفترها، ترى كيف ستشعر إن ألقي القبض عليه في سوريا؟ وحكم عليه بالمؤبد في سجن يستحيل عليها رؤيته؟ إن ألقي القبض عليه في العراق وأعدم؟ هل ستنتحر؟ أم تذبل كأمّه وتصاب بمرض يقتلها؟ لم يغّشوه ويورطوه وحده بل غشوا وورطوا معه "تبْع" البريئة الطيبة أيضًا. عصابة مجرمين! أي وهدة وقعت فيها يا حسين؟ حدَّق بالرجل المصيبة بتمعن، متوسط القامة يميل إلى السمنة، شعر وجه نصف حليق مع شارب مشذب بعناية، نظارات شمسية عريضة، قميص محكم الأزرار، شعر رأس قصير أشمط، أميل إلى السواد بارتفاع إنش، أسمر فم كبير لا

يتناسب مع أنفه الصغير الأقنى، تقدم منه الجميع بإجلال، صافحوه مع انحناءة كبيرة، تُرى أي شخصية هذا اللغم؟ من أين تنبع أهميته؟ من هذا الذي يكلف توصيله إلى بغداد عشرة آلاف دولار؟ الحياة غالية لا تُقدر بثمن، لكن هناك الآلاف في العراق لا يجدون ما يسدون به رمقهم إلا حصة التموين الحكومي، مستعدون للعمل ليل نهار لقاء عشر دولارات في اليوم، من هو الذي يكلف هكذا!؟ أيمكن كشفه في المستقبل؟ أشار أبو مازن إلى حسين، قال بلهجة غاية في اللطف مع ابتسامة:

- ولدنا حسين سيوصلك بأمان.

ابتسم الرجل شدّ على يد حسين بقوة وهو يقترب منه حتى بات يشمّ زنخة البيض مع البصل التي أفطر بها، كاد يتقيأ ثم سيطر على نفسه، لم يعرف لماذا وقف أمامه جامدًا برهة، أهو يتساءل كيف يضع نفسه وحياته بيدي شاب لا يعرفه؟ أهو يتفرس فيه ليرى إن كان قادرًا على إيصاله سالمًا؟ أيريد أن يحتفظ بملامحه في صدره ليتذكره إن حدث حادث ما؟ تلك هي ميزة النظارة السوداء، تُمكّن صاحبها من التدقيق بالغير وتحمي صاحبها. لم يدر لماذا تولّد عنده إلحاح قوي لمعرفة لون العينين، سعتهما، تعبيراتهما، الأسئلة التي تحيا فيهما. فكّر حسين بالطريق الطويل إلى بغداد، نحو ألفي كيلومتر، لا عشرة ولا عشرين، استعرض المصاعب والمنغّصات، مرة أخرى تساءل مع نفسه أيجب عليه أن

يقول شيئًا! وكما يحدث له دائمًا يفقد قدرة التّعبير في مواقف مشابهة، ثم فجأة لمعت لديه بعض الأفكار، أفلتَ كف الرجل اللغم، أسرع إلى أبي مازن أمسك يده ثمّ قرب فمه من أذنه، همس:

- عندي بضع كلمات.

تجهم أبو مازن لكنه استبدل تجهمه حالاً بابتسامة كبيرة مصطنعة ولدت عند حسين انطباعًا بأنه يتمتع بخبرة عميقة في السيطرة على مشاعره في مواجهة التقلبات؛ قرَّب أذنه من فم حسين:

- نعم.

ابتعد حسين بضع خطوات اضطره لمتابعته، قال:

- تنتظر الشاحنات لتعبر أي حدود بين عشر ساعات إلى يومين، حدود المملكة السعودية. الأردن. الإمارات إلا تركيا فهي أقل، بين خمس إلى عشر ساعات، أعرف بعض ضباط شرطة في كل نقطة تفتيش عربية. خمسون دولارًا تفتح الباب لكن مرور الشاحنة شيء ووجود ما يجلب الشك شيء آخر.

كان أبو مازن ينصت باهتمام، سأل:

- يعني ماذا؟

غمز حسين عينه نحو الرجل اللغم وقال:

- انظر إليه؛ أي ملابس يرتدي؟

- ما العيب في ملابسه؟

– ألوانها، وقميصه المشدود على رقبته من دون رباط تشي أنه من بلد معين، سيجلب الشك، المخبرون أذكياء يرتابون في أبسط إشارة، نقاط الحدود مليئة بالمخبرين.

اسودت الدنيا في عيني أبي مازن، تساءل حسين في داخله: لابد أني أسخطته؟ ثم ماذا؟ ليكن.. عليه أن يفهم أن ما كل شيء ينجح بالفرض واستغلال الآخرين، قرر في داخله أن يتوقف عن التعامل معهم ما لم يتجاوب أبو مازن معه، حتى لو ترك الشاحنة لهم وأرجع أموالهم، عندئذ سرت شحنة راحة تتوجها كبرياء يكر في دمه، الرجوع إلى بغداد خالي الوفاض أفضل من الموت، والإفلاس ثم البدء من جديد خطوة خطوة خير من التعفن في السجون والزنازين الانفرادية بتهمة تهريب شخص لا يعرف من هو، وماذا فعل! ظل يحدق في عيني أبي مازن بتركيز، بدا هذا يعمل فكره، فجأة ابتسم، رفع يده إلى كتف حسين، ربت عليها:

– أحسد أخي أبي حسين على فراسته، على اختيارك، كل ما نقله عنك صحيح، أنت أصغرنا، أنت أذكانا، أنت سكوت عملي حكيم، إنني أثق بك.

ثم هتف بأعلى صوته ليسمعه الجميع:

– تأجل السفر إلى الغد فجرًا.

صفق الشباب الأربعة، فرحوا كأنهم تلاميذ صغار يصرفهم المعلم من الصف إلى بيوتهم، تقدم منه ميثم وهو يشدّ على يده:

- سأريك أجمل منظر في اسطنبول.

قاد ميثم سيارته بهدوء، قدّر حسين أنه يريد أن يتركه يتملى المناظر الجميلة. ثم توقف بعد نحو خمس عشرة دقيقة، قبل أن يسأله حسين لماذا توقف مدّ يده وأشار إلى مجموعة من السياح؛ يابانيين، تايوانيين، سنغافوريين، ماليزيين الخ، تجاوز معظمهم الخمسين، معهم نساؤهم، يرتدون قبعات المستكشفين الخاكية، وعلى صدورهم تنطرح آلات تصوير متنوعة، مع أكياس جلدية تحوي نظاراتهم ووثائقهم، كانوا متجمعين، يضجون في نقاش حار، في ساحة كبيرة، في كل ركن منها لوحة ملونة للزّنابيل والمرواح والمكانس العراقية، السياح واقفون يصورن أنفسهم مع بوسترات الحسناوات وهن يروّحن بالمراوح الخوص على وسطهن الحساس أو مؤخراتهن الجميلة، أو هُن يحملنَ زنابيل فيها حيواناتهم الأليفة، قهقه ميثم:

- أرأيت؟.

ضحك حسين بابتهاج:

- نعم، هذا هو الفن!.

فجأة انتصبت أمامه صورة الرجل اللغم يترجل من السيارة وبيده حقيبته، وتَبدت البهجة حل مكانها قلق وخوف شديدان، ترى ماذا سيحدث له إن اكتشفوه! أخيرًا توقفت السيارة، مطعم مُطل على البسفور، على بعد نحو كيلومترين بحر شاسع، قوارب، غابات لا

حصر لها تتخللها بيوت في تنسيق رائع، نوارس، ابتسم حسين مذهولاً لانهيال جمال الطبيعة من ملكوت الفردوس أمامه، ردد بصوت خافت: "الله! ما هذا؟ اختيار ممتاز!"، مناضد الطعام بأغطيتها المارونية، أمام كل كرسي صحونه وشوكته وملاعقه، نوادل في زيهم الرسمي الأنيق، دهمته سعادة لا حد لها، حتى عندما عادت صورة الرجل المصيبة تقتحم رؤاه، لكنها لم تحمله على التشاؤم، أبعدها هذه المرة بسهولة، ليكن ما يكن، هذا قدره، تمنى لو "تبع" معه! كيف ستُدهش! أي بسمة ستنطبع على ملامحها لتشعرها بالتميز! لأول مرة في حياته يرى آلاف المراكب الصغيرة البيضاء متراصة، صواريها غابة أعمدة تلمع في ضوء الصباح، أيوجد مثل هذا الكم من الناس مرفهين في مدينة واحدة؟ من أين يحصلون على المال؟ لمح في عرض البحر ربما على بُعد أربعة أو خمسة أميال قاربًا شراعيًا، يبدو في ضوء الشمس قطعة فضة خالصة تجرح المياه بدأب لا يلين، تناولا غذاءهما هناك، رجعا عصرًا قبل المغيب، أسره البحر، لم تفارق عيناه أمواجه، زرقته الضاربة نحو السواد، تقلباته. رياح خفيفة تخلق الموج الصغير المعمم بزبد أبيض، لوحة لا مثيل لها لبحر أزرق، خضرة وارفة وبيوت غارقة في البياض مُطلة على البحر بأشجارها المتدرجة التي تُشبه ما تصوره الفنانون عن الجنائن المعلقة.

* * *

في فجر اليوم التالي جاء أبو مازن والرجل اللغم في سيارة يسوقها محسن، وجاء شابان من المرافقين في سيارة أخرى، وحينما ترجلوا لاحظ حسين أن شكل الرجل المصيبة تغيَّر إلى زي رجل تركي عادي، قميص نصف ردن أبيض، مفتوح الأعلى على "فانلة" بيضاء، سروال أسود، قبعة أوربية "كاب" أزرق، ابتسم راضيًا ونظر إلى أبي مازن الذي بادره حالاً وبثقة:

- والآن؟

هز حسين رأسه:

- جيد.. لكنه ناقص.

ذهل الجميع. هتف أبو مازن وهو ينظر إليه باستغراب:

- ناقص ماذا؟

- أنا سأتكفل بالباقي، لا عليك.

أصر أبو مازن:

- لا.. إنها مسؤوليتي، عليَّ أن أعرف.

ابتسم حسين:

- ما دمتَ تصر، هذا زي الأتراك في هذا السن، زي موفق، لكن في سوريا والعراق سيظنونه تركيًا ما لم يخلع القبعة، إن خلعها ربما يشخصه من يعرفه، أريد تنكرًا كاملاً، سأشتري له أنا في سوريا "دشداشة" وكوفية وعقالاً ليستبدل ملابسه هناك ويبقى فيها

حتى يدخل العراق، ظننتكم حضّرتُموها، ولما لم أرَ أي حقيبة معه تدخلتُ، أنا لا أتدخل عادة.

ضحك أبو مازن ضحكة قصيرة ثم التفت إلى الجمع:

– ألم أقل لكم إنه ذكي.

– تدّخل دائمًا، ملاحظاتك مهمة، في مكانها، لا تتردد.

كان ذلك صوت الرجل اللغم، صوت خشن، مخرش للأذن، لم يرتح له قط، فيه لكنة خاصة غريبة، عندما كان يتكلم لمع نابه الأيمن مغلّفًا بالذهب غير مرة، لم يدر حسين لماذا شعر بأنه أشبه بناب مصاص دماء رآه في أحد الأفلام، ثم لحظ أنهم وضعوا نايلون أسود على زجاج شباكي السيارة فابتسم بارتياح. صعد وصعد زيد، جلس إلى جانبه، ثم صعد الرجل اللغم بعده، وضع حقيبته الدبلوماسية تحت مقعده خلف قدميه، حينئذ اقترب أبو مازن من جهة عجلة القيادة، سلّمه ظرف رسائل صغير:

– هذا لأخي علي أبي حسين.

– ماذا إن فتحوه في الحدود.

– ليكن.. ليس فيه شيء مهم، عن البضاعة وتطويرها.

ابتسم حسين وهو يتصور كيف أطالوا حبل الزّنبيل، إذًا فمن هنا تصدر التحسينات.

* * *

كانت المآذن الفريدة وقبب الجوامع الزُرق أخر ما رآه من اسطنبول وهي تنسحب إلى الخلف في مرآة الشاحنة، بينما أصبح البحر الذي لا يمل النظر إليه في الجهة اليسرى، يا له من عالم ممتع! لمحت عيناه قاربًا شراعيًا أزرق فويق ماء فضي لـمّا يفق بعد من مضاجعة الضباب، لم يبدُ من القارب سوى شراعه يجز الغيم كالسكين، تساءل مع نفسه كيف يعرف قبطانه طريقه وسط كل ذلك الضباب، ظلت عيناه ملتصقتان بالشراع الأزرق حتى اختفى كلية كما لو كان حلمًا، هكذا تحفر الأحداث ذكرياتها! تمنى لو كانت "تبغ" معه في ذلك الزورق!

كما يحدث بعد نصف ساعة من مغادرة أي مدينة، يصبح الطريق أقل ازدحامًا، لكنه وهو يسوق في شاحنته التي اكتسبت شبابًا جديدًا غريبًا عليها أحس أنها أكثر مرونة وأنها تسير بانسيابية لم تتوفر فيها من قبل، وأن في عجلة القيادة الجديدة من اللين والسلاسة ما لم يحلم به، أصبحت طيعة كأنثى تلتقي حبها الأول، لم تعد القيادة متعبة قط بل متعة لذيذة، كأنه جالس في سيارة صغيرة.

قبل أن يطوي صفحة اسطنبول تبدّى أمامه شيء ساهم به، أحس أنه ملكه قبل أن يكون ملكًا لأبي مازن، على الجهة اليمنى من الطريق أربع لوحات ضخمة بحجم هائل، تعرض البضاعة التي أوصلها إلى تركيا، حسناء شقراء تحمل كلبًا صغيرًا جميلاً، تحت

إبطها ملفوفًا ببطانية عليها صورة علم تركي ورأس الكلب بارز من زنبيل الخوص مع يديه الصغيرتين، وهو ينظر نظرة حيَّة مفعمة بالامتنان والسعادة، وطفلة تُعلق الزّنبيل على كتفها الأيسر وتشد يديها على حبله بعد أن أصبح مهدًا لقطيطتين صغيرتين فاتقتي الجمال، أما صورة الحسناء التي ترفع ذيل تنورتها، فيُظهر معظم لباسها الداخلي المطرز بدانتيلا لذيذة، وفي يمناها مروحة تدفع الهواء إلى وسطها الحساس، فلا يمكن أن تُمحى من البال، كذلك صورة لم يرّها في الأستوديو فوجئ بها في الطريق "ظهر امرأة منحنية إلى الأمام وشاب خلفها يرفع ثوبها بيده اليسرى، فتظهر مؤخرتها الجميلة ببكيني أحمر زاهٍ صغير جدًا، في يد الشاب اليمنى مروحة تدفع الهواء إلى مؤخرة الحسناء، وجه الشاب إلى الجمهور يبتسم فخورًا بمهمته، ابتسم، لولا من معه لقهقه، لابد أن هناك صورًا أخرى! بيد أنه وهو ينظر إلى اليمين لمحت عيناه الرجل المصيبة، انقبض قلبه، تُرى هل سيوصله سالمًا أم سينتهي وإياه!، رجف قلبه، ودَّ لو لم يرَهُ قط، ثم قرر أن ينساه، أن يعتبره جزءًا من المقعد، آلة من السيارة، غير موجود، لم يرّه، ليعد إلى عالمه الداخلي، إلى ذكرياته.

الطريقُ قدرٌ مستبد، يفرض نفسه عليك، يلغي حريتك، اختيارك، وجودك، ما إن تبدأ به، حتى تخضع لشروطه تعسفه، هكذا هي الطرقات بين المدن! من أول متر تُفقِدك شخصيتك، تمتلكَكَ عبدًا لا

حول لك ولا قوة، أنت خاضع لها أبدًا، لا مفر، كيف تريد أن تتحرر منها وأنت سائق شاحنة! حين تغفل عن المخرج القادم الذي تريد أن تسلكه بمتر واحد يستحيل عليك الرجوع حتى تقطع في الأقل عشر كيلومترات ذهابًا ومثلها إيابًا، لكنْ يجب عليك الاعتراف لولا الشاحنة لكنت ميتًا، استعبدتك لكنها في آخر المطاف أنقذتك.

* * *

يهمس أرنان بالإنكليزية: "فطور؟" يعتدل في متكئه، منذ أسبوع وذلك البدين يتمدد على ظهره، هكذا هم السياح، لا يغيرون مكانهم، الشمس جهنم تسلق البشرة، الماء بارد، جسده ضخم أبيض، حمَّرته أشعة الشمس، صديقته نحيفة سمراء في الخامسة والعشرين، ثدياها عاريان مدوران منتصبان، برتقالتان ناضجتان شهيتان، تسحبه، يرفض، تركض نحو البحر وحدها، تختفي، يرفع ذراعاه إلى الأعلى، يفرد سبابتيه، يُبقي يديه هكذا حتى يتعب، ينزلهما، يرتاح، يعود يرفعهما مرة أخرى؛ لماذا يفعل ذلك؟ تُقْبل صديقته من البحر راكضة والرذاذ يتطاير من خصل شعرها الكستنائي الطويل بعبثية، ترمي نفسها عليه، تدفن وجهها في رقبته كأنها هاربة من وحش، يعانقها، ينهض قليلاً يستقر فوقها، يمنع أشعة الشمس عنها، يغمض عينيه، لا يظهر من رأسيهما سوى قمة جبل صغير أسود يجلل أرضية كستنائية، ينحني أرنان،

تتدلى من كتفه الأيمن ضفيرته الخلفية الشقراء، يضع صينية الفطور على منضدة صغيرة قربه، يغادر مسرعًا، ينظر إلى الصينية، بيضة جبن فطيرة سبانخ مربى خبزة صغيرة قهوة بالحليب، يمد يده، فجأة يرفع بصره جهة البحر، ابتسامة تملأ الكون، مراهقة شقراء في السادسة عشرة لوَّحتها الشمس، طويلة بداية الامتلاء، بدأ خصرها للتو ثورته على الطفولة، تفتح رجليها في الوقوف، تُجسم الوقفة الجسد يقذف حِمم رغبة تلهب الكون، يُغطي حلمتيها قطعتا حرير ورديتان، بحجم عملة نقدية حمراء، ويدل مثلث الوسط قطعة دائرية حمراء بحجم دراقة، وقفت تنظر إلى الصينية بجوع، مد يده نحو الفطور يدعوها، جلست لصقه، حرارتها لاسعة، تضحك، تندلع الكلمات من فمها، لا يفهم الكلمات. يفهم من الإشارات أن نارين تحرقانها، أشعة الشمس ورغبة الجسد، تأكل بنهم، تتعمد الالتصاق به بين لحظة وأخرى، ترفع حمالة النقد الدائرية عن نهدها الأيسر لتريه حلمتها منفوخة مثيرة تتأجج نارًا، استمر يأكل، تقفز مغادرة، يعود إلى متكئه الخشبي، يسند ظهره بارتياح، يرى أمامه الجسد الضخم الأبيض المحمَّر رافعًا ساعديه من جديد فاردًا سبابتيه، لا يرى صديقته قربه، يشم أصابعه، تُقززه زنخة البيض، ينهض يغسل يديه في المطعم، يرجع، يرى المراهقة الشقراء متمددة في مكانه، شعَّت ابتسامتها باستفاضة، نهضت، رجع إلى مكانه، التصقت به على حافة المتَّكأ.

داعبت شعر صدره، قبَّلته غير قبلة، لم يتحرك، نعست، ترك مكانه لها، نظر إلى أرنان، جاء مسرعًا وضفيرته الخلفية تهتز، أشار إليه أن يجيئه بمتكأ آخر.

يبدأ الطريق حين تخرج من بغداد، دمشق، البصرة، حلب، الموصل، اسطنبول أي مدينة كبيرة مزدحمًا مختنقًا يثير الأعصاب، ثم يخف الازدحام حتى تُصبح وحدك في الطريق، لا ترى سيارة تتجاوزك تواجهك إلا خلال خمس إلى عشر دقائق، أحيانًا ربع ساعة، عند ذاك لا تفكِّر إلا فيما يملأ مخك ومخيخك من مشاعر وإحساسات، تبرز "تبْع" من الشعور واللاشعور، "تبْع" بضحكتها الكريستالية، بحديثها العسل، بحركاتها الخفيفة، بلمساتها الحبيبة تملأ عليك وجودك.

لم يجد أحدًا في البيت، عاد في الظهيرة، ذهب إلى بيت خاله، فتحت الباب أمينة فغمته رائحة رز العنبر مع البصل المقلي، أحس بالجوع حالاً، ابتسمت وقالت له: تعال كنا نتوقع مجيئك، قف هنا لا تتقدم.

بيت خاله كبير ليس كبيته، ينفتح الباب على غرفة استقبال ومطبخ وغرفة معيشة، غرفتا نوم في الأعلى، أحس أنها تريد أن تطلعه على شيء، تفتَّحت نفسه لاستقبال فرح ما، قال:
- خير؟

ضحكتْ:

- خير طبعًا.. أغمض عينيك.

ابتسم أغمض عينيه، أمسكت يده، قادته إلى غرفة المعيشة:

- افتح عينك.

فتحهما وجد "نبْع" وفتاة أخرى في عمرها نفسه، تُشبهها كأنها توأم، كلاهما ترتديان زي الجامعة الموحد، ذهل أراد أن يسأل لكنه أمسك، قهقت أمينة و"نبْع" ابتسمت الفتاة، قالتْ "نبْع" وهي تشير إليها:

- رقْل.. زميلتي.

أحس بأن أمّه عادت إلى طبيعتها المرحة، فرح، عادت السعادة ترفرف على البيت، لكنها فجأة مرضت، لاحظ في المدة الأخيرة أنها تزداد نحافة وشحوبًا، سألها غير مرة إن كانت تحس بشيء، أجابت: "لا"، جاء من الأردن لم يجدها، لم يجد "نبْع"، علم أنها في مستشفى خاص يعود إلى عم رقْل جراح الصدر المشهور "مروان عبد القادر"، في المستشفى علم أن جد رقْل الدكتور صبحي ووالدها الدكتور ممتاز وأمّها كلهم يعملون معه، أغمي على أمّه قبل أن تذهب إلى الدوام، بقي معها فترة، لم يتكلم معها، كانت نائمة، ناحلة ضعيفة يكسو الشحوب سحنتها، لأول مرة لحظ الشيب يغزو شعرها بكثافة، قلق بشدة على صحتها، لكنه اطمأن

إلى العناية بها، قادته "نبْع" إلى الطبيب، كان في ستيناته، لم يخبُ بريق عينيه، تلمع نظراته بتركيز وفتوة، قال له:

- التدخين.. كان عليها أن تأتي قبل سنة في الأقل، فات الأوان، خذها إلى البيت، اعتن بها، سنكتب تقريرًا إلى وزارة التّربية.

- والدواء.

- لا دواء الآن، مسكنات الألم فقط.

ذهب بعد أن شكر الطبيب إلى المحاسب، قال له راجع المدير، فوجئ، رفض الطبيب أن يتسلم أي مقابل، ابتسم حسين قال بشكل حاول أن يكون مقنعًا:

- أرجو أن تأخذ مني كما تأخذ من الآخرين، أستطيع أن أدفع، الفقراء أولى مني.

هزّ الطبيب رأسه:

- لا ابخل على الفقراء، أساعدهم ما أمكن، لكني سآخذ منك بطريقتي، ليس الآن، سمعتُ أنك تذهب إلى الأردن وسوريا وتركيا كثيرًا.

- نعم.

- إذًا فسنكلفك بجلب أدوية نحتاجها في المستشفى، قتلنا الحصار.

- في أي وقت تشاء.

ضغط الطبيب على الجرس، جاء إداري يرتدي صدرية بيضاء، قال:

- هات قائمة ما نحتاجه من الأدوية ليجلبها من الأردن.

حين نظر حسين إلى القائمة رآها كبيرة جدًا، حدّق بالطبيب وعيناه تتساءلان وفمه عاجز عن التعبير، قال الطبيب:

- لا تعجب. إنها قائمة طويلة بمئات ألوف الدولارات، إننا ننتظر موافقة تحويل العملة ونتوقعها قريبًا، ستأتي غدًا أو بعد الغد، لكني لا أريد أن أحول بينك وبين السفر، ربما سيكون كل شيء جاهزًا في قدومك من سفرك اللاحق.

تنفس حسين بارتياح:

- لستُ على عجل، سأبقى أسبوعًا في الأقل، ريثما أطمئن على أمي.

فوجئ بوفاتها كما فوجئ بمرضها، عاد من إحدى رحلاته بعد بضعة أشهر، وجدهم قد دفنوها في يوم سابق،

أنت الآن في عالم آخر، انتهت الرحلات، انتهت المفاجآت، تقاعدت وأنت في الثلاثين، لم يبقَ لديك شيء سوى اجترار الماضي، مراقبة الحياة في منفاك على الشاطئ البعيد، لماذا تنغص حياتك، إنسَ.

كلب صغير لا يتجاوز طوله قدم واحد، سلسلة فضية تمسك بها عجوز سبعينية ضئيلة، ذات قبعة قش كبيرة، خُصل شعر الكلب حرير طويلة تلمع في ضوء الشمس، عسلية بيضاء كستنائية، عينان تلمعان، وقف الكلب، حفر الرمل بمخلب قدمه الخلفي،

بضربات سريعة متتالية، تناثر الرمل فوق صدر عارٍ لمغربية حسناء تفترش منشفة مورقة بالأزرق، غطى الرمل نهدها بلحظات، كانت تضع زندها على عينيها اتقاءً لأشعة الشمس، فزّت مرتعبة، وهتفت: "سنيورة" وكلمتين اثنتين، وكلمة عجوز بالعربية، تنبه رفيقها صرخ على العجوز بصوتٍ عالٍ، ردد الكلمتين كلتيهما، سبها بالعربية، التفتت صاحبة الكلب المسنة، صرخت على الكلب بكلمتين أيضًا، هرب الكلب سبق صاحبته، بدأ يشمم ما أمامه بهدوء، دون اكتراث كأنه لم يفعل شيئًا، أخذت الشابة تنفض الرمل عن نهدها الأيسر مسًا رفيقًا هادئًا، كأنها تخشى عليه من لمسة هواء تجرحه، بينما أخذ رفيقها ينفخ عليه ويضحك، هل فعل الكلب ذلك ببراءة أم بخبث كلُعيبي! لماذا لا تغادر صورة الجزار لُعيبي، والخبيث الأمغر مخيلته؟

في الظهيرة وصلوا الإسكندرونة، كما توقع حسين لم تستطع الشاحنة أن تعبر إلى الحدود السورية إلا في اليوم التالي صباحًا، هناك تأخروا نحو عشر ساعات أخرى، في نحو العاشرة ليلاً وصلوا إلى حلب، اقترح زيد أن يذهبوا إلى فندق لكن حسين عارضه:

– لا فندق ما دام الرجل معنا، اذهب أنت وحدك، أما أنا وهو فسنبقى هنا.

احتج زيد:

- لماذا؟ كيف ترتاحان؟

- لا يستطيع استعمال جوازه.

التفت الرجل المصيبة إليه وقال بصوته المخرش:

- لم أجلب معي أي جواز، كان رأي أبي مازن استحصال جواز تركي، لكنه لم يتمكن من ذلك.

ابتسم حسين:

- حتى لو عندك لنْ أسمح لك بالذهاب إلى الفندق.

- لماذا؟

- سوريا العراق إيران، تذهب أسماء النزلاء إلى الأمن يوميًا، مَنْ يدخل البلد من دون تأشيرة يُعتبر مجرمًا لا يستطيع المغادرة، يتعفن في السجن إن لم يُقتل في التّعذيب.

تثاءب زيد:

- أنا متعب، ميت، سأذهب لأنام.

- هات معك في الصباح زيًا بدويًا واجلب لنا إفطارًا.

أضاف الرجل:

- في فندقنا الفاخر.

أشار حسين إلى القمرة ثم قال للضيف:

- ألم تنم يومًا وأنت جالس؟.

قهقه الرجل اللغم بصوته الغليظ:

- بلى.. لكنني جائع.

أشار حسين إلى عشرات المطاعم الصغيرة في ساحة ذات ضوء خافت أصفر، حيث تصطف عشرات الشاحنات والحافلات وسيارات السياح:

- سآتيك بالطعام.

ابتسم الرجل اللغم:

- لم لا نأكل هناك معًا؟

- لا.. هذه مطاعم يؤمّها المسافرون والمخبرون والمقنعون، أنا لا أثق بالمصادفات.

- أنت على حق.

قال ذلك ونزع نظارتيه السوادوين الكبيرتين ووضعها في جيبه، في ضوء القمرة القوي رأى حسين عينيه الصغيرتين المكمودتين بالضغط والخوف، نظرته القاسية، أسمر مع بشرة تميل إلى الصفرة، جبهته ضيقة تظهر عليها خطوط عرضية واضحة، لم يتذكر أين قرأ أن القلق والخوف الدائمين يؤديان إلى اصفرار البشرة! تُرى ما الذي يقلقه؟ أهي المهمة الخطرة التي سيقوم بها في العراق؟

* * *

في نحو العاشرة صباحًا جاء زيد ومعه فطور يكفي خمسة أشخاص، اعتذر لتأخره، سوق الملابس لا يفتح أبوابه مبكرًا:

- أنا قلق عليكما، لابدّ أنكما جائعان.

قال الرجل:

– أفطرنا هنا.

– والطعام الذي جئت به؟

– سنأخذه معنا وسنشتري ثلجًا لحفظ الماء البارد في الطريق.

صعد إلى الشاحنة شغّلها، فتح مكيف الهواء، طلب من الرجل أن يستبدل ملابسه، لكن هذا لم ينتبه إليه سمعه يقول لزيد:

– ارجع، لا حاجة لتبديد وقتك.

– لكني مكلف بإيصالك إلى الحدود السوريّة العراقيّة.

– لماذا؟

– لأطمئن.

– أنا مطمئن الآن، أثق بحسين.

– حتى أنا أثق به، حسين لا مثيل له، لكني أخشى غضب أبي مازن.

لم يتدخّل حسين، توقف زيد عن الكلام لحظة، نظر إلى حسين:

– أرجو أن تشهد أنه هو الذي طلب مني أن أرجع.

– أشهد.

ثم التفت زيد إلى الرجل:

– أريد أن تكتب لي ورقة تقول فيها إنك نزلت برغبتك رغم معارضتي.

ضحك الرجل بصوته الأجش:

- أفعل.

سأل حسين الرجل عندما سارت الشاحنة:

- هل المخبأ مريح؟

- نعم.. جدًا، لكن الوقوف الطويل على القدمين مُتعب ربما أطلب منهم أن يجعلوه في المستقبل أفقيًا.

كلمة "أطلب منهم" أعطت حسين انطباعًا بأهمية الرجل، لو لم يكن في موقع مهم لما قال أطلب، قال حسين:

- فكَّرتُ في ذلك، لكن لا أظنهم يستطيعون.

- إن فعلوا فسيكون مريحًا حقًا. سكت برهة ثم قال: قلبي سيدق حينما نصل الحدود العراقية.

- القلب لا يتوقف عن الدق؟.

ضحك الرجل وقال:

- إنني أثق فيك، سأوصي علي أبو حسين عليك.

- شكرًا.

- ألا تريد أن تعرف اسمي؟

- أتشرف بذلك.

- لم تسألني عنه!

- خشية أن أحرجك.

- لماذا تحرجني؟

- في الحقيقة لا أريد.

- لماذا؟

- أنا صادق لا أكذب، فماذا سأفعل إن وقعت بأيديهم (لا سمح الله) وسألوني عنك؟.

قهقه الرجل:

- أنت نبيل، أنا عامر أبو خنعة.

- لماذا ذكرت اسمك؟

- ما مر بي لا أستطيع أن أنساه قط.

- أين؟

- عنايتك بي.

التفت إليه حسين، حدَّق به تحديقة عميقة:

- لا أريد أن أتورط معهم.

- الحكومة؟

- نعم.

- إن وقعتُ بيدهم سيقتلونني لا محالة، سواء اعترفتَ عليَّ أم لا.

- سأقتل أنا أيضًا.

ضحك الرجل اللغم:

- أمر الله.

- لهذا فقدت إيماني به.

- من يفعل أفعالك مؤمن مهما يقل، لكن ذكرني أن نتصل بعلي أبي حسين ما إن ندخل الحدود العراقية.

- أتريد رأيي؟

- نعم. تذكّر أنني قلتُ لك تدخل أي وقت تشاء.

- لا تتصل به.

- لماذا؟

- من يمارس السياسة ضد الدولة في العراق عليه أن لا يثق بالظروف قط.

- صدقتَ، لكنه الوحيد الذي يستطيع أن يوصلني إلى ما أرومه.

- لابد أن أبا مازن اتصل به، وسينتظرك في الحصوة إن سار كل شيء على ما يرام ولم يكشف أحد وصولك، أما إذا اعتقل لا سمح الله، فسينصبون لك كمينًا.

- وماذا لو انتظرني وملَّ ورجع إلى البيت؟

- سأوصلك إلى بيتي وتقضي ليلتك معي آمنًا مطمئنًا، وفي الصباح ستسمع عنه.

تنهد عامر:

- أنت حصيف، ما أشدَّ حاجتنا إلى رجل مثلك.

أراد حسين أن يُعقّب لكنه لم يجد ما يقول، مرّت الشاحنة في ضواحي حلب، ساحات وميادين وطرق متربة مغبرة غير معبدة، مزدحمة، متسولون، بائعوا ملابس مستعملة، أدوات صحية، مواسير صدئة، عربات تعرض البرتقال والعنب والفاكهة المجففة، أطفال في أسمال يبيعون الشوكولاتة والمحارم الورقية وعلب الماء،

والعلك. يصبغون الأحذية، معظمهم حفاة، نحفاء رثوا الملابس، نظراتهم قاسية حادة جافة، رأى مثلهم في العراق والأردن وتركيا، دائمًا يلوح أمامه هذا السؤال: لماذا خُلقوا؟ أليعيشوا تعساء؟ لماذا يولدون ويعيشون في شقاء لا فكاك منه؟ أول الأمر كان يُعطيهم ما في جيبه، ثم توقف كي لا يظنوا أن في العالم رحمة يمكن أن تتداركهم يومًا ما.

* * *

هنا أمام الشاطئ في المهجر أمان كثيف كالزبد تستطيع قطعه بالسكين، سلام شامل يُغرقك بالسعادة، حتى في هذا الحر تشعر بأنك لن تموت أبدًا، تأتي شابة قصيرة ممتلئة جميلة احتلت قطرات العرق جبينها كله، نزلت إلى عينيها، زوتهما، مسحتهما، تحمل كيسًا فيه ساندويتشات، تجلس قرب فتاتين عاريتي الصدر، تلعبان الورق تحت المظلة، تهللان، ترميان الورق، تتناولان الكيس حالاً وهما تقهقهان، يلتهمن الساندويتشات بنهم، يقطر الخردل الأصفر على نهد أبيض مكوّر ضخم منتصب لإحداهن، يضحكن، تمد صدرها إلى الأمام نحو الفتاة الجميلة التي جاءت بالطّعام، تبدأ هذه بلطع الخردل، يقهقهن ملأ أفواههن بسعادة ويأكلن.

يا لشقائه! للخوف الذي اعتراه عندما اقترب من طريبيل وأبو خنعة معه! كيف يسيطر على أعصابه ومعه هذا الديناميت المصيبة؟ كل نقاط تفتيش الطريق بكفّة، واجتياز "طريبيل" بكفّة، لولا خوفه من

أن يرتكب خطأ في القيادة لعمل بنصيحة مهرب التقاه مصادفة في سوريا، قال له: "عندما أهرب شيئًا مهمًّا لا أتوقف عن الشرب".

ضحك حسين:

- ألا تخشى أن ترتكب حادثة سير؟

هزّ رأسه:

- لا.. أسوق ببطء وحينما يروني في الحدود سكران، أعطيهم أكثر مما يستحقون، يظنون أنني أرشوهم لسكري، يجعلني الشرب أتصرف باستهتار وكرم وشجاعة، يهرب الشكّ، يقتل السكر الخوف، ينفخ فيك قوة تجعلك تشعر أنك أسد حتى إن كنت فأرًا.

خرج الرجل اللغم من مخبأه نصف إنسان، مدَّ يده إلى صندوق الثلج، أخرج قنينة ماء، شرب الكثير، مسح فيه بظاهر كفّه، قال بصوت عالٍ: "الحمد لله". حل الليل.. لا قمر ولا أضواء في الطريق، في مثل هذه الحالة كان يقف بضع دقائق في مكان جانبي آمن ينظر إلى السماء، كيف تتشابك النجوم مع بعضها مكونة أشكالاً شتى، مثلثات، مربعات، دوائر، عندما كان صغيرًا كان يبحث عن الأشكال المتشابهة، المتوازية، الغريبة! دُر لامع يُزيِّن ثوبًا شديد السواد، لكنه الآن مع عامر أبي خنعة، سيضحك عليه إن رآه يفعل ذلك.

تُشعره القيادة في مثل هذا الظلام أنه يسير في شارع بين هاويتين سحيقتين، فيدفعه هذا إلى تركيز النظر أمامه فقط، "لا حاجة

لأوصيك أن لا تذكر أي شيء عني لأي كان حتى زوجتك". جاء صوت عامر ليقطع حبل تفكيره، من حسنات الظلام أنه يُخفي المشاعر، ابتسم حسين

- أنت قلتَها!
- ماذا قلتُ؟
- لا حاجة.

انطلق عامر يضحك ثم نبر بعد ثوان:

- ما أذكاك؟.

فكّر حسين لو كان النهار لشع نابه الذهبي وهو يقطر دمًا كمصاص دماء.

في بداية دخوله إلى "جراج" الحصوة شاهد شبحين من بعيد يشيران له، كانت أضواء "الجراج" قوية جدًّا، عندما اقترب أصبح بإمكانه تشخيص الشبحين، شخَّصَ أبا علي وشابًا فارعًا لم يرَهُ من قبل، أضاء أنوار قمرة السيارة، قال لعامر:

- هذا علي أبو حسين يستقبلك.

ابتسم الرجل اللغم:

- توقعتُ ذلك.

توقف حسين قرب سيارة بيضاء صغيرة، وحينما نزل عامر تركهم، أوقف الشاحنة في دورها، ثم أخذ معه الحقيبة الصغيرة التي كان يضع فيها جوازه، ومستندات السيارة الرسمية وأوراق

الاستيراد والتصدير والنقود التي تسلمها من أبي مازن والهديّة الذهب التي اشتراها لـ"تبغ"، أخذ يسير على قدميه وهو يشعر لطول مدة القيادة بأن ساقيه لا يمتّان إليه بأي صلة، أشبه بعضوين مستعارين من شخص آخر، كأنه يسير على إسفنج، لم يكن الشعور غريبًا عليه، كان يلازمه دائمًا في مثل هذه الحالات، الساعة نحو الثانية بعد منتصف الليل، كان مطمئنًا إلى أنه سيرى سيارة أجرة خارج الجراج، لكنه فوجئ بسيارة علي واقفة على الضفة الثانية من الشارع المؤدي إلى بغداد، يسوقها الشاب الذي لم يتعرف إليه، علي بقامته القصيرة ملتصق بباب السيارة الأيمن يشير إليه أن يقترب منه، قطع الشارع إليه عانقه بقوة، قبّله في وجنتيه ثلاث مرات وقال له:

- سنوصلك إلى بيتك.

- لا حاجة لذلك. بيتي بعيد، سآخذ سيّارة أجرة.

- حسنًا.. إلى مدخل بغداد.

- لا بأس.

جلس علي أبو حسين في المقعد الأمامي قرب السائق، فاضطر للجلوس قرب عامر أبي خنعة، قال علي أبو حسين:

- ضيفنا يمدحك كثيرًا.

- واجبي.

قهقه عامر، وجّه كلامه لأبي علي:

- أرأيت؟

- رائع.

قال ذلك ثمّ ناوله ظرفًا لم يتحقق من لونه، توقع أن يكون نقودًا، دفع حسين يده، قال بحدة:

- لن آخذه.

- ستفعل والعباس والحمزة وعلي ليس مني.. إنه من الرجل.

- لا تُقسم، أخذت أكثر من حقي.

- بل لم تأخذ إلا القليل.

تدخّل عامر أبو خنعة وبصوته المخرش الجاف قال بصوتٍ آمر:

- خُذ.

كان متلهفًا لرؤية "نبْع"، يشعر أن كل لحظة تمر تؤخره سنة عن لقياها، وجد بعد قليل سيارة أجرة تقله إلى البيت، حرص على أن ينظر خلفه بطريقة مدروسة كي لا يشك السائق العجوز بشيء. كان يريد أن يعرف هل كانوا يراقبونه أم لا، أحس بالاطمئنان عندما لم يرَ ما يقلقه، مع ذلك ظل حبيس المشاعر نفسها، بالرغم من لقياه نبْع، وسعادته القصوى بها، إلا أنه أراد أن يطلع خاله على ما حصل له، لم يرتح في نومه، أغفى ثم استيقظ بضع مرات في الليل، شيء ما يقض مضجعه، حرص جهده أن لا يقلقها، ما مر به في تركيا أشعل النار في أعصابه، أتعبه وهو يحاول أن

ينام، لكنه سقط في وهدة نوم عميق في نحو السادسة صباحًا، لم يستيقظ إلا في العاشرة، فتح عينيه على "نبْع" تقبله في جبهته:

- ما أعمق نومك!

- تعبتُ.. الرحلة طويلة.

لم يقلْ لها أن القلق كان يشظيه، كان ومازال شاكًّا بالحوادث التي صادفته، كأنها حدثت لغيره. لم يدر لماذا أحس أنه يدور في مكانه كأنه مصراع، قال لنبع:

- اتصلي بخالي، قولي له سأجي بالعشاء معي.

حاول أن يطرد الأفكار السوداء باستدراج نبْع لتسرد له كل ما مر بها في غيابه، لحسن حظه صادف أن اليوم كان يوم خميس، زوجته لم تعد من دوامها المسائي في الخامسة والنصف، البيت فارغ، ذهبت نبْع إلى أهلها، قال لخاله وهو يمسك يده:

- عندي شيء أكثر من مهم.

في الطابق الثاني غرفتان ولأن الوقت صيف كان الجو ساخنًا خانقًا، قال خاله:

- الحر لا يُطاق، من حسن حظك أن الكهرباء جاءت قبل خمس دقائق فقط، تنقطع بين خمس عشرة إلى عشرين ساعة يوميًا منذ الغزو.

فتح المكيف، لم يتحسن الوضع حالأ، جلسا أمام المكيف على سرير النوم، كان ينبغي لهما البقاء أمامه بضع دقائق ليشعرا بالبرد يسود جو الغرفة، ابتسم خاله:

– خير إن شاء الله.

– لا أدري إن كان خيرًا؟.

قال ذلك وفتح حقيبته الصغيرة ودلق ما فيها من دولارات، كان ينظر إلى تقاطيع خاله، رأى لا علامة الاندهاش حسب بل ذوبان الملامح في مشاعر أشبه بالضياع حينما يفقد المرء حواسه.

– ما هذا؟

– قلْ أنت؟

– أعثرتَ على كنز؟

– لا.

– أفزتَ بجائزة يانصيب؟

– لا.

– من أين لك هذا؟

– اسمعني.

قصَّ على خاله ما مرَّ به، صمت الخال برهة ثم نظر إليه:

– أنا مضطرب، مذهول، دعني أفكّر.

– خذ وقتك.

– يجب أن تُفكّر بسرعة.

- لم أفهم.

- أن نُفكِّر بسرعة وأن نتصرف بسرعة.

- ألغاز؟

- نعم. ألغاز وطلاسم وسحر ومصير أسود.

- قل لي ما الأمر؟

أخذت الوساوس من حسين تفكيره كله، قال:

- لماذا أنت قلق؟

تبدى ضياع شديد في ملامح خاله:

- كيف لا أقلق؟ ما ذكرته لا يعني غير الفناء.

- إلى هذا الحد؟

- نعم.

حدّق في عيني حسين:

- اذكر لي أوصاف عامر؟

- ربعة، بطولك، نحو خمسة أقدام ونصف، متين، أسمر، شارب معتدل، نابه الأيمن من ذهب، صوته أجش.

ابتسم خاله وهو يضرب كفّه الأيمن براحة يده اليسرى:

- هذا ما أعني.

- تعني من؟

- قائد قوات المتطوعين.

امتقع وجه حسين وهمس بانفعال وهو لا يكاد يبتلع ريقه:

- ..تطوعو من؟ تكلم!

- اهدأ، قائد العراقيين الهاربين الذي تعتمد عليهم إيران، المسؤول العراقي الأول عن تعذيب وقتل وتعويق الأسرى، قتل بيديه المئات، مازلتُ أتذكر كيف جاءوا بضابط أسير رفض أن يعترف على تنظيمه الحزبي، أمسك به أربعة عراقيين أمامنا، سدَّ خامس أنفه، فتح المعتقل فمه ليتنفس فجاء عامر أبو خنعة برصاص مذاب يلتهب وسكبه في جوفه بيده، كيف سعل الضحية، كيف قذف الرصاص مجبولاً بالدم.. كيف.. كيف؟ إن كان هذا من نقلتَه وعرف من أبوك! وعرف أني خالك فسيكون مصيرنا جميعًا أسود، اللهم إلا إن قرر أن يعفو، وهؤلاء لا يعرفون معنى العفو.

- مصير منْ؟

- أنا.. أنت.. نبع.. أمينة.

- أيعرفك؟

- نعم. استجوبني ووالدك بنفسه عشرات المرات، كان يُركّز عليَّ وعلى أبيك أكثر من غيرنا لأننا أستاذا جامعة.

- هل فعل شيئًا لوالدي؟

- هو المسؤول الأول عن موته وعن موت الآخرين، من رفض أن يتعاون معهم، جُوِّع وأذل إلى درجة فضّل الموت.

- هل تعاونت معهم؟

- لا.

- لماذا لم يقتلوك إذن؟

- مصادفة، لم يقتلوا كل من لم يتعاون معهم، المتعاونون معهم واحد أو اثنان بالمائة فقط، أساليبهم منفرة، رفض معظمنا التعاون معهم، كيف اختاروك لهذه المهمة؟

- سألوا عني وعرفوا من أنا!

- سألوا صحيح، لكن عرفوا؟ لا، سألوا أبا فاضل! موظفي الجمرك! من تتواجد معهم في جراج الحصوة! هؤلاء لا يعرفون عن أبيك وعني أي شيء، يعرفونك، يعرفون سلوكك، ولهذا اختاروك، لو عرفوا من والدك، من خالك لما اختاروك قط؟

- هل سيعرفون؟

- ربما.. من الآن سيبدؤون بالسؤال الجاد، لكنهم لا يؤذنك حتى يستغلونك أسوأ استغلال، ربما يعفون عنك إن أثبتّ إخلاصك لهم، لكن تبقى نفسيَّة الإنسان لغزًا غامضًا، غابة تستعصي على الاكتشاف.

زفر حسين بألم:

- كيف وقعتُ هذه الوقعة!

- لا أحد يلومك، لا يوجد من يلومك في كل الدنيا، كل من في مكانك يتصرف كما تصرفت إن وُجِدَ في ظروفك نفسها، أنا، أي شخص.

- ما العمل؟

- عليك الحذر لا أكثر!

- لستُ أدري ما حدود الحذر؟

- هل عرفوا بيتك؟

- لا.

- كيف تتأكد؟

- كنتُ أراقب الطريق خلفي.

- يبدو أنهم يثقون بك.

- نعم وإلا ما صرح لي باسمه.

- إن سمعت السلطات بقدومه سيخرجونه من تحت الأرض، ليس هو حسب، بل علي أبو حسين وكل من يمُت بصِلةٍ إليه، سيعذبونه كما عذَّب الآخرين، سيضطرونه على كشف التنظيم كله، سيصلون إلى أبي مازن أيضًا ويجلبونه أو يقتلونه هناك في اسطنبول، وستُقتل أنت أيضًا.

فكَّر حسين برهة ثم سأل خاله:

- ما رأيك هل أشي بهم؟

- بالطبع لا.. أنت إنسان نبيل، والنبيل لا يشي بالآخرين حتى لو كانوا أعداءَه، إضافة إلى أنهم سيعرفون إن فعلت، من يُعطيك عشرين ألف دولار في يوم واحد يعني عنده الملايين، والدولار يشتري، يجذب، يغري الفقير، الطماع، من لا ضمير له، البلد في حالة حصار، الحاجة قاهرة، من يرى أطفاله جوعى يسرق، يقتل،

يفعل كل شيء، إنهم متغلغلون في كل دائرة من دوائر الدولة. الأمن، المخابرات، الاستخبارات، جهاز الأمن الخاص بالرئيس، في كل زاوية من زوايا الدولة، كان معنا ضباط كبار ذهلوا لدقة المعلومات التي سُئلوا عنها أثناء التحقيق، بلد في وضع ديكتاتوري مقيت كبلدنا يعني حاضنة جيدة لكل الخونة والجواسيس واللصوص والنفعيين والانتهازيين.

- إذن؟

ابتسم خاله، ربت على كتفه:

- لا تقلق، ما كان كان، لا نستطيع تغيير الماضي، ليس لنا بعد هذه اللحظة إلا فتح أعيننا، إن شككت بأي علامة تُفيد أنك مراقب أخبرني.

ثم مدَّ سبابته محذّرًا مع هزّة رأس، قال بجد:

- إياك إياك من مخالفتهم، لا تُثر شكّهم، حقدهم، كراهيّتهم، مهما يفعلوا وافق، ماشيهم، كن معهم ليطمئنوا، الخائن لا يؤتمن، الخيانة أشر وأفظع جريمة يرتكبها الإنسان، أي خطأ يتخلصون منك برمشة عين، يُضيّعونك كما يلقون عقب سيجارة في نهر جارف.

هزّ حسين رأسه بينما سهم خاله غائصًا في لجج أفكاره الداخلية، ثم حدّق به بجد:

خذ هذا المال وكل ما جمعته من قبل وضعه في بنك خارج العراق.

- في سوريا، لبنان، الأردن؟

- لا. لهم نفوذ قوي في هذه الدول.

- تركيا؟

- هي الأفضل.

- لكنْ أبو مازن في تركيا.

- ولو! لا يستطيع فعل شيء هناك. يستطيع أن يُهرب الحشيش من إيران، السلاح من سوريا، لكنه لا يستطيع أن يخترق قوانين تركيا، في الأقل النظام هناك مؤسساتي، محايد أشبه بنظام أوربا.

- ثم؟

فتح خاله عينيه:

- ثم الانتظار، ليس عندنا غير ذلك، لكنْ لا تُخبر "نبْع" أو أي كان بما رأيت، أو بما حصلت عليه من نقود.

- لا.

- ولا تأخذ الشاحنة للغسيل أو التنظيف، نظّف القمرة بنفسك.

ظلا يتحدثان وحدهما أكثر من ساعتين، كان حسين يريد أن يعرف عن أبيه الكثير، وبخاصة كيف مات، ولم يدر كيف تدفقت في رأسه الأسئلة، لتفتح ثنايا مخ خاله فيكشف ما كان يؤرقه من خفايا التعذيب والمعاناة طيلة عشر سنوات الأسر.

* * *

وجد علي أبا حسين بانتظاره في جمرك الحصوة في نحو الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، وحين كان مرافقه الشاب النحيف يلازم موظف الإخراج الجمركي أمسك علي أبو حسين بعضده، ابتعد به عن المراجعين، قال له هامسًا بعد أن تأكّد أنه في مكان أمين:

- سترجع اليوم إلى تركيا برجل مهم جدًّا.

بوغت حسين، ردَّ من دون تفكير:

- أأنت واثق من قولك؟

- نعم.

- لا أستطيع، إني تعب، لم أرَ أهلي.

عينا علي جاحظتان، حينما حدَّق بهما حسين وجد صورته في بؤبيهما السوداوين، لكن عليًّا لم يُغيِّر ملامحه، ظل يُحدِّق به في نفس التركيز كأنه لم يسمعه، بعد ثوانٍ ابتسم ابتسامة عريضة، فكَّر حسين وهو ينظر إليه ويتساءل مع نفسه: لماذا يظن هذا المشوَّه المسخ أنني آلة! حوَّل نظره عنه، يا لبشاعته! يلف رقبته الطويلة بيشماغه الأسود ليخفي طولها المقرف غير المتناسق مع قامته القصيرة وكتفيه العريضين.

- أنت ابننا.. نعتمد عليك كثيرًا، أنت قوي.

- قلتَ رجلاً مهمًّا جدًا.

- نعم.

- أأنتم أعداؤه؟

رجع أبو حسين إلى الخلف وعلى تقاطيعه علائم الاستنكار:

- ماذا؟ ماذا جرى لك؟ ماذا تعني؟

- هذا معنى كلامك. إنكم تريدون أن تقضوا عليه؟

ضحك أبو حسين:

- لا بالتأكيد. نريد إيصاله سالمًا من أجلنا.

ابتسم حسين وركَّز نظراته في عيني علي:

- اسمعني أبا حسين. إن سافرتُ اليوم سأرتكب حادثة تقضي علي وعليه، عليَّ أن أرتاح، جسدي بحاجة إلى الراحة، وهناك أمر آخر؛ متى ستحملون البضاعة؟

- الآن.

- والأوراق؟

- أنهيناها قبل مجيئك.

- والكشف على البضاعة؟

- لا نحتاج إلى كشف.

- كيف؟

ضحك علي أبو حسين ضحكة صغيرة، ثم سعل سعلة طويلة ومدَّ يده إلى جيبه، أخرج علبة دخان أمريكية، فتحها وقدَّمها له، كانت الشمس قوية:

- تفضل.

- لا أدخن.

- أفضل.

- لم تقل لي كيف؟

أرث علي أبو حسين سيكارته ثم نظر إليه، حرك إبهامه وسبابته حركة تعني عدَّ النقود، غمز عينه الجاحظة، فهم حسين أنها رشوة، انتفض:

- هذا خطر، إن علم أي كان بمعاملة جرت بشكل غير قانوني سيمنعون الشاحنة من العمل في المستقبل، ربما يصادرونها، إن صادروها يعني إعدامنا كلنا، لأنهم سيكتشفون المخبأ. قال ذلك ثم احتد بدون شعور: لا داعي لوضع علامة سوداء في صفحة الشاحنة، إنها ملكي لا ملككم.

ابتسم علي رفع يده إلى كتف حسين ليهدئه، ثم دق على صدره باليد نفسها التي تمسك بالسيجارة، فسقط الرماد على عباءته ذات اللون القهوائي الفاتح الفاخرة، وتناثر على الأرض:

- لا تقلق. هم أبناؤنا كما أنت.

- عليك أن تخبرني بأي شيء يتعلق بي وبالشاحنة، لا أريد أن يعلم أي كان أنني أقوم بعمل ممنوع، قل لجماعتك إن أرادوا السلامة فعليهم أخذ رأيي.

اضطربت ملامح علي، قال بلهجة يتغلغل فيها الندم:

- معذرة، آخر مرة. سنأخذ برأيك في المستقبل.

- أنا تعب جدًا جدًا، جسدي مضعضع، أحس بأعضائي مفكّكة، قلتُ لك من قبل أخشى أن أنام وأنا أسوق، وينقلب عملنا على رأسنا، إن نمتُ الآن فلا أستيقظ إلا بعد يومين.

- يومان مستحيل. يوم واحد ربما.

- هل تُدركُ معنى انقلاب شاحنة؟ ربما يموت من فيها، يتعوّق، أنتم تريدون إيصاله حيًّا أليس كذلك؟

- بالطّبع.

- إذن أعطني وقتًا أرتاح فيه، لم أنم ستة أيام، توقفنا يومًا في حدود تركيا، ويومين عندما دخلنا سوريا، ويومين عندما خرجنا من سوريا، ونصف ليلة في حدود العراق، تصوَّر نفسك تقضي ستة أيام ليل نهار على كرسي لا تستطيع أن تتمدد، ماذا يحصل لجسدك، وفوق كل ذلك القلق، الخوف من الفشل، السجن، الإعدام؟

- لك هذا، يومان اليوم والغد، وبعد الغد صباحًا في الفجر تنطلق.

- موافق.

- إذًا. دعنا نذهب بالشاحنة بعد توقيع الأوراق للتحميل، ماذا سترسلون؟"

- زنابيل ومراوح يدوية أيضًا، بدأ الطلب عليها يشتد في تركيا، أخذ الناس هناك يفضلونها على المراوح الصينية ومكانس خوص محسنة.

ابتسم حسين:

- كيف؟

- سنجعل يد المكنسة بطول متر كامل كي لا تضطر المرأة الانحناء حين الكنْس.

- بدأت تجارتكم تروج!

تذكَّر الظرف الذي أخذه من أبي مازن حول تطوير البضاعة، تُرى ماذا ستكون صور الدعاية الجديدة التي ستضاف إلى صورة الحسناوات والكلاب والمؤخرات؟ أي طاقم عبقري يديره أبو مازن؟ هز علي أبو حسين رأسه بسخرية مبطنة حيَّرت حسين وعيناه تقولان أكثر مما يعني رغم لهجة الجد والفخر:

- نعم. بدأت تجارتنا تروج.

* * *

متّكئات لا حصر لها أمام شاطئ البحر، يتّسع المتكأ لواحد فقط، كل مجموعة متّكئات بلون يخص محلاً، تحجب مظلة من قش دكناء أشعة شمس تموز اللاهبة، وقفت شابة في السابعة عشرة مع صديقها، نظرت إلى المتكأ، فكَّرت كيف سيرتاحان كلاهما بهذا الحيز الضيق؟ أشارت له، ابتسم، تمدد على يمينه، رفع ساقه الأيسر، تمددت على يسارها، وضعت ساقها الأيمن على ساقه، أنزل ساقه الثاني، فعلت الشيء نفسه، تعانقا، اتسع المتكأ الضيق لهما كليهما، أغمضا أعينهما، فعل الشيء نفسه صديقاهما، بعد دقائق نعس الفتى، نام، تركت الفتاة المتكأ كله له، راقبتْ صديقيها

المتعانقين، ابتسمت برضى، خلال دقائق نقعهم العرق، ركضت نحو البحر، هرعا في إثرها، ظل صديقها في مكانه نائمًا يغطيه عرقه.

بحثت نظراته عن صفاء، أين أنت؟ أين أنت؟ رفع يده، جاء أرنان مهرولاً وجديلته تنقر ظهره، هتف:

- هل ترى صفاء.

أشار أرنان إليه من دون أن يتكلم، كان يلعب مع فتاة القواقع، قال أرنان:

- قدّموا الرقصة إلى السادسة، بدل الثامنة.

اختفى أرنان، أي نعيم يتمتّع به الناس هنا؟ بحر، رقص، شرب، ضحك، حرية، كهرباء، ماء، متى يتوافر مثل هذا في عراق اللصوص؟ قبل أسبوع سأل زكريا المغربي: لماذا وُجِدَ البحر؟ ابتسم زكريا: وُجِدَ لتبريد الناس في الصيف لا لأي غاية أخرى! يا ليت للعراقيين بحرًا! يحترقون بالرصاص أنى توجهوا مِن الأمريكان، من المليشيات، من الجيش، من السماء، من تموز وآب! من كل مكان. لا رحمة في العراق، أي رحلة من سعير كانت مع الأمغر؟ متى تتجاوزها الذاكرة؟ كانت في تموز أيضًا.

انتصب الأمغر فجأة أمام حسين للمقارنة مع عامر أبو خنعة، لم يكن يعرف اسمه ولم يسأل عنه، جاء متنكرًا تنكرًا مقبولاً. "دشداشة" بيضاء نصف متسخة، عقال كابي اللون، يميل لونه إلى

الرماد، كوفية تكاد تهترئ، رمى نهايتيها إلى الخلف كعادة العراقيين جنوب بغداد، لم يضع على عينيه كعامر نظارة سوداء كبيرة، استبدل الحذاء بنعال ضخم مستعمل، شعر وجهه نابت بنحو نصف سنتيمتر كعامر مع شارب خفيف جدًا، أبيض البشرة، شعر يميل إلى الشقرة مع شيب متفوق، عينان رماديتان فيهما خطوط خضر خفيفة اللون، جسد ممتلئ بكرش تحرر من الضغوط، أنت الآن أمام مشكلة! ماذا لو لم يتسع المخبأ السري لهذا الكرش؟ هل سيتحمل الضغط الشديد؟ ما العمل؟ لا تتبلل قبل المطر، دعه يجرب ثم اطرح أسئلتك، قدَّر حسين عمره بمنتصف الخمسينات، ذلك يعني أنه أكبر عمرًا من عامر أبي خنعة، متوسط القامة كعامر، يسير بتؤدة مع جنوح خفيف إلى اليمين، في جيب "دشداشته" قلم حبر مذهب، قلم جاف آخر أزرق، نظارة قراءة، أخرى شمسية، بضعة أوراق. كان حسين يُراقب الرجلين يتقدَّمان نحوه، في بستان نخيل واسع في مدينة الحلة، الشاحنة واقفة وهو وراء المقود ينظر إليهما، يسير المشوه المسخ علي مطمئنًا، بيده سبحة برتقالية، حبات كبيرة، يراها في يده أول مرة، رافعًا رأسه بشموخ، دائمًا يفعل ذلك؟ أليتغلب على قِصَر قامته وتشوهه! يتلفت المرافق وجِلاً بين الحين والحين، لاحظ حسين لأول مرة شابًا يسير وراءهما على بعد خمسين مترًا، بيمينه حقيبة صغيرة حمراء. وأخرى دبلوماسية سوداء في شماله، الجو حار والهواء ساكن،

تمتد أسطر النخيل إلى ما لا نهاية في البستان الشاسع، جذب نظره تزاوج رائع لاخضرار سعفات أوراق النخلة بعثوق الخلال المتدلية الذهبية التي لم ترطب بعد، والتي يثير اصفرارها شهية الناظر إليها.

وصل إلى البستان قبل ساعتين قبل أن تشتد حرارة الشمس، قدَّر أن الرجلين غاطسين بعرقهما، بالرغم من أن الساعة لم تتجاوز الثامنة صباحًا، وأن ما يظهر على جبهتيهما من حبيبات عرق ليس سوى عُشر ما يبلل جسديهما، حمد الله أن أبا مازن نصب مكيف هواء في الشاحنة، إذ لو آلَ القرار إليه لما تنعم ببركاته قط، حين اقتربا من الشاحنة انحنى إلى اليمين، فتح بابها الأيمن ليمكِّن القادم من الصعود، ثم رآه يرتقي درجة الشاحنة العالية بصعوبة جعلته يلهث، تناول الحقيبتين من الشاب، وضع الحقيبة الحمراء بينه وبين حسين، أما الدبلوماسية فوضعها في حجره، شد عليها، تُرى ما فيها ليشد عليها هكذا؟ حدَّق بحسين، قال بصوت بدا مفتعلاً غير طبيعي:

- سلام عليكم.

تعجب حسين، لماذا لم يقل السلام عليكم كالآخرين؟ لم يدر كيف يجيبه؟ عليكم سلام. أم عليكم السلام؟ كانت تحذيرات خاله منهم مرتسمة أمامه: "لا تخالفهم قط، لا تثر شكَّهم.. مهما يفعلوا وافق، ماشيهم". ردَّ على سجيته وكما درج: "وعليكم السلام". نهض،

وضع الحقيبة الحمراء على الرف، أشار إلى الحقيبة الثانية، قال للضيف:

- ستضايقك هذه. دعنا نضعها هناك مع أختها.

شدَّ هذا عليها كأنه يخشى أن تُصبح هواءً يتسلل من فتحات السيارة وتختفي، في تلك اللحظة سمع نقرة على زجاج الباب الأيسر من جهة عجلة القيادة، رأى المشوه يومئ إليه أن ينـزل، وإذ أصبح على الأرض، همس بخشوع ورهبة:

- دير بالك اعتن بالسيد، هذا سيكون رجل العراق الأول بعد التخلص من الطاغية، هذا من سينقذنا من مصائبنا.. اهتم به.

ابتسم حسين، هزّ رأسه:

- أهناك شيء آخر؟

- لا.

همس حسين:

- إذن قل له أن يرفع القلمين والأوراق والنظارات من جيب "دشداشته" الصدّري، ويضعها في أحد جيبيها الجانبيّن.

تصنم المسخ، ركّز نظراته على حسين:

- لماذا؟

همس حسين ثانية ببرود:

- وجودها يثير الشك والتناقض، مظهره مظهر فلاح، وجيبه جيب مثقف.

ظل أبو حسين ينظر إليه بصمت قطعه صوت مضخم بطريقة مصطنعة من داخل القمرة:

- إنه على حق. لا تناقشه.

لم يكن حسين يدري أن الجالس في قمرة شاحنته.دقيق السمع إلى هذه الدرجة، لكن الانطباع الذي ارتسم على ملامح المشوه كان نوعًا من المفاجأة والذهول والإعجاب، ابتسم ثم ضحك ضحكة خفيفة:

- أنت تستحق كل إكرام.

قال ذلك ثم بحث في جيبه وأخرج ظرفا أصفر ورفعه ليسلمه له، لكن حسين حرك شاحنته وابتعد، كوّر الجالس على يمينه بوزه، وأمر بلهجة مفتعلة بصوت حاول أن يظهره طبيعيًا ما أمكن لكنه فشل في ذلك، خمّن حسين أنه يحاول حماية نفسه بتمويه صوته قدر ما يتمكن كي لا يكشف هويته لنشاطه ضد الديكتاتورية، قال آمرًا:

- توقف.

ضغط حسين على فرامل السيارة، أكمل الجالس:

- انزل.. خذ النقود إلا إن لم تكن قادرًا على حملها.

فكّر حسين برهة ثم نزل، كان علي يضحك، قال وهو يشد على يمينه:

- يا ابني، يا حسين إنها نعمة من الله، لا يرفض عاقل النعمة، أعلم أنك طيب قنوع.

هز حسين رأسه شاكرًا، لم يفه بأي كلمة، أخذ المظروف من علي وأسرع إلى السيارة، قال للضيف:

- أعطني الحقيبة الدبلوماسية.

- لماذا؟

- لأضعها في المخبأ.

- لكن لماذا لا تبقى في يدي؟

ابتسم حسين ابتسامة عريضة:

- سؤال مهم، من حقك أن تعرف الإجابة، هل ستذهب إلى تركيا بشكل مشروع أم تهريبًا؟

- بل تهريب.

- من سيهربك؟

- أنت.

- ساهربك في مخبأ هنا بالشاحنة مع أوراقك المهمة.

- صح. لكن لماذا تأخذها الآن؟

- لأني لا آمن الظروف، ربما كان أحد ما يتبعنا، صعدت إلى الشاحنة في بستان نخيل، يستطيع الجاسوس أن يختفي خلف أي نخلة، وجودك في السيارة لا يعني شيئًا، أما وجود الأوراق معك فيعني أدلة.

زفر السيد بارتياح مبتسمًا، سلمه الحقيبة السوداء، وضعها في المخبأ مع حقيبة صغيرة فيها كل ما جمعه من دولارات، ثم انطلق في الطريق الدولي الذاهب نحو سوريا والأردن، فسأله الجالس إلى يمينه:

- رجاءً.. ألا تدخن؟

- لا.

- الحمد لله، صمت برهة ثم أضاف وهو يحدق في جانب الشارع الأيمن، عندي حساسية من التدخين.

يُفضّل الخروج من بغداد صباحًا متجهًا إلى سوريا والأُردن، يحس بمتعة الوجود، وضوء الشمس من خلفه لا يضايق عينيه، وإذ وصلت الشاحنة مفرق الفلوجة أخذت تعوم فوق الطريق الدولي العريض وسط بساتين الفاكهة والمزارع المترامية وأشجار النخيل التي لا يحدها النظر، أحس بمتعة عميقة، تمنى لو "نبْع" معه وحدهما، ثم فجأة أخذت تطفو أمامه بحروف كبيرة مشكلة الابتعاد والهرب بها من هذه العصابة التي سيطرت عليه بالرغم منه.

- رجاءً.. متى نصل إلى أول مطعم؟

قطع عليه تدفق ذكرياته سؤال السيد، ابتسم حسين ابتسامة عريضة، قال مع نفسه "كم هو مؤدب! لا يتكلم إلا بـــ "رجاءً!" جاء صوته متسائلاً:

- هل يمكن أن تقول لي رجاءً لماذا تبتسم؟

- هذه أول مرة تسافر إلى سوريا؟

- نعم.

- لا يوجد غير مطعم واحد في الطريق.

- متى نصل إليه؟

- بعد ثلاث ساعات. لكني لن أدعك تدخله.

- لماذا؟

- يعج بالمخبرين والجواسيس.

- والعمل؟

- بعد ساعة نصل الرمادي، هناك غير مطعم جيد أمين أرتاح له.

- أستطيع أن أتحمل ساعة لكن لا ثلاث ساعات!

- حتى أنا.

- ألم تفطر؟

- لا. استيقظت في الرابعة والنصف، أرادت زوجتي أن تعد لي الفطور فمنعتها، أخذ مني الطريق إلى الحلة نحو ساعة ونصف.

- أأنت متزوج.

- نعم.

- ذلك جيد لكنك صغير، لم تتجاوز العشرين.

عاد حسين يبتسم:

- عمري ثلاث وعشرون سنة.

- أنت نادر!

– لماذا؟

– عقلك أكبر من سنك! قال عليّ أبو حسين ذلك وأثبتّته تصرفاتك.

ابتسم حسين:

– كيف؟

– ملاحظتك عن الأقلام والأوراق، قولك لن أدعك تدخل المطعم، تتصرف كرجل كهل عاقل في الستين، رغم صغر سنك، هذا يعني أنك تستطيع تمييز الأفضل. صمت ثوان قال وكأنه يهمس، تلك حكمة يؤتيها الله من يشاء.

ظل حسين صامتًا، استمر في طريقه، توقف أمام مطعم صغير في الرمادي، وحينما أراد السيد النزول نظر إلى عيني حسين:

– رجاءً هل أستطيع تناول الحقيبة؟

ابتسم حسين:

– لا.. دعها في مخبئها، السيارة المقفلة خزانة مصرف، لا يستطيع أحد فتحها.

– رجاءً فيها أشياء مهمة جدًا. قال ذلك بتوسل.

– ولو. ستثير الريبة كما قلتُ لك من قبل، ملابسك وزيك تشي أنك فلاح، فلاح وحقيبة سمسونايت؟

– صدقت.

نزل، ظل واقفًا في مكانه لم يتحرك حتى رأى حسين يقفل باب الشاحنة، قبل أن يدخل المطعم ببضعة أمتار ناول المفاتيح للسيد:

- خذ المفاتيح.

- لماذا؟

- ربما أموت في المطعم. عندئذ تسترجع حقيبتك.

قهقه السيد:

- حكيم ومرح!

واجهة المطعم زرقاء، بضعة مناضد لا تزيد على العشرة، كان المطعم مليئًا بصور تاريخية لعنترة العبسي، أبي زيد الهلالي، علاء الدين ومصباحه، كهرمانة واللصوص الأربعين، صور ملوك العراق كلهم ورؤسائه، بدءًا من الملك فيصل الأول حتى صدام حسين، خمسة أشخاص يأكلون، رائحة "الباجة" بتوابلها الحريفة تُعطر الجو، جلسا على أقرب منضدة إلى اليمين، قال حسين وهو يُشير إلى المرافق:

- إن أردت.

- إني جائع، سأطلب من النادل تحضير الطعام ثم أذهب.

رفع حسين يده إلى نادل شاب هناك آثار جرح طويل على خده الأيسر، كان يتكلم مع صاحب المطعم الكهل البدين، عندما قدم هذا أراد حسين أن يتكلم لكن السيد بادره:

- ماذا عندكم؟

- باجة، رزّ ومرق، بيض، قيمر وعسل، كفتة، كباب، تكّة (لحم مشويّ)، اطلب ما تشاء.

قال السيّد بصوته المفتعل:

- رجاءً هات كباب وتكّة مع طماطم وبصل مشوي، هل عندكم شراب عنب؟

- نعم.

- طازج؟

- نعم.

- رجاءً هات اثنين، هل عندكم شنين؟

- نعم.

- هات.

قال ذلك، نهض إلى المرافق، سار حسين خلفه حتى إذ وصلا إلى الممر الجانبي الذي ينفتح على مرافق للرجال والنساء، همس حسين ووجهه إلى باحة المطعم ليرى إن كان مراقبًا أم لا:

- أرجو أن لا تتكلم مع أي كان، قل لي وأنا أقوم بالمهمة.

- لماذا؟

- صوتك مميز لا تنساه الأذن، إن جاء رجال الأمن وسألوا النادل فسيذكر لهم ذلك.

حدق به السيد بحبور، ابتسم:

- أنت محل ثقة مطلقة، لن تندم قط.

لم يفهم حسين مرامي الكلام، أخذ يغسل يديه، تذوق السيد الكباب باشتهاء:

- الله، هذا هو الكباب الأصلي. ثم ارتشف بعد أول لقمة شيئًا من شراب العنب وقال متلذذا: كأني في الموصل.

اضطرب ذهن حسين، كيف في الموصل ولهجته جنوبية واضحة! لولا التعليمات تصده لسأله، قال السيد بعد أنهى الكباب والتكة لحسين:

- رجاءً عزيزي حسين اطلب لي باجة، إن كان عندهم كيبايات وبمبارات فنِعْمَ.

ظن حسين أنه يمزح، أكل لرجلين اثنين، فكيف سيأكل الباجة؟ سأله:

- أتمزح؟

هز السيد رأسه:

- لا، لم أشبعْ.

أكل الباجة بتمتع شديد، كان يمصمص أصابعه بلذة، راقبه حتى أنهى طعامه، سأله حسين:

- هل أطلب الشاي؟

- ابتسم: أريد كأسًا آخر من شراب العنب ثم الشاي.

أخرج من جيبه كيسًا صغيرًا فيه حبوب متنوعة، اختار نحو عشر منها تختلف في الحجم واللون، وضعها كلها في فمه، شربها مع عصير العنب، قال وهو يشرب آخر قطرة من الشراب:

- تعلمت تنويع الطعام في الموصل، أنا طبيب، هذه الحبوب تساعد على هضم الطعام، تقي من تصلب الشرايين، تعدل ضغط الدم.

بعد أقل من نصف ساعة سمع شخير السيد بالرغم من أنه كان يلف وجهه بالكوفية المهترئة، كانت السيارة تسير نحو الحدود، آنذاك اختفت معالم المدنية، بدأت الصحراء تغزو جانبي الطريق، لكنها كانت تشي بضعفها أمام الخضرة، فبالرغم من الجفاف، الحرارة والرمال كانت هناك نبتات خضر تتناثر في البرية، شجيرات أشواك، زهور خزام، نرجس، بيبون، أقحوان يابسة، تحوم فوقها غربان وعصافير وهداهد صغيرة بلون التراب، طيور شتّى لا تحصى، رآها كثيرًا في رحلاته، كانت تثير سؤالاً يضج في رأسه، لا يعرف له جوابًا: أين تجد المياه لترتوي وتقاوم هذا الجحيم؟ كيف تطير وتتحرك ولا ماء ظاهر على مد البصر؟ بل تشكيلات صخرية قائمة نحتتها الرياح، فباتت شواهد ترعى البادية أينما اتجه المرء بنظره، شواهد تحدث المرء عما فعلته الأنواء بها طيلة ملايين السنين، كم تمنى لو يتمكن من المكوث قربها في ربيع آتٍ.

الطريق كائن حي صديق لسائق الشاحنة، الصديق يسر صديقه، يكشف له أسراره، متى أو أين كانت تلك الرحلة؟ لا يتذكر متى حدث ذلك! ما بقي في دماغه أنه أحس بالنعاس، تمص الشاحنة في بعض الأحيان قوته، يحس بالتعب، يثقل جفناه، يصبحان كما

لو نثر عليهما طبقة من الملح، عندئذ يحس أن عجلة القيادة غريبة عليه، صلبة لا تتحرك، أثقل من الحديد، ينتابه الرعب، ذلك يعني توقف لابد منه، انحرف إلى جانب الطريق، أوقف الشاحنة.

ظهيرة باردة بالرغم من أشعة الشمس، في مثل هذا النعاس لا يغفو أكثر من عشر دقائق، تكون كافية لإعادة صفاء ذهنه، بعدئذ سمع عواءً خافتًا غريبًا لم يسمعه من قبل، حدَّق في مرآتي الشاحنة الجانبيتين لم يجد شيئًا، أنزل الزجاج القريب منه. مدَّ رأسه، وجد ثعلبة ممددة في ظل الشاحنة وأربعة جراء صغيرة بطول نصف قدم، ترضع من بطنها ناصع البياض، الثعلبة في غاية الجمال، عينان واسعتان مفتوحتان، أخذت تحدق فيه من دون خوف، أثاره ذلك، ظل يتساءل لماذا لم تهرب؟ إستكانت إلى الشاحنة كما تستكين إلى صخرة كبيرة؟ أظنت أنه جزء جامد من هذا الهيكل العملاق الثابت في الأرض؟ بوزها طويل متناسق، شعرها قوس قزح راقص يتوهج كألوان عينيها، ذيلها منفوش متناسق- الله! أي جمال! أي أمومة وأي حنان! لماذا يقسو ابن آدم؟ يا له من ظالم! ينسى كل هذا الجمال ويلصق بالثعلب صفة الاحتيال! راقبها حتى إذ شبعت وانفكَّت عن أمها رمى إليها بنصف دجاجة مشوية كانت معه، هرب الصغار، لكن أمّها رجعت بعد ثوانٍ تشمم الدجاج.

من بعيد لاح العلم العراقي، أدرك أنه على مشارف معالم نقطة حدود القائم بين العراق وسورية، هز السيد فانتفض، أزاح الكوفية عن وجهه، تساءل:

- ماذا؟

- وصلنا الحدود، يجب أن تدخل المخبأ.

تعكّرت ملامح السيد، نهض بتثاقل، قال حسين وهو يمد يده نحو الصحراء:

- إن أردت أن تقضي حاجتك قبل الدخول إلى المخبأ.

مد السيد بوزه وقال بصوته المتميز المصطنع: "لا داعي". دخل المخبأ، وضع حسين حقيبته الدبلوماسية بالطول قرب قدميه، وضع فوقها ظرف النقود التي يمتلكها، لكنه أدرك أن كرش السيد سينضغط قليلاً إن سدَّ باب المخبأ، قال له:

- حاول أن تشهق وترفع صدرك كي ينخفض بطنك.

سمع صوت شهيقةً عاليًا مع ذلك لم يستطع أن يُغلق الباب إلا بالضغط عليه بقوة، سأله بعد أن أحكم سد الباب:

- أتسمعني؟

- نعم.

- أأنت مرتاح؟

- نعم.

- لن يستغرق الأمر سوى عشر دقائق من الآن، أعرف الكثير هنا، سأحاول أن ينتهي التفتيش بأقرب وقت.

سمع صوته المموه وهو أشبه بالحشرجة:

- الله الموفق.

- سأقفل الشاحنة، ستكون وحدك، سأذهب لأنجز الأوراق ثم أرجع مع موظف الجمارك ورجل الأمن لتفتيش الشاحنة.

- نعم.

- لا تفتح باب الملجأ من الداخل قط مهما سمعت، سأبقي المكيف عاملاً، لا تُخرج أي صوت، لا ترد على من يطرق باب الشاحنة.

قبل أن يترجّل نظر إلى ساعته؛ الواحدة بعد الظهر وستة دقائق، ركّز على الوقت كي لا يشغله شيء عن السيد ثم حضّر ثلاثمائة دولار، كل خمسين دولارًا وحدها، طوى أوراق النقد، وضعها في جيب قميصه، بحيث يستطيع أن يجذبها واحدة واحدة، وإذ وصل إلى نقطة التفتيش جال بعينيه قبل أن يتقدم، شاهد حمّالاً يعرفه، هتف به وهو يلوّح بيمناه:

- أبو محمد.

هرع هذا نحوه، نحيف ذو بشرة بيضاء تميل إلى الاحمرار، ناوله خمسين دولارًا قبل أن يتكلم معه أي كلمة، حدّق هذا بها فرحًا، وضعها في جيبه، نظر في عينيه يستفسر عمّا يجب أن يقوم به:

- من الخافر في الجمارك؟ سأله حسين.

- عواد.

- أهو ذلك الأسمر الذي كان قبل يومين؟

- لا. هذا غيره.

- هل تعرف أحدًا في الجوازات يسرع توقيع الجواز؟

- لا حاجة. لا ازدحام الآن، الدنيا حر موت.

- وفي الجمارك؟

- أنهِ ختم الجواز وعندما يحيلونك إلى مفتش سأتكلم معه أنا، سألازمك لن أتركك وحدك.

أشار حسين إلى الشاحنة:

- انتظرني هناك.

هرول الحمال نحو الشاحنة بينما اتجه حسين نحو مبنى الجوازات، في الواحدة واثنتين وعشرين دقيقة اجتاز الحدود العراقية وبعد ثلاث دقائق توقف، فتح باب المخبأ وجد السيد واقفًا كصنم والتعب بادٍ على تقاطيعه، زفر بارتياح وهو ينظر إليه:

- الحمد لله. رجاءً قل لي هل انتهينا؟.

ابتسم حسين وهو يفتح إذاعة عربية فانبعثت في الجو أغنية سورية بدوية، قال:

- انتهى نصف سهل وبقي نصف صعب ومتعب في سوريا.

- أقل من نصف ساعة مثل العراق؟

ضحك حسين:

- أتمنى ذلك، تبقى الشاحنات في التفتيش يومًا يومين ثلاثة، سننتظر طويلاً.

- ألا يرتشون؟

- بلى. مع الرشوة تنزل المدة من ثلاثة أيام إلى يوم أو يوم وبضع ساعات إن كنا محظوظين.

- رجاءً، متى تتوقع أن ننتهي؟

- في مثل هذا الوقت من يوم الغد أو بعد هذا الوقت ببضع ساعات.

اغبرت تقاطيع السيد، أشار إلى الراديو:

- رجاءً هل تستطيع أن تغلقه أو تنزل الصوت؟"

ابتسم حسين:

- ألا تعرف لماذا؟

- لا.

- لا أريد أن يعرف من يمر من هنا أنه يوجد في الشاحنة اثنان، علينا الحذر، إن عرفوا فستكون هناك مشكلة لا تنتهي إلا بنهايتنا.

- لماذا؟

- رواتب السوريين لا تسد الرمق، لكنهم يُكافئون حينما يمسكون صيدًا، إن سمعوا صوتك فسيراقبون الشاحنة حتى نذهب كلانا إلى الجوازات، إن ذهب واحد فقط فهو الهلاك.

فكرَ السيد برهة ثم ابتسم ابتسامة واسعة:

- دائمًا تُثبت حكمتك وذكاؤك المتفوق، أنعم الله والمعصومون عليَّ بمرافقتك.

سرت عدوى الابتسامة إلى حسين:

- أرجو أن تنبهني إلى أخطائي.

هز السيد رأسه:

- لم تُخطئ قط، ولو وجدتُ خطأ لنبهتك، ظننتُك سائقًا عاديًا، لكني فوجئت بسعة عقلك، بحرصك، اهتمامك. صمت برهة ثم سأل: أيوجد مطعم هناك؟

كبت حسين رغبة بالانفجار ضاحكًا، وهو يتذكر حب السيد للأكل:

- نعم، لا تقلق من هذه الناحية، لكن لن تذهب إلى المطعم، سآتيك بالطعام إلى هنا. ثم أشار إلى زجاج السيارة الأسود: لقد غيَّرناه في تركيا كي لا يرى أحد خارج الشاحنة من يجلس في مكانك بينما ترى أنت كل شيء، حاول أن لا تُري وجهك لأي كان، ألا تنزل من الشاحنة، سأذهب لأستطلع ما يمكن أن أفعل، لا تفتح الباب قط، سأغلقه من الخارج، هل تريد الطعام الآن؟

- نعم، لكن رجاءً هل تستطيع أن تأتيني بقائمة لأختار. ثم ابتسم وهو يقول بصوته المتصنع: مادمتُ سجينًا ففي الأقل لأمارس لذة الاختيار.

- لا بأس.

لم يتحرك رتل الشاحنات التي تنتظر دورها كثيرًا طيلة الدوام الرسمي، أما بعد الدوام فازدادت، رأى تجمعات السواق من بلد واحد أو من بضعة بلدان، يسقفون الفراغ بين الشاحنات ببطانيات بلاستيكية ويفرشون مثيلها على الأرض، ينامون في الظل والعرق يتصبب منهم، يلعبون الورق، يستمعون إلى الراديو، جاء نفر منهم بمراوح كهربية، أجهزة تلفزيون صغيرة مع محوّل يمكنها من العمل بالبطاريات، معظمهم يعدون طعامهم على مطابخ غازية يحملونها معهم أينما حلوا باستثناء قليل كان يأكل من المطاعم النقالة التي تأتي بالطعام من المدن القريبة.

في صبيحة اليوم التالي استطاع حسين أن يجد الشخص المناسب، وعده أن ينهيه في الواحدة بعد الظهر، المفتش قصير، كرش صغير، أبيض، أحرقت ملامحه الشمس، تجاوز الخمسين، لم يتحرك إلا بعد أن وضع حسين في جيبه ثلاثمائة دولار، كان يسير إلى جانبه وحبيبات العرق تتناثر على جبهته، أنفه الصغير تقاطيعه المتأثرة بالحرارة، قميصه الأبيض بخطوط زرق خفيفة مبلل جميعه حتى الياقة. ضحك وهو يرى الزّنابيل والمراوح والمكانس الخوص، علّق وهو ينظر إلى عيني حسين ويبتسم:

– صدق بوش، أرجعكم إلى القرن الحجري فهل رجعت تركيا أيضًا معكم؟

ظل يُحدّق بحسين ليرى ردة فعله لكن هذا لم يفتح فاه بل ابتسم، ثم وقف في مكانه وهو على أعصابه ينتظر أن يبدأ المفتش في تفتيش قمرة السيارة، فتح الباب فوجئ بهواء المكيف البارد المنعش وصوت المسجل على أغنية "لا خبر لا جفيّة لا حامض حلو لا شربت. ارتقى المفتش الدرج بصعوبة، جلس على المقعد الأيمن، تنفس بعمق، أغلق باب الشاحنة، بدأ يضحك، تساءل:

– أمات هذا المغني أم مازال يعيش؟

– لا أدري، أظنه مازال.

أدار المفتش عينيه في القمرة وهو يمسح العرق بمحرمة ورقية تناولها من فوق لوحة البيانات، ابتسم:

– هذا مكان لا يليق إلا بملك.

أخذ ينقر بأصابعه على أعلى اللوحة ويردّد الكلمات مع اللحن، نظر إلى حسين:

– نحن نفهم الدارجة العراقية، جفيّة يعني كفيّة، حامض حلو، شربت، كلها مفهومة، هل عندك "عبرت الشط على مودك؟"، مودك يعني خاطرك. قهقه: المصريون لا يفهمونها، أغنية جميلة، سمعتها قبل سنين في حلب كثيرًا، فات أوان الاثنتين، أصبحتا قديمتين، أليس كذلك؟

– عندي المئات، أشتري كل شيء، وأضع ما يقع تحت يدي في المسجل من دون أن أقرأ، إن رغبت في أغنية قلْ ليّ.

- أمزح معك. قال ذلك ثم حدّق بحسين باهتمام وسأله بغتة: كم سنة عمري خيّو؟

فوجئ حسين، ضرب أخماسًا في أسداس، ما القصد من هذا السؤال؟ أجاب:

- فوق الخمسين.

هزّ المفتش رأسه بقوة يمينًا ويسارًا وأكّد:

- عمري ثمانية وخمسون سنة.

ضحك حسين:

- توقعي صحيح.

سأل مرة أخرى بالاهتمام نفسه وبالتحديقة نفسها:

- كم سنة أعمل في هذه المهنة؟.

ازدادت شكوك حسين من الأسئلة:

- لا أدري، ربما عشرون، ثلاثون.

- أربعون سنة وثلاثة أشهر وأسبوعين. قال ذلك وأخذ يقهقه: قضيت عمري كله فيها، وأنا أقسم على المصحف أنك تهرب شيئًا ثمينًا، قل لي كيف عرفتُ؟

حاول حسين أن لا يتأثر قط، ضبط أعصابه، كان متأكدًا أن العاقبة ستكون كما يشتهي هو، وأنه سينجح في إيصال السيد، وكان متأكدًا أيضًا أن المفتش يريد أكثر، وكان مستعدًا لإعطائه، لكنه لم يكن يريد أن يضيع الوقت، فقد انتظره نحو نصف ساعة، كان من

المفروض أن يأتي قبل الواحدة، لكنه سمع صوت شخص يقيم الصلاة من مكان ما في نقطة الحدود هذه، فانتبه إلى وقت الصلاة، نظر إلى الساعة، تأوّه ثم نبر بسرعة:

– فات الوقت.

هرول إلى مبنىً قريب، راقبه على أعصابه وهو يدخل إلى المرافق، خرج بعد قليل والماء يقطر من رسغه ووجهه، ثم رآه يُصلي على حصير من النايلون في غرفة جانبية مع آخرين، وقدَّر أنه إن رجع إلى الشاحنة وأفرج عن السيد، فربما ينتهي المفتش من صلاته ويذهب إلى شاحنة أخرى، لذا بقي ينتظره وأعصابه تفور.

– حسنًا كيف عرفتُ؟.

أشار المفتش إلى جبهته بسبابته:

– إنه المنطق خيّو، بضاعتك كلها لا تساوي ثلاثمائة دولار، تنقلها من العراق إلى تركيا، من المجنون الذي يشتريها هناك؟ لا تضطرني إلى إنزالها كلها وتفتيشها قطعة قطعة.

– بضاعتي للمرور فقط، أنظر الأوراق تراها مرورًا "ترانزيت".

– وإن، عندنا تعليمات مشددة أن نفتش حتى بضاعة المرور إن شككنا، المخدرات عدوة الشعوب، تقتل الملايين سنويًا.

- ثق أنني لا أتعامل مع المخدرات، لا مانع لدي من التفتيش لولا الحر، لولا الوقت، أريد أن أرجع لأرى زوجتي، إنني متزوج حديثًا.

ضحك المفتّش من كل قلبه:

- آه من الحب، من سيرة الحب؟

كان حسين يجلس وراء المقود، يمسك به بيسراه وينظر إلى المفتش، وقبل أن ينهي المفتش ضحكته انبعث من المخبأ وراءه صوت غازات شرجية قوية مفاجئة، ذعرت عينا المفتش، قال بغضب:

- ألا تخجل؟ تضرُط وأنا قربك.

انحنى حسين عليه عانقه خجلاً، توسل:

- أرجوك سامحني أنا مصاب بزحار، حين أنفعل يفاجئني.

- سامحتك، لكنْ لا تكررها.

قبل أن ينهي المفتش كلامه جاء صوت الغازات ثانية أقوى من الأولى، فالتهبت نظراته، نبر حسين حالاً:

- والله يا عمي ليس بيدي.

ثم مدّ يده إلى جيبه وأخرج مائتي دولار، كانت هي كل ما كان يحمل في محفظته، سلمها للمفتش وهو يقبله على قمة رأسه. تسلم المفتش الدولارات واستعد للنزول، فتح باب السيارة فخرقت المخبأ دفعة أخرى من الأصوات قوية جدًا ومتواصلة كصلية

رشاش، كانت رجل المفتش اليمنى قد نزلت واليسرى على وشك النزول، ثم جاء دفق آخر من الأصوات أقوى وأشد، كان هم حسين الأول أن لا يشك هذا الكهل الذكي بالمخبأ، إن اعتراه أدنى شك فسيأمر بقص الجدار الخلفي ويقتلعه، تلك نهايته لا ريب، بخاصة إن شك في المخدّرات.

صعد المفتش من جديد إلى قمرة الشاحنة وهو يحدق بملامح حسين التي كادت تُمحى من الخيبة والألم والانفعال والخجل، أخذ يعاين كل شبر من القمرة، مدّ يده إلى الرف الصناعي، هزه، قرب عينيه من باب المخبأ، قال وهو يركز عينيه على حسين:

– أنت عندك شيء تهربه، أنا متأكد من ذلك ولخوفك من أن تنكشف أخذت تضرط، قل لي ما هو الشيء لأساعدك، وإلا دعوتهم ليفككوا الشاحنة كلها بالأوكسجين قطعة قطعة.

تضرع إليه حسين وقلبه يخفق:

– واللهِ واللهِ لا أهرب أي بضاعة.

لم تكن نظرة المفتش الفاحصة إلى باب المخبأ سطحية قط، كان يركز بنظرات مفعمة بخبرة طويلة، أخرج موسى من جيبه، فتح شفرته الحادة، أخذ يمر به من الأعلى إلى الأسفل بهدوء، ليرى إن كان هناك فتحة ما خفيفة مسدودة تعيق الشفرة من الانسياب، إن كان هناك باب سري مغلق بإحكام، لم يجد، عندئذ أخذ يمرر الشفرة من اليمين حتى الشمال، كان حسين يدعو الله في داخله أن

لا يضرط السيد مرة أخرى، عندئذ سيتأكد المفتش من وجود مخبأ، أصبحت حياته، مستقبله، وجوده، حياته مع نبُع خاله، أمينة متعلقة بضرطة واحدة تصدر من المخبأ، أخذ قلبه يخفق بقوة، لكن عليه أن يفكّر بسرعة، أن لا يترك الأمور للمصادفات. إن قُبض عليه هنا في سوريا سيتعفن كأي جيفة، سيبقى في السجن إلى الأبد، احتلت ذهنه تلك العجوز وحفيدها، التقاهم عصر أحد الأيام وهو راجع قبل أشهر إلى بغداد.

كيف تشعل الذكرى الذهن! عُطبت السيارة التي تقلهم في الطريق، وجد المسافرون كلهم من حن عليهم فحملهم إلى أقرب مكان إلا هي وحفيد لها يقاربه عمرًا، ربما لبطء حركة العجوز، ربما لأنهما لم يكونا قادرين على الدفع، من يدري! حدّق حسين في عينيها. أشبه برغوة صابون خفيفة على قزحيتيها وبؤبؤيهما، تساءل مع نفسه "هل تستطيع أن ترى شيئًا بمثل هاتين الغيمتين؟" طُرق سوريا مألوفة لديه، الحمولات من وإلى تركيا ولبنان تمر بها، لم تطلب العجوز والشاب الذي عرف بعدئذ أنه حفيدها سوى إيصالهما إلى مكان في الطريق يستطيعان أن يجدا ما ينقلهما إلى السيدة زينب، لم تكن العجوز الستينية بقادرة على صعود درجة الشاحنة العالية، أمسك بيدها سحبها وحفيدها يدفعها من الأسفل، لما استقرت في مقعدها أخذت تبكي من الفرح، الوقت ربيع، عرف أنهما قضيا أكثر من ساعتين ينتظران، وأكثر من ثلاث ساعات

يسيران من مكان توقف السيارة حتى مفترق درب قديم ليصلا إلى الطريق، كانا جائعين عطشين، امتصت رياح الصحراء حيويَّتيهما. أسفت تقاطيعهما، بدا الحفيد النحيف ممصوص الوجه من الجوع، لم يبقَ من حيويته سوى عينين سوداوين واسعتين ألقتين فوق أنفٍ كبير جدًا، فتح حسين المزادة: لحم بعجين، صفائح زعتر، رقائق بالبيض واللحم، أخرى بالطماطم، برتقال، خيار، "فقوس". في صندوقه الصغير البلاستيكي الذي يستعمله ثلاجة، مشروبات غازية، ماء، عصير رمان، قال:

- مدّوا أيديكم كلوا واشربوا.

أكمل الشاب:

- مما رزقكم الله.

ضحك حسين:

- أأنت حفيدها؟

- نعم. كيف عرفت؟

- هل تريدني أن أقول أبوها؟

قهقه الشاب، كان لا يمد يده إلى شيء إلا بعد أن يطلب منه الموافقة: "هل تسمح؟"، يأكل بنهم، كانت العجوز تبكي، لم تأكل أو تشرب أي شيء.

- ما اسمك؟

- إحسان.

ضحك حسين، تساءل الشاب:

- ما أضحكك؟

- احزر!

فكّر الشاب:

- اسمك إحسان.

- لا. لكنك اقتربت.

- إذن فاسم أخيك.

- لا.

توقف الشاب عن المضغ:

- لا تقل لي. أريد أن أفكّر.

قال حسين:

- فكّر. لكنْ لا تسألني إن أردت أن تأكل أو تشرب، خُذ ما تريد.

- نعم.

التفت حسين إلى اليمين وقال للعجوز:

- اسمعي يا جدتي، إن لم تتوقفي عن البكاء، سأقف وأنزلك أنت وحفيدك، هل سمعت؟

- لا أستطيع.

- بل تستطيعين، توقفي.

ضغط حسين على الفرامل بعد تهديده للعجوز، توقفت الشاحنة، أخذ حفيدها يصفق:

- أنت رائع، قل لها، عجزنا عن إيقافها عن البكاء.

أطاعت، مسحت عينيها، أمر حسين:

- مُدي يدك، كلي.

- ماذا آكل؟

- أي شيء.

تدخل الشاب:

- إنها لا تميز شيئًا، عميت عيناها من البكاء، لا ترى إلا أشباحًا.

- حسنًا. أنت تعرف ما تُفضّل، أعطها.

تناول الحفيد ترعوزًا "قثاء" قال لها:

- هذا ما تحبين، كُلي.

سأل حسين إحسان حينما رآه يأكل بشره:

- متى أكلتما؟

فكّر هذا برهة وقال:

- منذ عشر ساعات تقريبًا، أكلنا البارحة ليلاً خبزًا ومعدنوس، واليوم في الفجر لم نجد سوى خبزًا فقط، كنا نظن أننا سنجد ما نأكل على الطريق.

- كيف قاومتم؟

ضحك الشاب ضحكة قصيرة:

- حتى أنا لا أعرف، متُّ من الجوع، قالوا لنا يسمح لكم زيارة المعتقل إن دفعتم مليون ليرة، أنا طالب في الجامعة، قالتْ لي

جدتي دعني أرى أباك قبل أن أموت، بعنا دارنا، دفعنا الرشوة لأحد ضباط سجن المزّة، سمحوا لنا برؤية أبي، ذهبنا لزيارته، رأيته لأول مرة منذ أخذوه.

صقّر حسين مأخوذًا:

- مليون ليرة! يعتم البيت مقابل زيارة سجين مرة واحدة؟ هذا لا يُصدَّق، أيوجد ظلم كهذا؟

- ولا في أي دولة، مهزلة القرن الواحد والعشرين.

- لماذا أول مرة؟

- لأنهم عندما اعتقلوه كنت في بطن أمي.

- ماذا فعل؟

- مثلك كان سائق شاحنة، توقف عندما رأى شخصًا مهترئ الملابس يشير له، بعد أسبوع اعتقلوا الرجل، كان من المطلوبين.

- مجرم؟

- لا. سياسي، من الإخوان المسلمين.

- كيف عرفوا أباك؟

- اعتقلوه، عذّبوه، أعطى أوصاف الشاحنة، سألوا أبي أنقلته أنت؟ قال لهم: نعم.

- اثنان وعشرون سنة؟

- نعم، ولم يحاكم حتى الآن، ربما يموت قبل أن يسوقوه للمحكمة.

ابتسم حسين بمرارة:

- أبي اسمه إحسان، ربما رأيته وأنا طفل، لكني لا أتذكّر، كان أسيرًا في إيران، مات في الأسر، لم أرَهُ، أنت أسعد مني في الأقل رأيت أباك.

- هل عندك صورة له؟

- نعم، صغيرة في دَفتر النفوس الرسمية، يقولون إنها صورة شمسية. لكنها غير واضحة.

- نحن متشابهان.

- قليلاً، لماذا تبكي جدتك إن استطاعت رؤية ابنها؟

- كان يسير على عكاز، رجله اليمنى مشلولة لكثرة الضرب، إحدى عينيه مفقوءة، عمره واحد وأربعون عامًا، لكن كل شعر رأسه أبيض، لست أدري لماذا أصيب بالبهق! كانوا يقولون عنه أنه وسيم، يده اليمنى ترتجف من التّعذيب.

توقف عن الأكل ثم أخذ يبكي، قال حسين:

- كفى، لا تذكر شيئًا.

ساد صمت كثيف لا يخترقه سوى أصوات السيارات المارة، وصوت ماكينة الشاحنة، ثم لاح من بعيد مفرق طرق، قال إحسان:

- أرجوك، أنزلنا هناك.

- لماذا؟

- لننتظر سيارة تقلنا إلى دمشق، ومن هناك إلى السيدة زينب.

- بعد قليل تغرب الشمس، من ينقلكما؟

ردد الشاب بألم:

- هذا قدرنا.

- سأوصلكما إلى البيت.

هتف الفتى:

- لا تفعل. أخشى أن تلقى مصير أبي نفسه.

- هل أنت هارب؟

- لا.

- هل ستعترف أنت عليَّ؟

- أنا؟

- من غيرك يعلم؟

- أقسم لك بكل المقدَّسات لا.

- إذًا لن أتوقف حتى باب البيت، أنا في طريقي إلى بغداد، بدل أن أذهب إلى حلب كما نويت سأذهب إلى دمشق، سأمضي الليل هناك، أما أنتما فحظُّكما لإيجاد من يقلكما قليل في هذه الساعة من الليل.

- لا نستطيع مجازاتك.

- لا يهمَّني ذلك مطلقًا، أريد أن أعرف أين ستسكنان إن بعتم البيت؟

- لدى عمتي غرفة خالية، أرملة خياطة، سأتخرج بعد سنتين، ربما أجد عملاً، ستمشي أمورنا نحن، مشكلتنا أين تذهب أم زينة وابنتها.

- قريبتكم؟

- لا، عراقية قتلوا زوجها، اغتصبوا بيتهم بما فيه، عندنا غرفة شبه مهدومة في السطح أعطيناها إياها، إن انتقلنا أين ستسكن؟ ليس لها سوى معونة الأمم المتحدة، وهي لا تكفي الخبز وحده.

تكلمت العجوز لأول مرة، قالت:

- الله وحده المنتقم، ذبحوه أمام ابنته وزوجته، ظلمة، لن يتركهم الله.

- كم إيجار الغرفة في مكان رخيص؟

فكّر الشاب برهة:

- ليس أكثر من مائة دولار في الشهر.

* * *

تدوم الحوادث ساعات، أيامًا، سنوات، لكنها تستحيل بعد ذلك شرارة تضرب المخ كشهاب يحترق في ليل أسود، كالحلم بالضبط، مهما يطول فهو لا يتجاوز ثواني، فجأة غادر المفتش القمرة، لحقه حسين، توسل إليه:

- ثق لا يوجد شيء مهرب، لا توجد بضاعة مهربة، أقسم بالمصحف.

توقف المفتش مد يده إلى جيب قميصه، أرجع الخمسمائة دولار التي تسلمها من حسين:

- خذ. لا أريد أي شيء، كل الجرائم تهون إلا مخدرات تقتل الناس الأبرياء حتى لو كانوا غير سوريين، أتراكًا، مسيحيين، يهودًا، كفارًا. ثم حدق في عينيه ومد سبابة يمناه مؤكدًا، لا الشرك بالله ولا الإضرار بالناس، أسمعتْ.

أسرع حسين، وقف أمامه، توسل:

- ثق بي، صدقني لا يوجد أي مخدرات عندي، اضطربت فقط لأني سأتأخر. ثم أمسك برأس المفتش وأخذ يقبله وأضاف: اعتبرني ابنك.

توقف المفتش، كانت حرارة الشمس تحرق فروة الرأس، لاحظ حسين شعر المفتش الأبيض في رأسه يلمع كحرير سبل، ابتسم، قال:

- حسنًا عندي حل وسط.

تساءل حسين بلهفة:

- ما هو؟

- بضاعتك ليست ثقيلة، شاحنتك متوسطة، خمسة حمالين ينزلون البضاعة، يعيدونها في ربع ساعة، لنْ أؤخّرك، إن لم يكن عندك شيء سينتهي التفتيش ونوقع أوراقك في نصف ساعة لا أكثر، هل هذا حل جيد؟

- أقبل، وحلوانيتك باقية.

- اتفقنا.

* * *

بعد نحو خمس دقائق جاء المفتش ومعه شرطيان وخمسة عمال، وقع حسين وشرطيان على أوراق رسمية إضافة إلى توقيع المفتش، أزيل ختم الترانزيت المرصّص، فتح العمال الغلاف المشمع الثخين، أزالوا بمهارة شديدة غطاء الشاحنة المشمع، أخذ عامل أسمر قصير كثيف شعر الصدر والوجه والرأس، يشي جسمه بعضلات قوية يرمي شدّات الزّنابيل والمراوح والمكانس على الأرض بسرعة كبيرة، يساعده اثنان آخران متوسطا القامة نحيفان يرتديان ملابس خاكيّة رسم العرق عليها خطوطًا بالطول والعرض، بينما كان اثنان يأخذان شدّة الزّنابيل ذات عشر وحدات، يفككان الواحدة عن الأخرى، يهزّان كل وحدة ثم يرجعانها، المكانس مليئة بإبر الخوص الحادة الجارحة، أشبه بالشوك البري، تنغرز في أيديهم، سواعدهم، سيقانهم، بعد بضع دقائق، دُميت الأكف والسواعد والسيقان، كثرت الشكوى، اللعن، لاحظ حسين وهو يقف بعيدًا عن المفتش، أنه همس إلى الشرطيين بضع كلمات، غادر أحدهما وهو ينظر إلى قمرة الشاحنة، "يا له من ذكي! ما الذي يرمي إليه؟"، هرع وهو يتراجع ويشد يده على بطنه كي يوهم المفتّش بأنه يعاني من الزحار. دار إلى باب القمرة من

الناحية التي لا يراه منها المفتش، فتح الباب، أغرق جوها بالعطر الرشاش كي لا يشم رائحة غازات السيد أحد إن فتحت القمرة، بعد بضع دقائق جاء الشرطي ومعه شخص آخر وكلب صغير أبيض مبقع بدوائر مختلفة الأحجام غير منتظمة، بين البرتقالي والأصفر والقهوائي، ترى لماذا يقولون لا يوجد كلاب تفتيش في سوريا؟ لماذا لم يشاهده من قبل؟ الشخص الذي يمسك بسير الكلب مدني، ممتلئ طويل، أشقر، يضع على عينيه نظارتين سميكتين، أشار إلى حسين عندما اقترب من باب قمرة الشاحنة، أسرع هذا فتح الباب، انحنى المدني، رفع الكلب، وضعه داخل القمرة، صدّ الكلب، قفز إلى الأرض، ابتعد عنها، أسرع حسين قفل الباب، عيناه تتابعان الكلب وقائده، رآه يسير نحو مؤخرة الشاحنة، وإذ رآه الحمالون الخمسة توقفوا عن العمل، أفرغوا نحو ثلث الشاحنة، كدّسوا شدات المكانس والزّنابيل والمراوح على الأرض لتكوّن تلاً صغيرًا، قاد المدني الطويل الكلب حول الكدس، ثم حمله ووضعه على ظهر الشاحنة، صدّ الكلب ثانية، قفز إلى الأرض كما فعل في القمرة، عندئذ وقف الجميع قرب المفتش، هتف هذا بقوة:

– أرجعوا كل شيء إلى ما كان عليه.

هتف بالجميع:

– أكملوا العمل وانتظروني قرب باب الدّائرة. أشار: هناك.

رجع إلى مبنى الجمارك، نظر إلى حسين، أشار إليه بسبابته، وقف في ظل سقيفة غرفة الصلاة، تبعه حسين، قال له وهو يدخل غرفة الصّلاة الخالية:

- أرأيت؟ لم يستغرق الوقت نصف ساعة!

ثمّ حدّق في عينيه بتركيز وهو يحرك إبهامه وسبابته ليعني عملية الدفع، انتزع حسين الخمسمائة دولار من جيب قميصه، سلمها له كلها، قال المفتش بصوت حائر، وهو يحاول أن يعبر عن محنته:

- لمن أدفع؟ قل لي أنت؟ للحمالين الخمسة؟ لـ"الخواجة" مدرب الكلب؟ للشرطة؟ كم أدفع لكل منهم؟

قال حسين:

- لستُ أدري لماذا لم تصدقني، قلتُ لك لا أهرب أي بضاعة ممنوعة، أقسمت، لكنك كذبتني، والله ليس في جيبي غير هذا المبلغ.

ابتسم المفتّش، ركّز عينيه على عيني حسين:

- أستطيع أن أثبت ما أقول، أن أفكك القمرة كلها، وإن فعلت فسأريك أنك مهرب من طراز رفيع، أنا متأكد مئة بالمائة، نحن عرب، لنْ يصل عربي إلى ما وصلت إليه من الخوف ما لم يكن فعل شيئًا إذًا. (قال ذلك بلغة القرآن الفصيحة وهو يهزّ رأسه بحكمة). لكني لا أريد أن أوذيك، قبلتني في رأسي، قلتَ لي عاملني كابنك، سأفعل.

زفر حسين فرحًا:

- حسنًا انتظرني سأرجع من تركيا بعد بضعة أيام ولك ما تشاء، اكتب لي اسمك.

- لا. عليك أن تتذكرني، أنا أبو ليث.

- عاشت الأسماء.

قال ذلك وانطلق مسرعًا، لكن المفتّش هتف:

- تعال. تجهمت ملامح حسين، رجع متثاقلاً، قال المفتّش: أرأيت؟ انظر إلى وجهك بالمرآة تراه أصفر كالورس، لو لم تكن تهرب شيئًا ممنوعًا لما اضطربتَ، خذ حذرك، ما كل مرة تسلم الجرة.

صمت حسين، لم يرد عليه خوفًا من إثارته، أحنى رأسه، قال المفتش مقرنًا صوته بضحكة خفيفة:

- كيف يمكن لشاب مثلك لا يستطيع أن يضبط مخرجه؟ هذا عيب كبير، إنه ثقب صغير في أسفل كل منا، كيف لا تسيطر عليه؟ عالج بطنك.

ابتسم حسين يغرقه الخجل، قلبه ينبض بسرعة، حاول أن يبدو متماسكًا، أما في أعماقه فكان هلعًا حدّ الموت، حين انتهى المفتش من كلامه التفت ليرجع إلى العمال أحس حسين بأن ثقل الجبال انزاح عن كتفيه، تنفس بارتياح شديد، رجع بخطى حرص أن تكون هادئة واثقة، وهو يرفع رأسه متظاهرًا بأن كل شيء طبيعي، لكنه ما إن ابتعد عن نظري المفتش حتى طفق يركض

ليتخلص من حرارة الجو اللاهبة، ليفر من أذكى مفتش صادفه في حياته، لم يرَ أي شخص في الساحة الكبيرة أو قرب رتل الشاحنات الطويل، لابد أن الجميع هربوا من سياط جهنم، تذكَّر كيف كان يقاسي قبل وضع التكييف في الشاحنة، كيف تسلقه نار الظهيرة عندما يوقفها، تنهد بارتياح.

بدأ القيادة في حركة عادية كي لا يُثير الشك، لكنه أخذ يسرع بالتّدريج، حتى إذ مضت نحو عشر دقائق نظر إلى الأمام والوراء في مرآة السيارة الجانبية فلم يرَ أي سيارة تتحرك، إلى اليمين تلّ صخري أصفر، تخيل أن أشعة نار تنبعث منه، ساق باتجاهه نحو عشرةِ أمتار بعيدًا عن الشارع العام، ترجّل، أسرع يفتح باب المخبأ، رأى السيد جامدًا، مغمضًا عينيه، هزه لم يستجب، هوى على وجهه، لو لم يتلقفه لارتطم وجهه بزجاج الشاحنة الأمامي، ربما حطمه، شوّه وجهه، سحبه، امتلأ جو القمرة برائحة البراز القوية المخرشة، غثيت نفسه، كاد يتقيأ، حدَّق في موطئ قدمي السيد رأى أرضية المخبأ مليئة بخراء ارتفع أعلى من حافة مستوى النعال الثخين، لوّثت أسفل قدميه، حمد الله أن باب المخبأ محكمًا بشكل جيد، لولا ذلك لسال شيء منه إلى أرضية القمرة، لاكتشف ذلك المفتش الذكي، الصدف وحدها أنقذتهما، التفت إلى السيد، رآه جامدًا كالميت، أخذ قلبه يدق بشدة، أحكم قفل الباب الأيمن كي لا ينفتح من الخارج، سحبه من المخبأ بصعوبة، أجلسه

على المقعد، وضع أذنه علىّ جهة صدره اليسرى، سمع دقات قلبه، زفر بارتياح: "الحمد لله." هزّه لم يتحرك، تناول كأس ماء بارد من صندوق الثلاجة، سكبه على رأسه، صحا فجأة، هز رأسه بقوة، فتح عينيه، قال ما إن رأى حسين:

– رجاءً أخبرني، هل انتهى التفتيش؟

– نعم، أنت بأمان الآن.

قال خجلاً:

– تمرضت، إنه طعام الطريق، لابد أن يكون ملوثًا.

هزّ حسين رأسه:

– لا. أكلتُ من نفس الطعام، لكنك أكلت كثيرًا، ما يعادل ثلاثة رجال، "الباجة" تحدث إسهالاً.

– هذا أكلي الطبيعي، لعلي نسيت أن أتناول الحبوب.

– رأيتك تتناولها في الرمادي.

– لم أتناولها في حدود سوريا.

– ربما هذا هو السبب.

حاول أن ينهض لمْ يستطع، قال لحسين وهو يمد يده:

– ساعدني.

– قبل أن تنهض، هل جلبت ملابس إضافية معك؟

– نعم، لكنْ ليس دشداشة.

– لا يهم، المهم أن تستبدل ملابسك بأخرى نظيفة.

- كيف أفعل وجسدي ملطخ؟

قال السيد ذلك بخجل شديد وهو يغض عينيه.

- خرجتُ عن الطريق لتمسح نفسك في ظل الشاحنة، تسترك عن المارة، امسح البراز بالملابس القديمة، من هنا إلى تركيا يرتدي المرء ما يريد دون إثارة الشك.

كاد السيد يسقط وهو يترجل من الشاحنة لولا أن تلقاه حسين، سحبه إلى الأرض، ثم قاده وهو يمسك بيده إلى الجهة الثانية خلف السيارة، قال:

- انظر، هنا لن يراك أحد، لا تمر السيارات الآن، حتى السيارة التي تنهي تفتيشها من الجمارك تنتظر حتى الخامسة لتبدأ السير، انزع ملابسك كلها وامسح جسدك وسآتيك بحقيبتك لتختار ما تلبس.

أدار حسين ظهره للسيد ليتركه يتصرف من دون إحراج، الساعة بحدود الثالثة بعد الظهر، تلهب الشمس الكون كله، من بعيد لاح غراب أسود يحوم في الجو، سمع أصوات بعض الصراصر البرية تتوالى بدون انقطاع، كأنها تئن من سعير الحر بصوت منخفض، مرة أخرى لاح في ذهنه قضية بقاء هذه الحيوانات الصغيرة على قيد الحياة من دون ماء! كيف تقاوم هذا الجحيم؟ قطع عليه تأملاته صوت السيد:

- لكني لا أرتاح إلا إن ذهبت إلى حمّام.

- تذكَّر أنك لا تستطيع أن تنزل في فندق على طول الطريق حتى تركيا، إن اضطررنا للمبيت فسترقد في الشاحنة، لا أغامر بإدخالك فندقا بجواز سفر عراقي أو غير عراقي، لم تحصل على تأشيرات رسمية للخروج والدخول.

- هل سأبقى مع القذارة؟

- تحمل حتى حلب، هناك حمامات شعبية، لا يطلبون فيها جواز سفر، يدخلها أي كان، تخرج منها نظيفًا نشيطًا، تنفض فيها وسخ حياتك كله.

قال حسين ذلك ورجع إلى الشاحنة، جاء بالحقيبة الحمراء.

- رجاءً. أريد الحقيبة الأخرى.

- لماذا؟

- وضعت فيها بعض ملابس داخلية.

حدق بالطريق، كل الطرق سوداء لكنها تعلمك بقلب أبيض، تمتد إلى ما نهاية، تمتد حول الكرة الأرضية كلها، تمنى لو يسير مع الطريق ليرى كل بقاع العالم، أين كان؟ لا يتذكر بالضبط، تركيا، العراق، الأردن! سوريا! لا. ربما السعودية، وحده في الطريق، رمال حمر في اليمين والشمال، فجأة لاح في أقصى الأفق خط أسود، خط خفيف، كقلم رصاص يخط مستقيمًا في ورقة بيضاء من اليمين إلى الشمال، بدأ الخط يعرض، يرتفع، يتقدَّم، ما هو؟ عندما أصبح على بعد كيلومتر تخلخل الجو، أخذت الرمال تتحرك

نحو السماء في دوائر ضخمة ثم اشتدّت، أوقف الشاحنة، تضاعفت قوة التيارات الدائرية نحو السماء، أخذت الشاحنة تتقلقل، هل ستنقلب؟ ستتحطم؟ دوت في الكون أصوات انفجارات قوية، من أين جاءت؟ لا يدري، لو لم يكن داخل الشاحنة لما استطاع فتح عينيه، حل الليل فجأة، أدرك أنه في قلب العاصفة، فرقعة بعد أخرى، انفجار بعد انفجار، الشاحنة تميل يمينًا وشمالاً، والحجارة تقذف بدن الشاحنة، زجاجها، تصيبها في كل مكان، بعد دقائق انحسرت العاصفة إلى الخلف لم يبق سوى زخّة مطر قوية ورياح باردة كالزمهرير، بَرَدٌ صغير ينقر كل شيء، يكاد يخرم الزجاج. حفره حفرا صغيرة أتلفت بريقه.

بعد نحو عشر دقائق جاء السيد يرتدي قميصًا نصف ردن، سروالاً زيتونيًا، حذاءً أسود، يضع على عينيه نظارة شمسية، سأله حسين:

- أين الملابس القديمة؟

- رميتها.

- هل ستقف في المخبأ على البراز؟

نظر إليه باندهاش:

- أنت تفكر في كل شيء.

- لكني أنسى كثيرًا، أطو الملابس الملوثة، ضعها في أرضية المخبأ لتقف عليها، وتضع عليها الحقيبة الدبلوماسية.

– كيف ننظف المخبأ؟

– لا أدري الآن، سأفكر في حلب.

– لكننا لن نحتاج المخبأ حتى حدود تركيا.

ابتسم حسين:

– ما دام هناك دوريات على الطرق فنحن نحتاجه في كل متر حتى يتسلمك أبو مازن.

– إني جائع.

ضحك حسين، انقذفت جملة على لسانه:

– لتصاب بالإسهال ولتخرج موجة أخرى من الضـــ.... ابتسم، سأل: هل تناولت الدّواء؟

– بعد الأكل.

ناوله حقيبة نايلون فيها فاكهة وبضع فطائر جبن بقيت من الفطور، أخذ السيد يأكل ويشرب الماء المثلج، قال:

– أظن أن هذا الماء أبرد من اللازم، ربما كان السبب في الإسهال، أعندك ماء غير مثلج؟

– لا. لا تشرب كثيرًا.

– سأفعل.

بعد انتهائه من الطعام اتّكأ على مقعده، دفع رأسه إلى الخلف، أغمض عينيه، حاول أن ينام لكنه نظر إلى حسين:

– لابد أنك تسأل نفسك: لماذا يأكل السيد كثيرًا؟ أليس كذلك؟

قال حسين:

- لا يهمني.

- أسمعت بالمثل القائل: أكل الرجال على قدر أفعالها؟

ابتسم حسين:

- نعم.

ارتسمت أمامه جملة: هل الضراط من هذه الأعمال! صمتَ السيد، بعد نحو خمس دقائق سمع حسين صوت شخيره الخفيف، ثم توقف عن الشخير بغتة، اعتدل رفع النظارة عن عينيه وقال:

- عطشتُ.

- اشرب قليلاً، هل الحبوب معك؟

- إنها في الحقيبة.

- باب المخبأ موارب، تناولها.

نهض، فجأة هتف بقوة أظهرت صوته الحقيقي، كان صوتًا واطئ الدّرجة، أشبه بصوت طفل:

- أين الحقيبة؟

- ماذا تقصد؟

- اختفت الحقيبة، لا أراها.

ضرب حسين مقود الشاحنة بكفه وهو يقف، هتف لائمًا:

- لابد أنك نسيتها في البرية عندما أخذت منها الملابس الداخلية، هل فيها شيء مهم؟.

فجأة شرع السيّد يعول، يضرب رأسه براحتيه كامرأة ثكلى:

– فقدتُ كل ما أملك، يا ويلي، مصيبة كبرى، تسألني هل فيها شيء مهم؟ فيها أهم من المهم، فيها أوراق الحزب، أسماء القيادة، تفصيلات عن تفجير السفارة العراقية في بيروت، تفجير وزارة التخطيط، تفجير مستشفى ابن الهيثم، تفجيرات الكويت، أوربا، السعودية. كل عمليات الحزب الكبرى ومن قام بها. خرائط المفاعل النووي، خرائط المطارات الخفية، البيوت السرية للطاغية وأولاده وقياداته، فيها أكثر من عشرة آلاف وثيقة ميكروفيلم. أسماء قيادة الفصائل التي ستحمي خلفية قوات الاحتلال، فيها مستقبل العراق كله، كيف سنثبت صدقنا للدول التي ستساعدنا بإسقاط الطاغية إن فقدنا كل ذلك؟ سأقتل نفسي إن لم ألقها.

صرخ حسين بقوّة:

– كفى عويلاً، لا تولول كالنساء! تمالك نفسك، لا تتشاءم، تفاءل، سنرجع، إن هي إلا نصف ساعة، لم يسبقنا أحد إلى حد الآن.

رجع بالشاحنة، ساق بأسرع ما يمكن، بعد نحو عشر دقائق رأى سيارتين عراقيتين صغيرتين تحملان لوحة بغداد، كان في الأولى نسوة سافرات شبه نائمات باستثناء السائق، وفي الثانية شباب يضحكون، قال للسيد:

– لا يبدو من في هاتين السيارتين يهتم بما في الطريق، الخوف من سواق الشاحنات، إنهم يرون ما فوق الأرض من علٍ، يرون ما لا يراه هؤلاء، الحمد لله لم نرَ أي شاحنة.

أغمض السيّد عينيه ثم تضرع:

– يا أبا الحسنين، يا فاطمة الزهراء أنقذينا.

بعد نحو ربع ساعة لاح التلّ الصخري الأصفر، إلى الجهة اليسرى من الطريق، تخيَّل حسين مرة أخرى أشعة نار تنبعث منه، قال السيد بتوسل وضراعة:

– رجاءً هل وصلنا.

نظر حسين أمامه وخلفه في مرايا السيارة، استدار إلى اليسار، وقف في المكان نفسه، نزل من السيارة، تبعه السيد وهو يلهث، رأى الحقيبة في مكانها مسدودة، أشار إليها، ركع السيد على الأرض، قبلها، هتف بفرح وهو ينظر إليها:

– يا فاطمة الزّهراء.

مد يده ليتناولها، صرخ حسين: "لا انتظر" أشار إلي إحدى جهاتها: "انظر"، كان هناك رتل من النمل الأسود الخشن والذباب فوق لطخة البراز العالقة بها، قال حسين مؤنبًا:

– لم تمسح الحقيبة عندما فتحتها، جفّ البراز عليها، أسرع هات ملابسك المتسخة امسحها جيدًا، لن تدخل بها الشاحنة هكذا.

– الملابس كلها ملوثة.

– هات قطعًا نظيفة إذن، سنشتري لك من حلب ما شئت، إن لا تملك أنا عندي ملابس احتياطية كثيرة في الحقيبة، أبقيها في الشاحنة احتياطًا.

قال السيد:

– عندي.

قرفص السيد وفتح الحقيبة، أخرج لباسًا أبيض طويلاً، بدأ بتنظيف الحقيبة بعناية.

* * *

الشاطئ كالطريق، يتفجَّر مفاجآت، واحدة بعد الأخرى، ما هذه؟ سيقان مثيرة تخرج من تحت البحر، كرتا قدم خفيفتان، صفراء وزرقاء من البلاستيك، فتاتان في الماء، فتيّان خارج الماء، يظهر الساقان حدّ البكيني الأحمر المنقط بالأصفر والبرتقالي، تُحركان سيقانهما برقصة منعشة، يرمي الفتيان الكرة نحو وسطي الفتاتين، يخطئان. تقف الفتاتان في الماء، تنفضان شعريهما، تتطاير قطرات الماء في دائرتين، تدفعان خصلات الشعر إلى الوراء، تضحكان. ترميان الكرة نحو الفتيين، تغوصان مرة أخرى، يظهر البكيني المرقّط مثيرًا، ترقص السيقان بتماثل وهي مفتوحة نحو السماء. تخطئ الكرتان الهدف مرة أخرى، ثالثة، رابعة، أخيرًا يترك الفتيان الكرتين، يهجمان على البحر، يختفي الأربعة تحت الماء.

يظهر بعدئذ كيانان اثنان من شقين ملتحمين، يدوران حول نفسيهما. تتناثر المياه، تتناثر في الجهات كلها.

للطريق الطويل مفاجآته مهما كان نوعه: سهل، مستو، مرتفع، منخفض، جبل، تراب، صخور، مشجّر، صحراوي، علاماته، نقاط جَــمّاله، قفره، صخوره. سينتظر وصوله إلى الصخرة الحمراء المتفردة في طريق عرعر، بيض الديناصور في طريق عمّان، وادي الأفاعي في طريق السماوة، بحيرات الملح في طريق الغراف، جبل سنام نهاية الحدود، احتفالات العقبان على مشارف غازي عنتاب، مئات الشواهد في طرق مختلفة، عندما ذكر أمام السائقين في المنطقة الحرة "الزرقاء" بيض الديناصور فتحوا عيونهم الفلسطينيون والأردنيون، "ماذا تعني؟" لم نسمع بشيء مثل هذا بين بغداد وعمّان! لم يفُه بأي كلمة، مثّل بيديه ليقرب إلى أذهانهم حجم الصخرة، واحد فقط أدرك المعنى، "تعني الصخور المدورة!" أخذ يضحك من كل قلبه، شاركه الآخرون الضحك. تنتشر الصخور على مساحة تزيد على عشرة كيلومترات، تسد الأفق، يضرب لونها إلى السواد، الطريق إليها قديم ملتو، سأل عنها غير واحد حينئذ علم أنها صخور بركانية، الطرق كثيرة، طريق تركيا هو الأفضل دائمًا، جديد انسيابي، عرضه مريح، فيه الكثير من الشواهد، ما أجمل جباله وقت المغيب! زرق، بنفسجية، خضر، حمر، صفر، ألوان لا تحصى. أي ألوان تسفح الشمس عليها حين

تنتحر في أقصى الكرة الأرضية! يُحدّث نفسه ويداه على عجلة القيادة: بعد قليل سيظهر الجبل الملتحي بغابات الصنوبر، يبقى ينتظر ظهوره، تتملكه الفرحة، يبتسم: ابن حلال، هذا هو. يُفكّر فيما سيظهر بعده، مرة بعد أن تجاوز "غازي عنتاب" رأى في صدر الأفق غيمة صغيرة سوداء بعيدة، غيمة قارة ثابتة فوق الجبال الصفر، الجو صحو، اعتاد المفاجآت، ستكون همرة مطر قوية أشبه بالإعصار، شغّل ماسحات الزجاج، بدأت تعمل "الحمد لله"، أخذ يترقب وصولها لكنها لم تتحرك من مكانها قط، يا للعجب! أهي "إعصار دوار يلتف حول بعضه؟ سيقف قبل أن يصل، سمع أن العاصفة التي تدور حول نفسها تُحرك الصخور الضخمة، تقلب الشاحنات المتحركة أكثر من الواقفة، سيقف، لكن الغيمة السوداء ظلت في مكانها، نعم إنها تتحرك حول نفسها، إعصار جبار! خفّف السرعة، حينما وصل إليها أخذ يضحك، لم تكن غير عقبان سود، ترقص في أعلى السماء، أين كانت؟ أين أعشاشها؟ أي عدد رهيب؟ ألف! عشرة آلاف! مائة ألف! من يستطيع تقديرها، كيف تجمّعت؟ ماذا تعمل؟ هل الطيور تحتفل؟ عندما مرقت السيارة تحتها اختفت أشعة الشمس كلية. أوقف السيارة، أخذ نحو عشر صور لها مع الجبال المحيطة بها، حفظ المكان، اثنا عشر جبلاً متدرجًا، يكَوِّنون نصف دائرة أشبه بهلال يحتضن سهلاً يتبختر بشموخ، في وسطه جدول رقراق بعرض خمسة أمتار. أي منظر!

آه لو يأتي بنبْع وخاله وزوجته مع خيمة، سيسرق إذن بضعة أيام عسلية في هذه الجنة!. لم يرَ العقبان مرة أخرى لا فوق هذه الجبال، ولا في أي مكان آخر. قرأ مرة أن الحيوانات تحتفل بضع مرات في السنة لكن كيف؟ متى؟ لم يتذكر، شطحات كتاب لا أكثر! من يستطيع أن يفسر له تلك الظاهرة؟ لا أحد. أتراه قرأ ذلك حقًا أم اخترعته الوحدة المسيطرة عليه؟ كلفه الحصول على تفسير حدوث (بيض الديناصور) سنة من الأسئلة! أخذ صورًا عديدة لها، لم يعرف سرها سوى مصادفة. سلّم البضاعة لصاحبها في "جراج" الحصوة، همَّ بالخروج، سمع أحدهم يُحدّث رفيقًا له، يُشير إلى شاب: ذاك الشاب جيولوجي متخرج في "فينا"، قدم مع والده مالك البضاعة، لم يعره انتباهًا أول الأمر، لكن كلمة جيولوجي ضربت وترًا حساسًا. هرول إلى السيارة، جاء بالصور، قدّمها إلى الشاب. شرح له هذا كيفية حدوث البراكين، كيف تتكون التشكيلات، طبقة بركانية في مجرى منحدر لسيول استمرت مئات ملايين السنين، دُحرجت آلاف الكيلومترات خلال الماء لتُصبح ملساء هكذا. لو فكَّر ألف سنة وحده ما عرف الحقيقة! ليكتشف سر العقبان السود ومهرجانها الذي لا يُنسى عليه أن يذهب مع خاله إلى جامعة بغداد ويسأل عن عالِم طيور، ربما لا يصدقونه، ربما يظنون أنه فبرك الصور، سيضحك الجميع عليه، طمأن نفسه: لا بأس. اترك الأمر للمصادفات الآتية، ربما يأتي يوم تعرف كل شيء، سيأتيك بالأخبار

من لم تزوّد، من لا تتوقعه، علا شخير السيد، حتى هو أحس بنعاس خفيف، مثل هذا النعاس يستطيع السيطرة عليه بشرب ماء بارد، مرة فاجأه نعاس شديد، حاول أن يتذكر الموقع لم يستطع، لكنه كان متأكدًا من الوقت، نهاية العصر، أوقف الشاحنة في مكان آمن تحت شجرة كبيرة، أغمض عينيه، غفا نحو عشر دقائق، فتح عينيه على زقزقة عصافير، حدّق لا يستطيع أن يراها، صوت هائل، عصافير تحتفل في مهرجان آخر لكنه صاخب، تُصدر صوتًا جماعيًا هائلاً لسيمفونية طبيعية حية خلابة، فتح عينيه ونظر إلى الشجرة الضخمة، شيء ما جعله يتصوّر أنه مر بهذه الحالة نفسها. أغمض عينيه، عاد عقدًا كاملاً، المدرسة كلها ذاهبة إلى بستان في الرشدية، هناك رأى مهرجانًا للعصافير وفي مثل هذه الساعة قبل المغيب، تمنى لو يستطيع الذهاب يوميًا ليستمتع بالموسيقى. في تركيا سمع صوت الفاختة التي كان يسمعها في شوارع العراق وعطفاته: كان يردد مع أصدقائه الأطفال معها: "كوكو أختي. وين أختي". تلك أصوات لا يسمعها هنا أمام البحر، لا هي ولا صياح الديك، أو صياح الطواويس الذي يشبه صياح الديك على نَفَسٍ أقصر وأرّق، يسمعها حينما يذهب بصفاء إلى حديقة الحيوان الواسعة المفتوحة بلا أسيجة، حيث تندمج الطبيعة فيها اندماجًا كاملاً بالبشر، نباتات استوائية، وورود عملاقة لا تزهر إلا كل قرن أو قرنين من السنين، بقع النجيل تمتد طولاً وعرضًا.

طواطم بدائية جميلة وحشية غريبة، مشوّهة، حدائق ضخمة ببحيرات صناعية مليئة بحيوانات داجنة: غنم، ماعز، بقر، عجول، طيور مختلفة، طواويس، قطط، كلاب، حمام، يمام، عصافير، أرانب الخ. تعيش حياة برية حرة، تألف الزوار، يألفها الأطفال، يلعبون معها.

يفطر صفاء صباحًا، يُبدّل ملابسه، يمسك بإصبعه: هيا إلى حديقة الأسماك، يشتري له كيسًا من كعك الأصابع، يقف بقامته الصغيرة على الحافة، يرمي حبة الكعك في السماء، تنزل إلى الماء تتلقفها سمكة من مئات الأسماك المتجمعة، يقهقه، يصادق أطفالاً آخرين، يوزّع عليهم الكعك، يلعبون، يتسابقون، يضحكون، يجوع، يتغذى في كافيتيريا الحديقة، يستأنف اللعب، ينعس، ينام قربه على المسطبة، يستيقظ عصرًا، ينضم إلى أصدقائه، يلعب حتى يحل الظلام. لكنه فضّل الشاطئ في بداية حزيران، أصر أن يذهب يوميًا إليه مع عدته، في المساء يغسل جسده الصغير تحت المرش، يرتدي ملابسه، يرتب حقيبته، يضعها على ظهره، يغادر أمامه. يختار مطعمًا على الطريق: أكلنا هنا البارحة، لنغيّره، لا أحب الطعام الصيني، لنأكل كبابًا، يصل إلى البيت، يشاهد التلفزيون، يغفو على المقعد، هذا اليوم مختلف. سيرتج البرنامج، لن يذهب إلى البيت إلا بعد انتهاء لعبة كأس العالم، ربما في الثانية عشرة،

سينعس صفاء، ينام في حجره، سيذهب إلى قمة الجبل بسيارة أجرة.

جلب أرنان لأول مرة متكأ بلاستيكيًا متحركًا على عجلات. أي اختراع مبهر! متكأ كامل يتسع امتداد الساقين، هلل شاب أسمر متين ذو عضلات متناسقة، جلس عليه، احتجت صديقته، علا صوتها، جادلته بغضب! ابتسم، هز رأسه، مد ساعديه، جلست على فخذيه لحظة، حاولت أن تستقر، لم ترتحْ. نهضت كالملدوغة، احتجت من جديد، أشارت إلى المتكآت الخشبية ثم هرعت غاضبة نحو البحر، البحر واسع يمتص انفجارات العواطف، قهقه، فقز من المتّكأ، تبعها راكضًا نحو البحر، أدركها قبل أن تعوم، عانقها، راحا في قبلة طويلة.

عجوز أصلع نحيف في الستينات يجلس على الرمل، تُزيت شريكته العجفاء ظهره المشعر، يستسلم لها، فجأة تسقط كرة على يديها، يطير أنبوب الزيت بعيدًا، تبتسم، يقهقه العجوز، يأتي مراهق طويل نحيف خجل ينحني على أنبوب الزيت، يأتي به، يفتح ساعديه يمينًا وشمالا معتذرًا، يرجع بالكرة.

منذ ثلاث ساعات، في الحادية عشرة كل يوم تبدأ الزوارق بأنواعها في ترصيع البحر الأزرق، زوارق بخارية، زوارق شراعية، زوارق بلاستيكية عريضة تتحرك بالأرجل تذهب بعيدًا

أكثر من كيلومترين، ألوانها مبهجة، يسهل على العينين تتبعها، تحمل أشخاصًا متعددين يغنون، يرقصون، يستهترون. تعمَّد أحد الزوراق صدم آخر، سقطت فتاة في البحر، قفز غير واحد لينقذها، فجأة جاءت طيارة مروحية حامت فوقهم، تُدلي درج يتموج بتيار المروحة الشديد، نزل اثنان يرتديان سترة خضراء فسفورية، نقلت الفتاة إلى الساحل.

امتلأ صندوق الشاحنة بالصور، امتلأ المخ بأسئلة لا يعرف لها جوابًا. قال له خاله: "لا تتعب عقلك، هناك الكثير من الظاهرات الطبيعية لا تفسير مقنع لها، لم يصل العلماء إلى حد الآن إلى معرفة سبب حدوث موج البحر!"

تستمر اللعبة بينه وبين الشاحنة والطبيعة، تقلل من الضجر، لكنها لا تقضي عليه، هو ابن مدينة، استلفتتْ كلمتان انتباهه في درس الجغرافية: سراب وضباب، شرحها المدرس، فهم معناها، لكنه لم يرَ في بغداد أيًا من الظاهرتين ينطبق عليهما الاصطلاحان حتى ساق أول شحنة من تمر الزّهدي، حمَّل البضاعة من الحسينية في كربلاء إلى الأردن، في الطريق الدولي العريض بين بغداد وعمان وبعد أن خلا الجو في ذلك الصيف المشمس، رأى الطريق أمامه على بعد بضعة كيلومترات يتسع ليشمل الأفق كله. اللعنة، ما هذا؟ اختفى الإسفلت الأسود، خلَفَ مكانه أشعة بيضاء تصعد من الأرض نحو السماء وأخرى من الصنف نفسه تنزل من السماء

نحو الأرض. تحتل الأشعة لا الطريق حسب بل الأفق شرقًا وغربًا، حينما تلوح شاحنة قادمة من بعيد تبدو وكأنها وحش أسطوري تسعره نار جهنم، فاتحًا فوهة هلامية قادرة على ابتلاع الوجود كله. وحش لا يسير على الأرض، يتحرك على عجلات في الأعلى، فوق الأرض، في الهواء، يندفع وكأنه مشدود إلى سماء تعلو بحرًا شاسعًا من الماء، عجلاته الأربع تلتهم الشارع، أي منظر؟ أهو يتخيل أم هي الحقيقة! لم يكن عطشًا، لم يكن يسير تائهًا في الصحراء، لكنه رأى السراب أمامه وحشًا أسطوريًا وهو في الشاحنة، فكيف بمن يسير على قدميه تائهًا تحرقه الشمس ويضنيه العطش؟ كيف سيراه؟

في ثنيات الجبال والوديان التي لا تنتهي كانت صورة "نبْع" هي وحدها تنعشه مع قبلها، لمساتها، ما تعدّ له من أكلات طيبة، في الصّباح يشم رائحة الشاي المهيّل، يستحلب لسانه طعم القيمر والعسل، الباقلاء بشرائح الخبز المقلي، في الظهر تغزوه أطباق الرز ملوّنًا بالزعفران، بالكبة مقلية أو مسلوقة، بالدّولمة، الكباب، "الباجة". الأطعمة المتنوعة التي لا تنتهي، فجأة يحس بألم في معدته، يتمنى لو يشاركها وجبة واحدة، يختفي كل شيء من تفكيره إلا تصور المطعم المقبل، ترى أين سيلقاه؟ على جانب الطريق حيث سقيفة من أغصان البلوط تمنع سياط الشمس أم في بناية حديثة مجهزة بكل شيء!

في السياب الشاحنة أو ترنحها وهي متفردة في الفضاء المطلق تنتفض الذكريات قوية حادة كنصل سكين يحز أضلاعه. تتقذف أمامه بعنفوان جني علاء الدين منفلتًا من مصباحه، لا يهمه شكل أو نوع المطعم، بل اللقمة أيًا كانت مع "نبْع"، لكن أين نبْع الآن؟.

طيف "نبْع" تروح وتغدو وهي تتكلم، لا بل تغرد، تحدثه عن الطيور التي تحط على الجدران، عن البلبل الذي يأتي كل يوم يقف هناك في الزاوية، تضحك بعذوبة، تقلده في التغريد، تقص عليه كيف تقف على كرسي تضع كأسًا مترعًا بالماء، وحفنة حنطة في صحن صغير، كيف كان البلبل يشرب ويغرد، كيف انقضَّت عشرات الحمائم على حبات الحنطة، سقط الكأس والصحن، تكسرا، لكن الحمائم لم تتوقف، نزلت، ملأت المكان، تنافست على حبات القمح، أنهتها في ثوانٍ، تقف "نبْع" أمامه تبتسم، تتجوف غمازتاها بتلك الحفرة الجذابة الرائعة، يندفع من دون وعي يحضنها، يشبعها قبلاً، تدفعه بحركة حبيبة، تستمر في الكلام، تسأله وكأنه لم يقاطعها:

- أريد أن أعرف فقط كيف تشاهد حمامة في أعلى الجو حبة سمسم صغيرة على الأرض؟ أي نظر قوي لدى الحمامة لترى هذا الشيء الدقيق من ذلك البعد الشاهق؟

يبتسم:

- أتريدين أن تعرفي؟ يجذبها من خصرها إليه.

- نعم.

- حتى أنا لا أدري.

تضحك وتضربه على صدره، يعانقها، تنفلت من قبضته، تضحك، تغرد:

- كنت أتوقع ذلك. سؤال لا يجيب عليه سوى مختص.

يتّصل بها كل يوم، وصلتُ ديار بكر، ماردين، غازي عنتاب، قيصرية، أنقرة، اسطنبول، عرعر، حائل، بريدة، الرياض، البصرة، زاخو. الموصل، الزرقاء، عمان، من يصدق؟ تضحك.. تغرد:

- أي معجزة هذا الهاتف النقال؟ يجعلك تعيش مع حبيبك أينما سرت.

- هل انقطع البلبل عن المجيء؟

- لا. طفق يأتي غير مرة في اليوم. كم يفرحني!

يفاجئها بعض الأحيان من دون أن يعلمها بمجيئه، فجرًا، ظهرًا، ليلاً، تهرع حالاً بحيوية عفريت إلى المطبخ، تمنعه من لمسها، عناقها، يمتلئ البيت الصغير بأرومة الفلفل والثوم والكركم وجوز الطيب والقرفة ويسيل لعابه، يقف غير بعيد يراقبها، لسانه يتذوق طعامًا يحفّز رغبات جسد في أقصى حالات ثورته، تخيلات سعادة لا تحدّها أضواء الشمس.

يُركّز أمامه وهو يسوق، لا يجب أن يخطئ، أي حركة تنتهي إلى حادثة تعني حطامًا، موتًا، تعوقًا، جرحًا، أثرًا يمنعه أو يؤخره عن

لقيا "تبْع"، مباهج "تبْع"، سحر "تبْع"، لا.. كل شيء إلا هذا. شاحنته قديمة، جديدة، لكنها أصيلة تعمل، تسير بجد، عندما يرى شاحنة من بعيد، تستعد هي لا هو لمقابلتها، تُصدر صوتًا مكتومًا كأنها شيخ يتنحنح قبل الكلام، حينما كان يرى شاحنة حمراء، صفراء، زرقاء، خضراء، تصعد إلى خلايا مخه المقارنة بين الألوان. أدرك أن للشاحنات ألوانهن كما للنساء ولهن كذلك أخلاقهن، عنفوانهن، حبهن، لا بل إجرامهن، ضربت شاحنة في أرضروم مجموعة سيارات في سوق مزدحم، لم يجد من يتكلم العربية أو الإنكليزية. لم يدر كم عدد القتلى أو الجرحى.

تمضي الأيام، تزوده الشاحنة يومًا بعد يوم بالمعلومات، هي التي علمته معنى الاصطلاح الثاني "الضباب"، في طريق بغداد بصرة، آب الملتهب، تذيب الحرارة الحديد، كان ينقل الزهدي أيضًا، فجأة أثناء غروب الشمس أصبح الكون كله غائمًا، رأى السيارات كلها تتوقف عن السير، تضيء أنوارها، الرطوبة مائة بالمائة، الحرارة فوق الخمسين، مجال الرؤية معدوم كليًّة، ضيق النفس أمر محتوم، الجو لا يطاق، لم تكن شاحنته مكيفة، شيء واحد يجعل التنفس محتملاً هو فتح النوافذ على مصراعيها.

لم يدر كم بقي واقفًا حتى هب هواء ساخن اقتلع الضباب، بدأت السيارات والشاحنات أمامه تسير، سار إثرها، حينما نظر في مرآة السيارة الجانبية كان هناك مئات الأضواء على أشُدِّها خلفه.

أحب الشاحنة بعد "تبْع"، مصير "تبْع" لم يقرره هو، أما الشاحنة فهو الذي قرر مصيرها، أين "تبْع"؟ ما قيمة الوجود كله بعد "تبْع"؟ أهذا ما يسمونه الحب؟ أهو ضحية الوطن أم الحب؟ الآن وهو في المنفى الذي اختاره وتحت يديه ما يحلم به الآخرون ويحتقره هو لم يبقَ في دماغه سوى ذكرى يجترها غير مرة، صور، صور، صور. يحس أن كل شيء تعفّنَ وفي طريقه لينقرض كما لو كانت هناك أرضة تنخر دماغه لتقطع خيوط الذكرى، تُحيلها إلى عدم، لولا البحر ينقذه لانتحر.

صفاء يركض نحوه، يرمي نفسه عليه، يضع رأسه المليء بالرمل على صدره: "جائع". قال حسين:

- الحنفية وراءنا، أزل الرمل من شعرك، اذهب إلى أرنان، قل له ماذا تريد أن تأكل.

قفز صفاء، التفت حسين، رآه ينتظر دوره أمام مرش الماء، ابتسم، يرى العجوز دائمًا في مكانه، لا يغيره، يرخي قبعته المتهرئة على عينيه تفاديًا لأشعة الشمس المحرقة، جالسًا على حافة ستارة فويق الحنفية، الستارة على ارتفاع مترين من رشاش الماء. كم عمره؟ ربما خمسة وسبعون، لكن عينيه متألقتان، ترصدان بدقة أجساد السابحين تحت المرش، ينزل رشاش الماء الخفيف على أجساد المستحمين، يُزيل ماء البحر والرمل، دائمًا يبتسم العجوز ابتسامة خفيفة مفعمة بالسعادة. تقف شابة فارعة

جميلة بيضاء حليبيّة، ذات شعر أسود فحمي، تُنزل حمالة الصدر، يبدو نهداها الصلبان بلون أنصع من باقي جسدها الذي لونته الشمس، تغسل الثديين الممتلئين تحته، تفرك حلمتيها الدكناوين البارزتين، تزيل الرمل من خط التقاء النهد بالجسد من الأسفل، تنهال سعادة لا حد لها على تقاطيع العجوز، تبعد الشابة مثلث البكيني الملون عن وسطها، تلمع في الأعلى نواة تمرة ساطعة نازلة إلى الأسفل، تفركها جيدًا، تغمض عينيها باستمتاع، يسري استمتاعها إلى العجوز، يغمض عينيه، تستدير، يسقط رشاش الماء على ظهرها، تمد يديها إلى الخلف، تنزل البكيني، يسقط الرذاذ على مؤخرتها. تبدو إليتاها ناصعتي البياض، تحرك أصابعها بينهما باتجاه سقوط الماء، يزداد ابتهاج العجوز فوق الستارة، قبل أن تعطي الدور لصديقها، تدفع نهديها عاريين إلى الأمام تحت رشاش الماء، تستنشق الهواء بحبور، ترفع حمالة البكيني الملونة من وسطها إلى مكانها في الخلف والأمام، يدق العجوز قدميه فوق رصيف الشارع بإيقاع مرح.

أضواء حلب المتناثرة من بعيد موسيقى هادئة، تخترقه مع تأنيب شديد، هرب من الحسناء الحلبية قبل بضعة أشهر، رآها على منضدة في مطعم مشهور، هي وامرأة أخرى أكبر منها، فاتنة شقراء متوسطة القامة، ثوب حرير أبيض في نقط صغيرة حمر وبنفسجية، حزام أحمر عريض، شعر ذهبي ينزل حتى الكتفين، لم

تنزل عينيها عنه قط، في النظرة أبواب تفتح، وعود هائلة تسفح، عندما تركز عينيها في عينيه يتزلزل الوجود تحت قدميه، لا مناص من الهرب، لم يكد يخطو خارج المطعم، حتى أحس بيد ناعمة تشد على يده، التفتَ رأى الثانية تدير ظهرها إليهما، قالت له وهي تغمز: "شرف يا جميل". لفّته الحيرة، أي جرأة! أي جمال! أي حلاوة! أي مغناطيس. لم يستطع أن يجد كلمة واحدة يتعلل بها. قال: آسف. سحب يده وهو يكاد يرتجف، ابتعد شبه راكض، ماذا ستفكر؟ أي حكم ستصدر؟ جبان، نصف رجل، سخيف، لتقل ما تقل، لن يستبدل نبْع. تبدو حلب أجمل حينما يخترقها من ضواحيها الحديثة، لا الشعبية الفقيرة الكئيبة، في النهار حينما يتمشى يقصد الشواهد الأثرية، تبهره قطع الرخام الكبيرة في جدران الجوامع والكنائس والبيوت القديمة، تمنى أن يبقى فيها مع "نبْع" بضعة أيام، لكنْ أين له الوقت الكافي؟ رائحة القمرة مقززة بالرغم من إغلاق باب المخبأ، بالرغم من التبريد الهائل، عشعشت فيها رائحة البراز المنفرة، احتفظت أرضيتها بآثار نعال السيد على شكل لطخات خراء جافة في الأمكنة التي وطئها من المخبأ حتى المقعد الأمامي، لم تفد المعطرات التي كانت عنده ولا الرائحة الرشاشة التي زوده بها أبو مازن، كانت ثاني أهم مشكلة عنده بعد تنظيف المخبأ من البراز هي تصريف ما يكفي للطريق، لا أحد يجرؤ على تصريف الدولار في سوريا إلا المصارف الرسمية

والفنادق الجيدة، المصارف مسدودة في تلك الساعة، والفنادق لا تقبل التصريف إلا لمن يقيم فيها، لكنه قرر أن يدخل أول فندق يراه في طريقه، وصل ساحة البرج، مقابل المكتبة الوطنية، صعد نحو ثلاثين درجة ملتوية، واجهه شاب ضخم في طوله لكنه أسمن منه، في نحو الخامسة والثلاثين، يجلس على منضدة صغيرة جدًا. كانت فرحة حسين كبيرة ومفاجئة عندما قبل أن يصرف له مائتي دولار، ثم كتب له على ورقة صغيرة عنوان حمّام شعبي، يبعد نحو خمس عشرة دقيقة، استعان بسائق سيارة أجرة، طلب منه أن يسير أمامه.

واجهة الحمّام واسعة، أعمدة مرمر أبيض ضارب إلى الحمرة، مع قوس من مرمر أسود مطعّم بالأحمر، ثم مدخل عريض، ينتهي بباب عادي، قال حسين للسيد:

- إبقَ في الحمّام لا تتحرك، سأحاول أن أجد محلاً لغسل القمرة، لا يمكننا قضاء ليلة كاملة مع تلك الرائحة.

حدّق به السيد:

- أعطني الحقيبة.

تناول حسين الحقيبة الحمراء، مدّها إليه، هز السيد رأسه:

- لا. ليست هذه.

- الدبلوماسية؟

- نعم؟.

ضحك حسين، أراد أن يقول له أأنت مجنون لكنه صمت، تذكَّر كلام المسخ: "هذا سيكون رجل العراق الأول بعد التخلص من الطاغية"، كان يتذكَّر ذلك كلما نظر إليه، حتى وهو يسمع صليات الرياح المتدفقة من قفاه، وهو يتمزق أمام المفتش السوري، يؤنبه، يهينه، يزدري به، يتذكرها كلما مدَّ بوزه وغيَّر من طبيعة صوته.

أنبه حسين مازحًا: لتنساها؟

- لا. لنْ أنساها.

ولما لحظ إصراره على أخذ الحقيبة قال بصلابة وبهدوء:

- لا. لن تفعل، لنْ تُدخلها معك إلى حوض الماء حينما تتحمم، ستتركها في قسم الأمانات، من يدري ماذا يحدث لها؟ إن فتحوها وسرقوا النقود أو الأوراق التي فيها كيف ستثبت أنها لك وأنت لم تدخل البلد بصورة شرعية؟ لا تملك جوازًا عليه ختم الدخول! أنت قانونًا متسلل، يعني في لغة ما مخرب، المخبأ آمن لك ولأوراقك.

ضحك السيد ضحكة قصيرة، مد بوزه إلى الأمام، ثم اجتلب صوته المفتعل مرة أخرى:

- لا عليك. أردت أن أجس حذرك، لو أعطيتها لي ما أخذتها.

فكَّر حسين وهو يتابعه، هل كان يمتحنه حقًا! أم تصرف بحمق وفتَّش عن ذريعة! أم لم يستأمنه على ما فيها؟ بعد بضع خطوات توقف، اندفع راكضًا نحو حسين، كان هذا يهم بالصعود إلى الشاحنة لكنه توقف، سأله:

- ما بك؟.

وقف السيّد يلهث، قال بلهجة من يستغيث وهو يعود إلى صوته الحقيقي الطفولي الخالي من الرجولة:

- أرجوك. أرجوك انتظرني هنا، لا تذهب إلى أي مكان، أو تعال استحم معي.

توقف حسين برهة، فكّر، لماذا يخاف من دخول الحمام وحده؟ لماذا يخاف أن لا يتركه وحده؟ ما باله متذبذب لا يستقر على حال؟ أهذا من سيحكم العراق؟ ترى ما الدول التي يريد أن يثبت صدقه لها؟ والتي "ستساعدنا في إسقاط الطاغية"؟ حدّق بوجهه برهة:

- لا أستطيع ترك الشاحنة في الشارع، سأبقى جالسًا هنا وراء المقود.

- شكرًا جزيلاً. لنْ أنسى ما فعلت!

قال ذلك وتوجه إلى الحمّام وبيده حقيبته الحمراء، رجع حسين إلى قمرة الشاحنة، أقفل التبريد، فتح الشبابيك ليبعد الرائحة، أضواء الشوارع مغرية للتجول لكنه أحس بالتعب، أغمض عينيه. لماذا يحس أن مشاكل الدنيا كلها فوق كتفيه؟ لو لم تكن هذه المهمة الخطرة في عنقه لبحث عن مشرب جميل، مقهى جيد، حتى لو ملهى ليفرغ همومه فيه، لذهب إلى المطعم الذي التقى الحسناء فيه لعلها تأتي، سيكتفي بالثرثرة معها، لكنْ متى يتأتى له ذلك؟

ربما حينما يستطيع الانفكاك من هذه العصابة، حينئذٍ سيهرب مع "تبغ" إلى أي مكان في العالم، سيعيشان في أمان.

أحس بطرقات على الباب، فزّ من نومه، فتح عينيه، رأى السيد مورد الخدين، تلمع عيناه، أشار إليه أن يصعد من الباب الآخر، قال السيد راجعًا إلى صوته المفتعل:

- شكرًا. الحمّام رائع، تمنيتك معي.

- شكرًا. ربما أدخله في المستقبل، لكن المهمة الكبرى لنا الآن أن ننظف الشاحنة.

- هل عندك فكرة؟

- نعم. أوقف حسين الشاحنة في زاوية تقاطع مزدحم: ابقَ هنا، لا تنزل.

لحسن الحظ سيارات الأجرة صفراء اللون، لا تخطئها العين حتى في الليل، أشار إلى أول سائق أجرة، مدَّ حسين رأسه من شباك السيارة وقال: "مرحبا خيّو". بدا السائق متعبًا، نظر إليه بعينين كابيتين، حدس أنه في طريقه إلى بيته ليرتاح بعد يوم عمل مضنٍ:

- خيّو. أعطيك خمسة آلاف ليرة إن مددتني بأنبوب ماء أغسل فيه قمرة شاحنتي. أشار إلى الشاحنة ثم أضاف: لنْ تستغرق العملية أكثر من ربع ساعة.

السائق متوسط القامة في الخمسينات، شارب كث أشمط، في رأسه صلعة واضحة:

– من أين آتيك بالأنبوب؟
– من بيتك.
– آسف. بيتي في زقاق ضيق لا تدخله الشاحنة.
قال ذلك وانطلق مسرعًا، أدرك حسين أنه لا يجد شخصًا يساعده لينظف السيارة، قرر أن ينتظر ربع ساعة، إن لم يجد فسيذهب إلى "جراج" الشاحنات في ضواحي حلب، يوقف الشاحنة، ثم يفرش بطانيات على الأرض ويقضي ليلته هو والسيد كيفما اتفق، لابد أن يجد في الساحة صباحًا من يزوده بأنبوب لقاء إكرامية سخية. آنذاك اقتحمت فكره "نبْع"، تُرى كيف تقضي ليلتها عند أهلها؟ في السنة القادمة تتخرج في الجامعة، هل تقضي وقتها بالتحضير؟ أم تشاهد المسلسلات المصرية والسورية؟ كان يفكر وهو يشير إلى سيارات الأجرة، الساحة مزدحمة بسيارات تسير بسرعة لا يتوقعها، بالرغم من تجاوز الوقت التاسعة ليلاً. بعد مرور نحو خمس دقائق توقفت سيارة أجرة قربه، انحنى حسين، رأى السائق نفسه، وجده يبتسم، عيناه تلمعان:
– تفضل خيّو. سأذهب بك إلى بيت حماتي، غير بعيد، الدار في شارع عريض، أستطيع إيجاد شاب يغسل السيارة لك، لكنْ أعطني ستة آلاف ليرة لأعطي حماتي ألفًا.
– لا مانع على شرط أن أغسلها بنفسي، زوجتي فيها، لا أريد لأي كان أن يراها حينما يغسل سيارتي، هل فهمت؟

- فهمت خيّو. لا تزعل، احتراماتي لك وللسيدة زوجتك.
قال للسيد وهو يتبع سيارة الأجرة:
- سأجللك بالبطانية، قلتُ إنك زوجتي كي لا يراك أحد.
- لماذا؟
- للتمويه. سوريا كالعراق بين مخبر ومخبر عشرة مخبرين.
- أمري لله.

* * *

الثامنة صباحًا وعشرين دقيقة، انتهى التفتيش في الحدود التركية، ابتسم حسين والسعادة تملأ صدره، جلس في مكانه، اتكأ رأسه على عجلة القيادة، أغمض عينيه ردَّد بآلية ومن دون شعور: "الحمد لله. الحمد لله. الحمد لله"، لم يدر كم بقي على هذه الحالة! وإذ أحس بأعصابه ترتخي، بعقله ينفض عنه الخوف والمخاطر والقلق، فتح باب المخبأ، قال للسيد:
- تهانينا، وصلنا أخيرًا.
- توقف أمام أقرب تليفون عمومي لنتصل بأبي مازن.
فوجئ حسين بالصوت، ظل جامدًا في مكانه، صوتٌ عالٍ آمر فظّ متصنع مليء بهيمنة مفتعلة مدروسة يفرضها في كل كلمة، أهو السيد نفسه؟ لم يصدق سمعه وبصره، حدَّق فيه، هل ما يحدث حقيقة؟ ظل واقفًا في مكانه لم يتحرك وهو ينظر إليه مصعوقًا، عاد صوت السيّد آمرًا: "هيّا"، ابتسم حسين، تغيَّر مائة بالمائة، كاد

يضحك، لكنه سيطر على نفسه، أبهذه السرعة استعاد السيد ثقته بنفسه! بدا مختلفًا تمام الاختلاف عن ذلك الشخص مكسور العينين متسربلاً بالخجل والخزي ملوثًا ببرازه، أو ذاك المتداعي الذي يضرب رأسه براحتيه ويبكي عندما فقد الحقيبة، أو الخائف الذي يتوسل به عندما دخل الحمام: أرجوك انتظرني هنا لا تذهب إلى أي مكان، أو تعال استحمّ معي. أين اختفت كلمة رجاءً، أو أرجوك اللتين كانتا تترددان قبل أي جملة؟ أمامه رجل لا يعرف غير السيطرة والأوامر والنهي!

صندوق الهاتف الزجاجي محكم إن أغلق، لا يسرب أي كلمة، أدار حسين ظهره إلى الصندوق، لكنه سمع طرقات بعد بضع لحظات، استدر، رأى السيّد يستدعيه، يفتح باب الصندوق، يناوله سماعة الهاتف، صوت أبي مازن يرحب به، يقول له أن يتجه إلى فندق تراقيا على الطريق العام، على بُعد خمسة كيلومترات من الحدود السورية التركية في الإسكندرونة، سيرى اللافتة مكتوبة باللغات الثلاث: التركية والإنكليزية والعربية، إدارة الفندق ستستقبلهما بالترحاب، لنْ يطالبوهما بإبراز جوازي سفرهما، سأل حسين أبا مازن ماذا سيفعلان في الفندق؟ قال له:

– انتظر حتى أحضر أنا وجماعتي لنستقبل السيد.

كان السيد ينتظر خارج صندوق الهاتف، مرفوع الهامة مستعيدًا شخصيته النافذة، قال بلهجة جافة: "النسر"، ازداد امتعاض حسين

لتغيره، بدت بعد بضعة كيلومترات سبعة أعلام عالية ترفرف، اقترب منها، أعلام تركيا، الولايات المتحدة، بريطانيا، ألمانيا، فرنسا الخ. تكلم السيد مع فتاة الاستعلامات الشابة الأنيقة النحيفة بالإنكليزية قال لها:

- أنا موسى الأمغر، عندي حجز هنا.

ارتج على حسين، أول مرة يسمع فيها الاسم، ترى أي حزب سري يقوده؟ عندئذ لاح له سؤال في الأفق: هل كنت ستخدمه لو عرفت طبيعة أخلاقه وتقلباته؟ لم يستطع الإجابة. نظر إلى الشابة النحيفة وهي تراجع الأوراق، رفعتْ عينيها الواسعتين النجلاوين الجميلتين، قالتْ لموسى وهي تدفع نحوه ورقة وقلمًا:

- رجاءً أكتب اسمك.

كتبه بأحرف لاتينية واضحة، أمسكت الهاتف، اتصلت بشخص ما، ثم نظرت إليه وهي تشير نحو مجموعة مناضد وكراس إلى جانب خوان مليء بمعروضات إفطار متنوعة من الكيك والكعك والفطائر، محمصة مشهية مع زبد وجبن ومربى متنوع: هناك.

اتجه السيد إلى حيث أشارت، جلس حسين لكن السيد ذهب إلى حيث الفطائر المعروضة، طلب من الكهلة السمراء المشرفة بضعة أنواع، ثم جلس إلى منضدة أخرى ملاصقة لمنضدة حسين وعيناه متعلقتان بشوق إلى يدي الكهلة وهي تضع ما طلبه في صينية

كبيرة أمامه مع إنائي قهوة وحليب، قبل أن تغادر سألت بالإنكليزية:

- أهناك شيء آخر؟.

- نعم. هاتي عصير برتقال.

عندما غادرته ناداها، قال لها:

- رأيت كلمة "جباتي"، هل هي الفطائر الهندية؟

- نعم.

- هاتي أربعًا منها. التفت إلى حيث يجلس حسين، إنها أطيب فطائر، أشبه بـــ"الكاهي" العراقي مع القيمر.

كان الجوع يقرص معدة حسين، منذ ساعات وهو يحلم بالوصول إلى أي مطعم في أول استراحة، وكان ذلك يشعره بالألم حدّ الجنون، لكنه عندما رأى موسى يأكل بشراهته المعهودة قفز إلى ذهنه كيف كان يمص عظام "الباجة" ثم يمص أصابعه، كيف كان يزدرد البمبارات، يلتهم الكيبايات، كيف اندفعت من مؤخرته القنابل التي كادت أن تؤدي بهما، كيف امتلأ المخبأ بالبراز وعشعشت فيه الرائحة المقرفة! كيف تقزز من كل قلبه وهو يغسل المخبأ. ويحكّ القطع المتجمّدة واللاصقة به وهو يكاد يتقيأ. تذكّر كل ذلك فاندفعت حموضة معدته الخاوية لتحرق لسانه وفمه، أسرع نحو المرافق، تمضمض، تنفس بعمق، غسل وجهه، خاطب نفسه: تخلص من كل ذلك، إنسه. رجع أخذ يشرب القهوة بالحليب ويحدق بجدران

الفندق المليئة بلوحات حديثة بهيجة الألوان، متجنبًا النظر إلى السيد وطريقة أكله النهمة، عندئذ أحس بأنه عاد إلى نفسه.

بعد نحو عشر دقائق نادت موظفة الاستعلامات على موسى الأمغر، نهض وهو ما يزال يأكل، وقبل أن يغادر أخذ معه معجنة فرنسية كراسون" وطفق يأكلها وهو يمشي. اقترب من الاستعلامات، ناولته الشابة بطاقة فتح الباب، رجع وقال لحسين وهو ما يزال يأكل ويتعمد إخراج صوته المصطنع وبفظاظة قوية:

- تستطيع أن تذهب.

- إلى أين؟

- إلى اسطنبول.

سأل حسين بهدوء وهو يبتسم:

- وحدي.

- نعم.

ابتسم حسين:

- لا. لن أذهب إلا وأنت معي.

نفخ السيد صدره، احتجّ بتركيز وبصوت واطئ:

- أتعصي أوامري؟.

حاول حسين أن يكون هادئًا ومؤدّبًا إلى أقصى حد:

- سيد موسى. انظر في عيني، أنت أمانة لدي، عليَّ أن أوصلك إلى السيد أبي مازن، لن أتركك لحظة واحدة وحدك.

- لكني أريد أن أرتاح.

- لماذا لا ترتاح؟.

- وحدي في غرفة خاصة بي.

- لا. وحدك في غرفة لا، لا أدري من يأتي، لا أعرف ماذا سيحدث لك، لا أثق بالظروف، اتصلْ بأبي مازن، إن قال لي أن أتركك وحدك فسأفعل، وإلا فسأبقى ملازمًا لك حتى يجيء.

نهض السيد بشكل مفاجئ غاضبًا، ذهب إلى الاستعلامات، طلب أن يتكلم مع أبي مازن، بعد دقائق رأى السيد يشير له، اقترب منه، سلمه سماعة الهاتف، جاء صوت أبي مازن:

- سنصل بعد ساعات قليلة من اسطنبول. لا حاجة للبقاء معه في الغرفة نفسها، بل كل منكما في غرفة.

قال حسين بهدوء وهو يواجه السيد:

- هناك عواقب مهمة تترتب على ترك السيد موسى وحده.

- ماذا تقصد؟

- أقصد سلامته.

- هل لاحظت شيئًا.

- نعم.

- ما هو؟

- أغمي عليه في الطريق حتى ظننت أنه مات، أخشى أن يغمى عليه ثانية وهو وحده، ولنْ يجد من يسعفه.

- هل أنت متأكد؟

- سله.

- حسنًا أعطني إياه.

كان السيّد قد ابتعد، وصل إلى المنضدة التي كان يأكل عليها، ناداه حسين، أشار إلى الهاتف، نهض متثاقلاً، تناول فطيرة هندية أخرى، لفّها بمحرمة ورقية، أخذ سماعة الهاتف، لم يدرِ ماذا سأله أبو مازن، لكنه سمع الأمغر يقول "نعم. نعم"، ثم ابتسم ابتسامة خذول، بعد بضع ثوانٍ أعاد إليه سماعة الهاتف، جاء صوت أبي مازن:

- أنت على حق، ابقَ معه في الغرفة نفسها، لا تتركه حتى نأتي.

لم ينظر إليه ليرى ذل الخضوع على ملامحه، سار خلفه، دخلا الغرفة، قال له:

- اعطني البطاقة، أريد أن أجلب حقيبتك الدبلوماسية، وحقيبة ملابسك، وأطمئن إلى الشاحنة.

عندما عاد حسين وبيده الحقيبة الدبلوماسية، مع عامل الفندق الذي كان يحمل حقائبهما وجده في الحمّام، جالت عيناه في الغرفة، سريرٌ واحد عريض، لوحتان عن شوارع اسطنبول في العهد العثماني، ستارة واسعة خلف السرير، منضدة زجاج أمامها كرسي، منضدة أخرى صغيرة قرب أريكة طويلة، وضع حسين الحقيبة الدبلوماسية قرب السرير الكبير، ثم تمدد على ظهره فوق

الأريكة، شعر بأن أعصابه تحتاج إلى خلوة وأنس أيام لكي تهدأ، أغمض عينيه، راح في إغفاءة عميقة، لم يحس متى خرج السيد من الحمام، لكنه استيقظ على صوت الهاتف.

فتح عينيه، استعاد ذهنه صفاءه، أحس بقدرته على الحركة والنشاط الطبيعيين، جاءه شخير السيد قويًا، نظر إليه لم يرَ سوى كتلة من اللحم مغطاة بـ"شرشف" أبيض، وجهه نحو الجهة الأخرى، استمرَ الهاتف يرن، صمم أن ينهض ويرفعه إن لم يفق السيد لكن هذا انقلب فجأة، أخذ السماعة وقال: "هالووو"، أطال بوزه، أطال الكلمة أيضًا. سكت لحظة ثم قال:

– ألا تستطيعون تأخيرنا بضع ساعات، كانت الرحلة متعبة جدًا، ثم توقف ثوانٍ بعدئذ سمعه يقول: حسنًا سننزل الآن، أحس أني جائع.

نظر حسين إلى ساعته رآها تشير إلى الثانية عشرة والنصف، ابتسم، هذا إذن سر الصفاء الذهني والنشاط، كيف مرت أربع ساعات كاملة بلمح البصر؟ قرص الجوع الآن معدته بشدة. تذكر أيام رمضان، سيأكل الآن حتى يشبع، سيجبر نفسه على أن لا يفكر بالسيد وما لطخ به نفسه أثناء السفر، وكيف أكل في الطريق.

ذهب إلى الحمام قضى حاجته، غسل وجهه، عندما خرج رأى السيد يستعد لدخول الحمام قال له:

- سأنزل أنا وتعال أنت متى شئت، لا تنسَ الحقيبة الدبلوماسية.

شعر حسين بأن السيد لم يرضَ عن عبارته الأخيرة، لم يشعر بالقلق لذلك، ليكن ما يكن! مد يده ليفتح الباب لكنه سمع السيد يناديه، كان دخل الحمام، لكنه أبقى الباب مواربًا، رآه واقفًا على بعد قدم من الباب، رأى ملامحه تغيَّرت، ابتسامة واسعة، عينان فرحتان تلمعان، قال بصوته الطبيعي الرقيق، من دون أن يمد بوزه:

- عندي طلب. أرجو أن توافق عليه.

- ما هو؟

وضع راحة يده على كتف حسين وربت عليه، قال بتحبب:

- أن لا تذكر أي شيء حدث في الطريق لأي كان.

ابتسم حسين:

- هل خبرتني من هذا النوع؟

- معاذ الله. ثم أضاف بنفس باللهجة نفسها: رجل حقيقي.

- حسن ظنك.

في قاعة الطعام الأرضية استقبله أبو مازن ورفاقه الثلاث بالعناق والقبل، قال لهم:

- لم آكل شيئًا منذ البارحة.

- لماذا؟

- من الخوف.

أخذوا يضحكون، ابتسم حسين:

- السيد مكرش، عندما يدخل المخبأ عليَّ أن أضغط الباب قليلاً، أخشى عليه أن يتأذى، أبقى على أعصابي إلى أن ينتهي التفتيش.

استأنفوا ضحكهم مرة أخرى، رائحة الطعام تملأ الطابق الأرضي كله، بضعة أشخاص، سيدة محجبة معها رجل، عائلة من زوجين وطفلة جميلة شقراء بعمر ثلاث سنوات، قال أبو مازن:

- هيا. أنا أيضًا جوعان.

تقدموا جميعًا نحو منضدة عرض الطعام الطويلة، أخذوا ينتقون ما يريدون، قال أبو مازن وهو يهمس لحسين:

- متى تكون مستعدًا لوجبة أخرى.

هز حسين رأسه:

- لا وجبة أخرى بعد اليوم.

قهقه أبو مازن:

- تمزح.

- لا. لا أمزح.

- لماذا؟

- لأن العملية كلها غير منظمة، تحتاج إلى إعداد وتفكير.

- كيف؟

كان حسين يتكلم وهو يسير نحو المنضدة ليجلس، التفت أبو مازن نحو مرافقيه، أشار إليهم بيده أن يبتعدوا، جلس إلى جانب حسين واضعًا صحنه أمامه أيضًا، في تلك اللحظة جاء السيد منتصب القامة، مرفوع الرأس، بيده حقيبته الدبلوماسية، وما إن رآه أبو مازن حتى أرجع الملعقة مع ما كان فيها من طعام إلى صحنه. أسرع يتلقاه بالأحضان والقبل، فعل مثله الباقون، في الطابق الأرضي بضعة أحواض أسماك مرجانية حمراء، زرقاء، بنفسجية، ذهبية، عادية وغريبة جدًا، قسم منها نادر جميل إلى حد بعيد. وقف حسين يتفرج ويأكل بهدوء، ثم سمع بعد بضع دقائق أبا مازن يناديه، رجع، جلس قربه، كان السيد ثالثهما، بدا أبو مازن قلقًا مضطربًا، قال بجد:

- حسين كثير المزاح. ألقى نكتة قبل أن تأتي.

- حسين لا ينكّت، جاد دائمًا.

- لكنه غيَّر من طبعه الآن.

- ما هي نكتته؟

- يريد أن يتوقف.

- حقًا إنها نكتة.

ضحك السيّد، ثم استأنف الأكل. التفت أبو مازن إلى حسين:

- أعد ما قلتَ.

- قله أنت.

قال السيد:

- هل قلتَ له كم كنا نبحث عن شخص أمين قوي متمكن؟

- لا.

حدَّق السيد بحسين وهو يملأ فمه من الدّولمة، انتظر الاثنان بضع ثوانٍ حتى يمضغ اللقمة ويبتلعها:

- إذن أخبره بصراحة. أصبح واحدًا منا.

همس أبو مازن:

- منذ حرب الكويت لم نعثر على مثيل لك في قوتك وأمانتك وذكائك، لا لنْ نتركك تفلت منا.

ضحك بقوة أثارت ضحك مرافقيه وهم على بعد عدة مناضد، حدَّق حسين بالطفلة الشقراء، رآها تحاول أن تشك زيتونة سوداء بالشوكة، لم تستطع، حاولت عدة مرات، أخيرًا أمسكت الزيتونة بأصابعها وأدخلتها بالشوكة ثم وضعتها في فمها بسعادة من يحقق نصرًا، ابتسم حسين لها، كانت تجلس أمامه، كشرت لوَّحت له بيدها الصغيرة، قال:

- ستجدون أفضل مني.

- مستحيل.

- إن استمررتم هكذا ستفقدونني، ستفقدون رؤوسكم، ستفقدون الشاحنة، ستهدمون الهيكل كله على من فيه.

- لماذا؟

حدّق حسين في عيني أبي مازن:

- أتعرف أن شعرة خفيفة كانت بينهم وبين اكتشاف السيد!

أكد السيد بحماس:

- هذا صحيح، تمرضت، فقدت وعيي.

- لماذا لم يكتشفوه إذًا؟

- لأني أقنعتهم بحجج كاذبة.

ابتسم أبو مازن:

- أرأيت؟ غيرك لا يستطيع إقناعهم، لا يتوافر على مواهبك. لا يتمالك نفسه، ينفضح، يكشف العملية.

تساءل حسين:

- أتعرف كم عمري؟

- عشرون؟

- ثلاث وعشرون سنة.

- لماذا؟ ما دخل العمر؟

- كلكم تمتعتم بالحياة أكثر مني. وتريدون تدميري!

- لا. نريدك سالمًا.

ضحك حسين بمرارة:

- كيف تخطط لهذه الأمور وأنت لا تعرف المخاطر؟

تدخّل السيد:

- حسين على حق، التخطيط فاشل، كنا سننكشف.

ثم حدّق بأبي مازن، لوّح بالشوكة الملوثة بالبيض أمام أبي مازن:

– نعم. كان سيقضي علينا كلانا.

زفر أبو مازن:

– حسنًا. دعونا نعرف موطن الخلل ونناقشه.

نهض حسين، فأمسك بيده أبو مازن:

– ماذا تريد؟

– استكان شاي.

– ابقَ. أحد الأولاد سيأتي به.

صدمته كلمة الأولاد، كلهم كانوا أكبر منه، أهو ولد في نظر أبي مازن؟ التفت هذا، أشار إلى زيد:

– هات لنا شايًا.

ثم نظر إلى حسين:

– تفضل.

– النقطة الأولى. يجب أن تمر البضاعة عبر سوريا بأمان مطلق.

ضحك السيد بقوة وهو يأكل، تناثر رذاذ من فمه مع فتات من الطعام على إستكانة الشاي، قال:

– يعني أنا بضاعة؟

– العفو. لم أرد أنْ...

قاطع السيد:

– لا بأس. كنتُ أمزح.

نظر حسين إلى الشاي، اشمئز، لاحظ أبو مازن نظرة حسين، أشار إلى زيد وعندما جاء قال له:

– أبدل الشاي بآخر جديد. ثم نظر إلى حسين، أكمل رجاءً.

– بضاعة لا تكلف ثلاثمائة دولار أدفع رشوة لها خمسمائة دولار، أي مجنون يعقل ذلك؟

– لماذا تدفع؟ لا تدفع شيئًا.

ضحك حسين، نظر إلى السيد، قال هذا بجد واستنكار:

– يعني أفطس في المخبأ، أهذا ما تقصد؟.

ابتسم أبو مازن باهتمام:

– سلامتك سيدي.

– نعم. هذا معنى كلامك، كنت أتوقع أن يعطيه ألفًا، ألفي دولار.

رشف حسين من شايه، استطاعت الطفلة أن تشك زيتونة أخرى، نظرت إليه فرحة بانتصارها الثاني، ابتسم، ابتسمت، لوّحت بيدها ثانية، رأى أبواها حركتها، لم يلتفتا نحوه، قال:

– إن لم أدفع نبقى يومين إلى أربعة أيام في حر يذيب الحديد، كنت أود لو أدفع خمسة آلاف لننجو من سوريا، لكنْ إن كانت البضاعة تافهة لا قيمة لها كبضاعتنا، فلاشك أننا سنقودهم لاتهامنا بأيدينا، هم مرتشون لا ريب في ذلك، لكن أن تعتبرهم أغبياء فنحاول استغفالهم، لا، لا يضع الناس عقولهم في قفص مغلق.

هز أبو مازن رأسه:

- أنت على حق في هذا؟

قال السيد:

- فاطمة الزهراء وحدها سترت علينا وإلا كُنّا كلانا في السجن.

تساءل حسين:

- أتعلم ما معنى سجين في سوريا؟

- أعلم.

- حسنًا حدثنا عنه ليأخذ السيد فكرة.

- أول شيء يغتصبون السجين مرات ومرات حتى يذلونه أتعس إذلال، يفقدونه أي شعور بالرجولة والشرف، ثم يعذبونه حتى يفقدونه أحد أعضائه، يجوعونه حتى يصاب بالسل، يقطعون ذكره أو يخصونه، يضربونه على رأسه حتى يفقد وعيه أو يصاب بخلل في المخ، يشربونه الملح مركزًا حتى يصاب بضغط الدم، يسقونه الزيت يوميًا حتى يصاب بتصلب بالشرايين والسكتة القلبية، عندنا قائمة بأنوع التعذيب في كل دولة، أتعس الدول في العالم كله بالتّعذيب سوريا وإيران والع...

فتح السيد عينيه باستنكار، هتف مقاطعًا بقوة:

- لكن في إيران عندهم حق مهما يفعلوا بأعداء الثورة الإسلامية.

تدارك أبو مازن بابتسامة وهزة رأس:

- نعم، عندهم حق هذا لا شك فيه، لكني أتكلم كخطٍ عام.

حدَّق حسين به بتركيز وهو يُصر على كلماته:

- كيف إذًا تلقون بي وأنا في هذا العمر في هذا المستنقع؟ ثم أشار إلى السيد، ومعي السيد وهو في أخطر مهمة عراقية في هذا القرن.

أحس أنه استعمل عبارة ذات وزن، أعجبته كلمة قرن، تُرى متى قرأها آخر مرة، متى سمع بها لتطفر على لسانه هكذا وفي مكانها؟ متى؟ آه. حفيد العجوز ذكرها، قال السيد منفعلاً وهو يدق على المنضدة ويأكل بحيث لفت انتباه الموائد القريبة و"الأولاد" فتوقفوا عن الأكل، نظروا جميعهم إليه، ثم انتبه على نفسه، بدَّل سحنته، ابتسم وقال بصوتٍ خافت جدًا:

- حسين على حق، هكذا تلقون بي في أحضان الموت بدون اهتمام وتنسفون الجسر ونحن نعبره؟

أكمل حسين:

- لا يهمني أن أموت، لكن أن أسجن في سجن كهذا لا، الموت أرحم.

فكَّر أبو مازن طويلاً ثم أشار إلى مرافقيه:

- انظر إليهم، كلهم كانت لهم رحلات عبر سوريا والأردن، لكننا ما إن نشك أن واحدًا منهم سيتعرض للأذى نستبقيه معنا، لا ندعه ينكشف. ثم نظر إليه باهتمام وتركيز، قل لي ماذا تقترح!

- قلتُ لك لن أقوم بأي مغامرة بعد الآن.

مد السيد بوزه:

- حقك.

ابتسم أبو مازن:

- لا للمغامرة، نعم لقضية مدروسة!

- حتى مدروسة لا، أتعبتموني.

- لا يمكن أن تتخلى عنا، ليس لك مثيل، لم أتعامل مع أحد أذكى منك، والعمل في هذه المهنة يحتاج إلى ذكاء.

تدخل السيد نظر إلى عيني حسين، عاد إلى صوته المصطنع بمد البوز، همس:

- قل لهم شروطك ينفذونها، أما أن تنسحب في هذه اللحظة، فتضعنا في موقف محرج، أتعرف أين سأذهب؟

قال حسين محبطًا:

- لا.

- سأذهب إلى لندن ومن هناك نكوّن وفدًا إلى واشنطن، سنمد الإدارة الأمريكية بوثائق تُثبت أن الطاغية يمتلك أسلحة دمار شامل، سيغزون العراق، أرأيت؟ سيكون عملاً تاريخيًا، لم يحدث مثله من قبل إلا مرتين، الأولى عند سقوط بابل بيد كورش العظيم، والثانية حين حرر هولاكو بغداد من الظلم. قلتُ لك كل شيء لتصبح واحدًا منا، إن انسحبت الآن فسيعني أنك تُريد كشفنا، يعني

أنك تخطط لإجهاض حركتنا، لموتنا، أتظن أننا لا ندافع عن أنفسنا؟ أرأيت؟

لم تكن لهجته تهديدًا قط، كان يبتسم ويتكلم كأنه يروي نكتة مرحة، ابتسم أبو مازن:

– هل سمعت المثل المصري "دخول الحمَّام مش زي الخروج منه!".

فجأة ارتسمت أمامه كلمات خاله "أي خطأ يتخلصون منك برمشة عين، يضيعونك كما يلقون عقب سيجارة في نهر جارف". عاد أبو مازن يهمس كي لا يسمع أحد ما يقوله غير السيد وحسين:

– لكنْ ثق أننا نريد خيرك ولا نريد الإضرار بك، سندعك تفكّر قبل أي عملية. تُغيِّر ما شئت فيها، سنكرمك. التفت إلى السيد، كم نكرمه؟.

حرك السيد يده حركة تعني النصف، فتساءل حسين في داخله ما معنى النصف؟ همس أبو مازن:

– انظر، يقول نصف مليون دولار، ماذا تريد أكثر؟

قال السيد بنفس الطبقة الخافتة من الصوت:

– تتسلمها هنا في تركيا اليوم، تضعها في أي مصرف شئت من دون تدخلنا، وأي عملية أخرى تُضاعف المبلغ حسب رغبتك، وإن أردت مبلغًا معينًا اذكره.

أضاف أبو مازن:

- لكنْ أن تتركنا بعد أن عرفت أسرارنا فلا، أطلبْ ما تشاء.

فكَّر حسين وهو ينظر إلى محدثيه محاولاً الوصول إلى طريق يقوده إلى شاطئ الأمان، بينما كانت عينا السيد نصف مغلقتين، تنظران نحو الأسفل، أما عينا أبي مازن فكانتا تحدقان به باهتمام وتركيز، قال:

- لا يهمُّني المال بقدر ما تهمني السلامة والراحة، أريد شهرين أقضيهما مع عائلتي كل مرة أصل العراق، ولا يهمني كم يومًا أبقى هنا.

فتح السيد عينيه بذعر، نظر إلى أبي مازن، قال هذا:

- شهران كثيران، نحن في معركة مع الزمن، هناك من يجب أن يدخل العراق ليهيئ لجان تصفية قيادة العدو، ليسند الجيوش المحررة ليحميَ خطوطها الخلفية، لينظم الفرق الضاربة، وهناك من يجب أن يخرج من العراق ليستشير القيادات في الخارج ويُكمل المفاوضات مع الدول الحليفة، لا يوجد غيرك، كان عندنا العشرات، لكنهم اعتقلوا وانتهوا لغبائهم، في العراق وسوريا، صفوا مع كثير من الأبرياء من أقاربهم و...

قاطع حسين بحدة:

- إن كنتم تعرفون أخطار سوريا فلماذا لم تحذروني؟.

ضحك السيد ضحكة قصيرة جدًا كأنه ندم عليها:

- أي تحذير لك قبل المباشرة يقلقك، يجعلك تضطرب، يفتُّ من عضدك، يضعفك، أما الآن وقد خبرت الطريق وأصبح مألوفا عندك، فاطلاعك على المخاطر ضروري لسلامتك وسيرورة التطورات.

- كم رحلة؟

- لا نستطيع أن نقرر الآن لكن ليس أكثر من رحلة أو رحلتين في الشهر، ربما تصل إلى رحلة في شهرين، لكن لا نستطيع الآن أن نبت بها أو أن نعرف متى تتم! لا ندري.

فكر حسين برهة ثم تساءل:

- هل لي أن أتدخل في نوعية الحمولة والطريق؟

- ماذا تقصد بنوعية الحمولة؟

- حمولة كهذه. تثير الشك في جدوى نقلها؟

- نعم من ناحية نوع الحمولة، أما من ستهرب فلا.

- والطريق؟

- ماذا عنه؟

- لن أذهب عن طريق بغداد حلب قط، إلا إن كنت مطمئنًا مائة بالمائة، بل مرة عن طريق بغداد دمشق، أو بغداد عمان، أو بغداد زاخو.

- وماذا عن كلاب الأمريكان في شمال العراق؟

- أثبتت الرائحة فعاليتها.

هز السيد رأسه:

- لك ذلك.

فكّر حسين برهة ثم تساءل:

- لكني لا أريد أن أقضي عمري كله في عملٍ يتهددني فيه الموت لحظة بعد لحظة، أريد أن أستمتع بالحياة.

قهقه أبو مازن من كل قلبه بينما ابتسم السيّد بمرح، سأل:

- عمرك كله؟

- نعم.

قال السيد مؤكدًا:

- نحن الآن في تموز ٢٠٠٢، في نيسان ٢٠٠٣ أي بعد تسعة أشهر فقط سينتهي كل شيء، سنتسلم السلطة، سينتهي الصنم، يعني أنك لن تقوم بأكثر من ثماني عشرة رحلة أخرى.

هتف حسين من دون شعور:

- كم؟

- ثماني عشرة رحلة.

- لا. لا أوافق، ثماني عشرة رحلة كثيرة، مستحيل، هذا يعني أنني أموت ثماني عشرة مرة طيلة أسبوع كامل، لا أريد النقود، قال ذلك ثم نظر في عيني أبي مازن بتحدٍ، اقتلوني، خذوا الشاحنة أو أرجع لكم كل ما أعطيتموني إلى حد الفلس، واتركوني أعيش حياتي.

نظر أبو مازن إلى السيد باهتمام ثم قال لحسين:

- هل تسمح؟ دعني أتكلم مع السيد بضع كلمات على انفراد.

احتج السيد بغضب:

- تكلم. لا حاجة لنا لننفرد عنه، إنه يعرف الكثير الكثير، دعه يسمع، أصبح واحدًا منا، سنعطيه عضوية الحزب إن أراد.

قال أبو مازن كمن يعاني من احتدام تناقضات كثيرة ويضطر إلى غربلتها بحساسية عميقة:

- لنترك مشكلة تهريب الشخصيات المهمة فقط لحسين وحده، أما الشخصيات الثانوية فمن طرق أخرى.

ابتسم السيد ابتسامة ملأت وجهه:

- هذا اقتراح عملي. ثم نظر إلى حسين منطلقًا بشوشًا ومد بوزه مُضاعفًا التركيز على تضخيم صوته اصطناعيًا، أتدري كم رحلة ستقوم بها؟

- لا.

أجاب حسين، نكّس السيد رأسه، أغمض عينيه، ثم أخذ يحسب بأصابعه، بعد ذلك رفع رأسه:

- يعني أربع رحلات فقط.

- ثمانية أشخاص؟

- لا. بل أربعة أشخاص فقط.

- لا مانع عندي. أوافق.

مدّ السيد يده وهو يبتسم، صافحه حسين، ثم شاهد أبا مازن ينهض وهو يمد يده فصافحه أيضًا ثم عانقه.

* * *

- هذه هي اسطنبول.

أشار ميثم إلى الساحل حيث يحتل شاطئ البحر عشرات آلاف الأجساد شبه العارية، أوّل مرة يرى فيها أجسادًا لنساء في مثل ذلك العدد في البكيني، متى سمع كلمة سيّاح؟ من ميثم! نعم من ميثم في اسطنبول.

آنذاك نسي حسين مخاطر الرحلة، كيف كان عنقه أقرب إلى المقصلة من أي وقت كان، ما شغل ذهنه من أين لهم هذه السيولة النقدية الكبرى! حدّق بالصك الذي أعطاه إياه أبو مازن، نصف مليون دولار لقاء رحلة واحدة! أهو يحلم؟ صوت السيد يتضخم، يملأ الكون عليه: (أي عملية أخرى نُضاعف المبلغ حسب رغبتك، إن أردت مبلغًا معينًا اذكره)، عربدت أسئلة شتى في ذهنه، حين تطأ الشاحنة أرضًا ترابية تثير زوبعة من غبار، وحين يقع صك مثل هذا بيد فقير يتيم مثلك يثير زوبعة مثيلة لكن من أسئلة لا إجابة عليها، شركات كبرى، تتاجر بكل شيء، من أين جاءت بالمال؟ ما المصدر الذي ينهل منه السيد وأبو مازن أموالهم التي لا تُحد؟ كيف يتصرفون بها؟ كيف يبعثرونها حسب إرادتهم؟ أسيأتي يوم يعرف فيه الإجابات على هذه الأسئلة! إن كانا أوكلا

إليه تهريب البشر المهمين، فمن هم غير المهمين؟ هل هناك أشياء أخرى؟ أكان المفتش السوري على حق عندما ركز على المخدرات، أم هناك شيء أكبر؟ متى سيلتقي خاله لكي يساعده في النفاذ إلى الحقائق؟ في كشف هذه الغوامض؟ هل سيعيش إلى نيسان ٢٠٠٣ أم سينتهي قبل ذلك؟

تبرع ميثم بمرافقته في اسطنبول حينما وصل إليها، قال لميثم أريد أن أرى كل شيء فيها. قهقه ميثم: "هذا ما أريده أنا لا أنت". من رحلته الأولى بهرته أسواق اسطنبول، طرقها، نظافتها، جمالها، وجد نفسه في سوق مسقوف أشبه ما يكون بالشورجة، تمتد تفرعاته ضيقًا وانفراجًا بأطوال متفاوتة.

تمشى وميثم حتى الرصيف الذي يعج بصبية ومشردين وبحارة في مختلف الأزياء والألوان وغطاء الرأس، ورجال شرطة متعجرفين مسلحين بأيديهم هروات، وباعة متجولين باعة فاكهة على عربات ذوات عجلات، وحمام بري في أعداد هائلة يلتقط الحب من بين الأرجل، ونساء محجبات وأخريات سافرات، وفتيات جميلات خارجات من البحر مازلنّ يحتفظن على أجسادهن بالبكيني المثير، قسم منهن يلففن أجسادهن بالمناشف الكبيرة فاقعة الألوان.

يتذكر أنه كان يتمشى على الشاطئ مع ميثم، اقترح عليه أن يعوم في البحر، لكنه أحس بالجوع، قال له ميثم تعال، على بعد مائتي

متر محل يشوي السمك، درب ضيق ملتو، ظل يراوغ أشعة الشمس بتعرجاته، هدوء، لمسة نسيم باردة في ذلك الصيف القائظ، أطفال يروحون ويجيئون، ضحك حسين:

– يعجبني السير في دروب كهذا.

ألقاهما الدرب بساحة صغيرة تتفرع إلى أربعة أزقة أخرى أعرض، تموج الساحة بالناس رجالاً ونساءً، بعد بضعة أمتار، إلى اليسار رأيا المطعم الشعبي الصغير، يتذكره بوضوح بالرغم من صغره، لأنه وسط سوق مزدحم، يمتد في الطول مع ضيق في العرض كأنه كهف، سمك صغير مشوي، أربيان، نوعان من السلطة، جعة، خبز محمص مع شراب العنب، أكل بنهم، لم يتكلم إلا نعم ولا، هزة رأس، حتى أنه لم يضحك على النكت الجميلة التي سفحها ميثم بكرم عجيب، تذكر كيف كانت روائح الطعام تملأ الأزقة من المدرسة حتى البيت فلا يعود بشرًا بل روحًا هائمة تحوم فوق القدور تلتهم ما فيها.

العاصفة

المريض مسجى على بطانية صفراء مُخططة بالأسود وأربعة مسلحين يحملونه، كل منهم من زاوية، وضعوه على الأرض، هرع أحدهم نحو شخص أسمر في أربعينياته، يضع على عينيه نظارتين، كان يمسح ممرات المستشفى اللامعة، سأله بحدة:

- أين الطبيب؟

ارتعب هذا وهو يرى أمامه مسلحًا مدجّجًا بالرصاص، صدرية مانعة لاختراق الرصاص، غطاء رأس يختلف عن مثيله العراقي أو الأمريكي، عينان تتقدان شررًا، ارتعب، قال وهو يشير إلى غرفة العمليات في أخر الممر، ركض المسلح دفع الباب بحذائه الضخم المبقّع، رأى مجموعة من الأشخاص يرتدون الأبيض يلتفون حول سرير، وأيديهم ملطخة بالدماء، صرخ:

- أين الطبيب؟

التفتت إليه امرأة تضع على فمها كمامة وعلى عينيها نظارات، نظرت إليه بذهول لكنها لم تجبه، ثم عادت إلى عملها، صرخ:

- إن لم تتوقفوا قتلتكم جميعًا.

دار بينهم حديث قصير، ثم جاء شخص ملثم أنزل كمامة ملطخة بالدم من فمه إلى حنكه، بدا على أعتاب الخمسين بسالفين غزاهما البياض، سأله:

– ماذا تريد؟

– عندي جريح مصاب برصاصة، نريد أن تخرجوها.

– هذا مستشفى صغير، لماذا لم تذهبوا إلى مستشفى أكبر؟

– إنه أقرب.

– لا نستطيع أن نعالجه الآن، عندنا عملية فتح قلب.

– يجب أن تساعدوه، أوقفوا تلك العملية وأخرجوا الرصاصة من مريضنا.

– إن توقفنا لحظة واحدة يموت المريض.

– هذا أهم.

– في الطب لا يوجد أهم، لا نستطيع ذلك، الناس أمام الطب والله والقانون والواجب سواء، أقسمنا اليمين.

– قلتُ لكم سأقتلكم جميعًا إن لم تسعفوه.

ضحك الطبيب دون وجل:

– إن قتلتنا سنموت ويموت معنا المريض في غرفة العمليات، ويموت أيضًا مريضك، ما الفائدة؟

مدَّ هذا يده إلى ما تحت إبطه ليخرج رشاشته المعلقة على كتفه، لكنه فوجئ بمجيء الدكتور مروان مسرعًا ومعه العامل المنظف، توقف قربهما، قال للمسلح:

- تكلم معي أخي، هذا طبيب عادي، أنا مدير ومسؤول هذه المستشفى.

ثم غمز للطبيب الشاب بعينيه، هرع هذا مسرعًا إلى سرير العمليات، قال مروان:

- نقل لي العامل أنك تريد إجراء عملية للجريح!

- نعم.

- تعال معي. فتح باب غرفة جانبية، قال للمسلحين: هاتوه هنا. ثم نظر إلى العامل وقال له: نادي على جدّل.

الغرفة صغيرة فيها سرير واحد، نقالة طويلة بيضاء، أشار مروان إلى النقالة:

- ضعوه هنا. أرادوا أن يرفعوه عن البطانية لكنه قال لهم: لا تفصلوه أحملوه مع بطانيته، أريد أن أرى ما فيه أولاً.

دخلت امرأة جميلة تجاوزت الخامسة والأربعين، سلمت بسرعة على الطبيب ثم قامت بقص الملابس حول الجرح، أمسك الطبيب برسغ المريض بضع ثوان ثم أفلته، فتح فمه، فبانت أسنانه سوداء في أعلاها، مصفرة في أسفلها، كان فمه ملوثًا بدم لم يجف

بعد، قرب أذنه من قلب الجريح برهة، اعتدل، التقت عيناه بعيني من كان يحدثه، قال وهو يهز رأسه:

– لا فائدة، إنه ميت، مات قبل أن تصلوا إلى المستشفى.

قال المسلح بخيبة:

– لكنه كان ينزف.

– إن كان الجرح بعيدًا عن القلب يبقى ينزف مدة طويلة.

اكتست ملامح المسلح حزنًا عميقًا، كانت نظرات زملائه المسلحين الثلاثة المتسائلة متجهة نحوه، تكلم معهم بغير العربية وهم يهزون رؤوسهم، سأله الطبيب:

– من أصابه؟

– الأمريكان. ظنوه من المتمردين.

قال ذلك ثم تكلم معهم باللغة نفسها، مدَّ يده إلى حافة البطانية الصفراء، فحملوه والدماء تقطر منها على الأرض، فيما بقيت النقالة ملطخة بالدم. سأل الطبيب العامل ذا النظارتين:

– أهم يتحدثون الكردية؟.

ردَّ العامل:

– لا. الفارسية.

ذهب الطبيب إلى غرفته، أدار رقم الهاتف، انتظر حتى إذ جاءه الصوت قال:

- سامية تعالي الآن حالاً إلى المستشفى، لا أستطيع أن أقول أكثر، هل تستطيعين أن تأتي؟ توقف قليلاً ثم قال: لا. صبحي في غرفة العمليات، سيخرج بعد ساعتين، هذا هو الوقت الممتاز لأكلمكما معًا، عندي موضوع مهم.

وضع سماعة الهاتف، ران حزن عميق على تقاطيعه، دفن وجهه بين راحتيه. اتكأ على المنضدة.

* * *

صبحي طويل أسمر، عينان رماديتان، شعر قصير غزاه الشيب، قبل أن يدخل غرفة أخيه مروان ارتدى ملابسه، رش قليلاً من عطره المفضل، اقتربت منه ابنته جذّل، عانقته وقالت له:

- أنا أشد لك ربطة عنقك.

بعدئذ بدأ يدخّن سيجارته اليومية في حديقة المستشفى، يتفقد الأزهار الاستوائية النادرة، التي زرعها في مربعين على يمين ويسار مدخل المستشفى، قالت جذّل:

- متعة للنظر لا تضاهيها أي حديقة أخرى في بغداد كلها، يسألني عنها الكثير، لا يعلمون أنها من البرازيل.

- حتى عمرو ذهل عندما رآها هناك، أرسل لي صورها وبذورها، يقول إنها موجودة في الساحات العامة في أي زاوية في برازيليا العاصمة.

ابتسمت، عانقته من وسطه:

- كم كنتَ خائفًا أن يقتلها برد بغداد في الشتاء، لولا أن اقترح خبير وزارة الزراعة وضع شمعة كهربية صغيرة مع كل نبتة وتغليفها بكيس بلاستيك!

ضحك ضحكة قصيرة:

- كنتُ أتصور أنها لن تنجح.

يبتسم رغمًا عنه حينما ينظر إليها، ينسى تعبه وهو يتفقدها كل يوم، لم يحسا باقتراب سامية، سمعا صوتها تخاطبه وهي واقفة وراءهما:

- ألكي تريني الحديقة أرسلتَ إليّ؟

التفت جذل، قبلتها، قالت سامية:

- دائما أحمد ربي لأنكِ ورثت شقرة عمتك سُكينة وعينيها الزرقاوين، لا سواد أبيك.

قهقهت، ضحك صبحي:

- دائمًا سليطة اللسان.

تركتهما جذل، أمسك صبحي بيد سامية، نظر إليها بحب:

- لم أرسل أنا إليك، أشار إلى غرفة مروان وسألها: كم كان عمرك عندما التقينا؟

- الثامنة عشرة؟

- ما أزال أراكِ كذلك.

- إنه الحب.

- لم تتأخري كثيرًا.

حدّقت في عينيه:

- تبدو مهمومًا.

عصر كفها:

- تفهمينني أكثر من أي كان، لولا أننا في مكان عام لعانقتك.

- مازلتَ "وقحًا" أتدري كم عمرك؟

- أدري. لا تذكريني، شعري أبيض.

- أرأيتَ كيف تمضي السنون؟ كأنها البارحة كنت تهم بذبح موسى، وأنا أهدئك.

- كفى غزلاً. إننا ننتظر، تأخرتِ.

جاء د.وت جذّل من الخلف، التفتت:

- أبوك يقول: لم تتأخري كثيرًا.

- أبي لا يهتم إلا بالزهور وبك.

- نعم تأخرتُ ألا تعرفين لماذا؟

- لا.

- مصفحة همر تسير عكس الشارع، سحقت سيارة بمن فيها، عجنت الحديد بأجسادهم، لم تتوقف، انسدَّ الشارع، آلاف السيارات، البكاء، العويل، السب، أوه.. متى ينتهي هذا الكابوس؟

- كم عدد الضحايا؟

– لا أدري، لم أكن قريبة من الحادثة لكني سمعت أخبارًا متناقضة: ثلاث أطفال مع ذويهم، أربع، خمس! الله وحده يدري.

– ننتهي كلنا وما ينتهي الكابوس؟ جاء الكابوس ليبقى.

قال صبحي ذلك وسار وهو يعانق سامية من الخلف:

– اقفزي فوق الألم.

ابتسمت جذّل وخاطبته:

– أنت وحدك تستطيع ذلك، ستتجاوز المائة بطبعك الهادئ، تضحك من كل شيء.

شاهدوا عندما دخلوا الغرفة مروان يتكلم مع ممتاز، أشار إلى ممتاز أن يُغلق الباب، قال صبحي لأخيه:

– أنا أعلم ماذا في ذهنك.

ضحكت سامية:

– كلنا نعلم.

ابتسم ممتاز ونظر إلى حماته:

– لا تدخلي نفسك في الموضوع، لو تُفكري مائة سنة لا تحزري ما حدث.

قهقهت جذّل وهي تنظر إلى أمها:

– نعم ماما، أمر غريب حدث اليوم.

ابتسم مروان، نقر على المنضدة، وجّه نظراته إلى سامية وسألها:

– انتهت الانتخابات الـــ...

قاطع ممتاز:

- المزيَّفة.

ضحكوا جميعًا إلا مروان استمر، سأل سامية وهو يركز على عينيها:

- أتعرفون من سيكون رئيس الوزراء؟

ابتسمت وهي تضحك:

- تسألني أنا؟ هل قلتُ لك إنني كوندليزا رايس؟

انفجرت قهقهة أخرى، تجهمت تقاطيع مروان:

- دعوني أكمل واضحكوا، إنه موسى الأمغر، أتعرفون من هو؟

حل صمت دام نحو ثانيتين، أنهاه صبحي متسائلاً:

- من موسى الأمغر؟

- أنت تعرفه، سامية تعرفه.

هتفت سامية وهي تشير إلى صدرها:

- أنا؟

- نعم. أنتِ وزوجك.

حدَّق بصبحي، فكر هذا برهة ثم هتف:

- أتقصد هذا الحقير موسى القمّي؟

التفتْ إليه ابنته جذّل: "بابا من هو القمي، الأمغر؟

ثم حدق به ختنه ممتاز باهتمام، لم يُجب صبحي، قال مروان:

- إن جاء الأمغر لرئاسة الوزراء سننتهي كلنا، كل من يَمُتُ لنا بصِلة. ثم ركز نظراته على عيني سامية، حتى أنت يا سامية، سيُقتل أخوتك وأولادهم جميعا.

انخطف لون سامية وزوجها بينما قالت جدّل:

- ماما، ما علاقتك بالأمغر؟

لم تجبها أمها، نقلت عينيها إلى أبيها، هتفت:

- بابا، ليقلْ أحدكما شيئًا، دعونا نفهم.

التفتَ إليها أبوها، قال بهدوء وبلهجة أميل إلى الحنان منها إلى الرجاء:

- قصة طويلة، ستعرفينها لكن الآن رجاءً دعينا نفهم. ثم حدق بأخيه، والرأي؟

- نبيع المستشفى، بيوتنا، كل ما نملك، و...

حرك يده حركة فهم الجميع منها أنه يعني الهرب، فكرت جدّل باستغراب وهي تحدق بعمها الذي كانت تعتبره قمة في الشجاعة والصمود ووضوح الرأي، أهكذا يتغير الإنسان؟ وبهذه السرعة، عندما رأت أفراد المليشيا يقتحمون المستشفى بتلك الهمجية، وسمعت تهديدهم وإشهارهم السلاح والموت على أشدهما، وتذكرت عشرات الجثث مقتولة، مشوّهة، مرمية في الشوارع والأزقة، أدركت أن دورها جاء، لن تنجو، لا هي ولا أي من العاملين في المستشفى، لكن عمها واجههم بشجاعة نادرة، أنهى

الموضوع، أرسى السلام في بضع دقائق، ها هو الآن يفكر في الهرب؟

- لكن هذا جنون. قال صبحي ذلك.

نظرت جذل إلى عمها:

- عمي، كيف سنعيش في الخارج؟

ابتسم مروان:

- سنعيش في الخارج كما نعيش هنا.

- وأولادنا، مدارسهم، مستقبلهم، استقرارهم؟

- لن يتغير شيء مطلقًا، ستسير الأمور كما تسير هنا، سنلاقي بعض الصعوبات من دون شك، لكن سنتغلب عليها كما تغلبنا على الحصار والقصف وانقطاع الكهرباء، الحياة من دون كماليات الخ. سنتمكن من إعادة بناء مستقبل أطفالنا في جو آمن، تلقيت اليوم عرضًا لبيع المستشفى، نتسلم الثمن في عمان، سنفتح مستشفى متطور كهذا في مكان ملائم.

ابتسم صبحي:

- هذا قرار مهم، يجب أن أدخن سيجارة.

هتفت جذل من كل قلبها:

- رأيتك من غرفتي تدخن.

نظرت سامية إليه في لوم:

- أأنت مراهق؟.

غمز صبحي عينه:

- فقط عندما أراكِ.

ابتسموا جميعًا ثم انفجر مروان يضحك بقوة، سأله غير واحد:

- لماذا؟.

استمر يضحك، ألحّت عليه جدّل:

- عمي لماذا تضحك؟

- لا أستطيع.

- بل تستطيع.

- حسنًا لخاطرك. ما زلتُ أذكر كيف لكمه أبوك في وجهه بقوة فاستدار إلى الخلف، ثم عالجه بركلة رفعه عن الأرض وأسقطه على وجهه.

أخذ يُمثّل بيديه كيف ارتفع وسقط، وشاركه ضاحكًا صبحي وسامية، تساءلت جدّل:

- ألغاز. لم نفهم شيئًا.

سأل ممتاز باهتمام:

- ألم يتضرر من الركلة؟

أجاب مروان:

- رقد أسبوعًا كاملاً في المستشفى، وهرّبنا عمك صبحي إلى قرية البعاج، كان عندنا أصدقاء هناك، إن لم نهربه تقبض الشرطة عليه ويمكث في الموقف حتى يخرج موسى من المستشفى، بعدئذ

سلم نفسه، أطلق سراحه بكفالة، عندما جاء وقت المحكمة أفرج عنه القاضي لأن موسى كان المعتدي.

عندئذ أخذت سامية تضحك بقوة:

– آه لو رأيتموه عندما جاء إلى المحكمة، كان يعرج.

تدّخل صبحي:

– يتظاهر بالعرج، لم يكن برجله شيء.

قال مروان:

– صحيح، أتذكر أن القاضي نظر في تقرير الطبيب ثم سأله: لماذا تعرج، قال: يا مولاي هناك رض في قدمي. قال القاضي بغضب: هذه كذبة، لم يذكر الطبيب ذلك في تقريره. فضحك جميع من كان في القاعة.

– هل كان الحضور كثيرًا؟

– لا نحو خمسة عشر شخصًا، كلهم أهلنا وأصدقاؤنا، كانوا واقفين حولنا، لم يكن كراسي في غرفة القاضي، لم يحضر معه سوى شخص واحد يدرس الزراعة، من قرية يارمجة.

سألت جدّل أمها:

– ألهذا ضحكت؟.

– لا. ضحكت لأنه عندما جاء كان وجهه ملفوفا كله، لا يظهر منه سوى عينيه وأنفه، ويمشي على عكاز، همس أبوك في أذني:

هكذا يتحرك ملك الموت. فحصرتُ الضحكة في داخلي حتى انفجرتْ عندما خرجنا.

حدَّق مروان بعيني أخيه صبحي:

- أرأيت كم سيكلفنا زواجك؟.

تدخل ختنه:

- بل قل الحب.

قال صبحي:

- في الأقل نموت من أجل قضية شريفة.

نظرت سامية في عيني مروان:

- هل فكرت في الأمر؟

- نعم. منذ أن سمعت ذلك في الإذاعات الخارجية.

قالتْ وعيناها مركزتان على عينيه:

- أظنك تبالغ.

تدَّخلت جدّل وهي تنظر إلى أمها:

- لا. لا مطلقًا، إنه لا يبالغ، لو رأيت هذه المليشيات اليوم لأدركت أي أخطار تتهددنا، لو لم يأتِ عمي في وقته لما بقي أحدٌ حيًا في المستشفى.

أكّد ممتاز:

- هذا صحيح، قلتُ له لا نستطيع أن نعالجه الآن، عندنا عملية فتح قلب. ردَّ يجب أن تساعدوه، أوقفوا تلك العملية وأخرجوا

الرصاصة، كان يريد إنقاذ مريضه حتى لو تسبب في موت مريض تحت العملية، لو رأيته كيف يصرخ: سأقتلكم جميعًا، المشكلة أننا لم نفهم ماذا كانوا يريدون، كانوا يتكلمون الفارسية.

ضحك صبحي وقهقهت سامية، نظر الجميع إليهما، قال ممتاز:

"هل قلتُ شيئًا خطأ؟.

قالتْ سامية وهي تضبط نفسها كي لا تضحك مرة أخرى:

– لا. لم تقل خطأ لكنْ لو كنت أنا هنا لتفاهمت معهم بالفارسية.

احتجَّت رقل:

– ماما أنت تخلطين، كيف تتفاهمين معهم بالفارسية؟.

– أمي إيرانية أبي عربي، شيء طبيعي في كربلاء والنجف.

تدَّخل صبحي، نظر إلى الجميع واحدًا واحدًا، فعلموا أنه يريد أن يطرح شيئًا، قال:

"لماذا نتفاعل بالشر؟ لماذا نظن أن الأمغر قد انحدر إلى الأسوأ؟ ربما تغيَّر نحو الأفضل خلال هذه السنين؟

أجاب مروان:

– اسمع الأخبار الأجنبية، نظر إلى ورقة بيضاء أمامه قلبها، أشار إليها، في هذه الورقة بعض ما نقلته الإذاعات في الخارج، تتوقع إن جاء الأمغر وحزبه إلى الحكم أن تتفاقم حمامات الدم في العراق لأسباب طائفية، مذكرة بالتخريب الذي قام به هذا الحزب في العراق من قبل في ١٥-١-١٩٨١ نسف السفارة العراقية ببيروت

ومصرع العشرات منهم السفير العراقي والسيدة بلقيس الراوي قرينة الشاعر نزار قباني، في عام ١٩٨٢ تفجير وزارة التخطيط العراقية في قلب بغداد وقتل المئات، والمُخطّط المنفذ حي يرزق عضو في مجلس النواب الحالي. في ١٩٨٧ نسف مستشفى ابن البيطار الكائن في منطقة الصالحية من جانب الكرخ لوجود ضباط جرحى يعالجون فيه، قوائم التفجيرات والنسف والقتل في العراق، الكويت، السعودية الخ. ماذا تتوقعون من حزب كهذا؟

قالتْ سامية:

– كل هذا يصدر من نصف الرجل الجبان الأمغر، كان بإمكان صبحي أن يقضي عليه بركلة قدم!

ضحك الجميع. نظر مروان في أعينهم وإذ أنهوا ضحكتهم أكدً مروان:

– إن لم نتصرف بسرعة ننتهي، إنهم يغتالون الآن مائة شخص يوميًا كحد أدنى، يغتالون أي طبيب ناجح، محام، مدرس، مختص الخ، ثم ركّز نظراته إلى سامية، أنت وحدك لا تعرفين ما يجري لأننا اتفقنا أن لا نخبر أيًا كان من خارج المهنة عن هذه الجرائم، كي لا يفقد الأمل بالحياة والوطن، سنوات حريق وجرائم رأينا فيها ما لم نكن نتخيله من قبل.

تساءلتْ:

– وإن رفضنا أن نذهب أنا وصبحي والأولاد؟

ردّت جذل بشكل فجائي وبقوة وحسم:

- تكونين مسؤولة عن أرواح من يبقى معك، أنا ابنتك لنْ أبقى هنا، رجلي مع رجل عمي، أريد أن أنقذ نفسي وعائلتي.

- وأنا أيضًا.

قال ممتاز ذلك، وقاطع مروان:

- كنتُ أتوقع أنك ستعارضين، حياتك ملكك، حياة أهلك ملك لهم، يتوجب عليك أن تذهبي اليوم إلى أهلك وتحذرينهم، لأنهم وقفوا معنا في الزواج ضد رئيس الوزراء المحترم موسى الأمغر، كلهم سيُقتلون إن بقوا.

حدّقت جذل بها:

- كم عددهم مع أولادهم جميعًا.

ابتسمت سامية:

- لا أدري.

رفعت كفها نظرت إليها، أخذت تعدّ بأصابعها ثم قالت:

- المتزوجون ثلاث عشرة امرأة ورجلاً، أما هم وأولادهم فربما بين الأربعين والخمسين.

هزّ مروان رأسه:

- عليك تحذيرهم.

- لكنْ أين يذهبون؟

- لا أدري.

- عليك أن تُدركي ثِقل المسؤولية، حالهم حال الملايين الثمانية التي قُتِلت وهُجِّرت.

أمَّن صبحي على كلام أخيه:

- هذا حق، ثم التفت إلى زوجته سامية، اذهبي اليوم، هذه الساعة، لو لم أكن في غاية التعب لجئت معك، أجريت اليوم سبع عمليات، أريد أن أرتاح، الأفضل أن تذهبي بالحافلة، ارجعي غدًا أو بعد غد، أي ساعة تشائين.

نبرت جذلى:

- سنقضي غدًا الجمعة في كربلاء، ونرجع عصرًا.

- والأولاد؟

- أبوهم معهم، كل شيء جاهز، ستعد رقّل الطعام لهم.

* * *

الدرس الأول، اليوم الأول في الجامعة، وجد صبحي قربه إلى اليسار شابًا أبيض وسيمًا، عينان رماديتان مع خطوط خضر في قزحيتيهما، مدَّ يده معرفًا:

- صبحي عبد القادر.

ابتسم الشاب وهو يمدّ بوزه ويضخم صوته:

- موسى الأمغر. ثم بعد لحظات سأل: موصلي؟

تساءل صبحي في داخله، لماذا يضخم صوته؟ قال:

- نعم، وأنت؟

- عظماو ي.

ابتسم صبحي:

- لم اسمع من قبل بعظماوي، من أين؟

- الأعظمية.

"آه. لماذا لا تقول بغداد؟"

مدَّ بوزه، قال:

"مجرد تخصيص لا أكثر.".

ابتسم، سأله صبحي:

- لماذا تبتسم؟.

قال:

- من يراك يظنك من البصرة، أنت أسمر.

ضحك صبحي ضحكة قصيرة:

- نعم. أنا الوحيد في العائلة أسمر، إخوتي أخواتي بيض وشقر.

- أكلهم طوال مثلك؟

- لا. أبي وأخي الأكبر مروان فقط، أما إخوتي الآخرون فأطول منك قليلاً. ثم غيَّر الموضوع وسأله: هل أعجبك جو الموصل؟

ابتسم موسى:

- إلى حد الآن. نحن في بداية أيلول، الجو معتدل هنا في بغداد والجنوب ما يزال حارّا.

– سيبقى هكذا معتدلاً حتى نهاية تشرين الأول، ثم يبدأ البرد، هل عندك ما يشغلك يوم الجمعة القادم؟

– لا. لماذا؟

– أنت مدعو عندنا في البيت.

– لكن لا حا...

قاطع صبحي بحزم وهو يبتسم:

– حاجة أو غير حاجة غير مهم، أنت مدعو، سأجيء لآخذك حتى لو استعملتُ السلاح.

ضحك موسى:

– لا بأس.

وجد صبحي في يوم الجمعة بعد صلاة الظهر موسى ينتظره عند كاتب الفندق الصغير في شارع حلب، صعد نحو أربع عشرة درجة فوجده جالسًا على مسطبة مع جمع من الطلاب من مختلف مناطق العراق، كان قد ارتدى أجمل ما لديه، بدلة كحلية، ربطة حمراء مخططة منقطة بالأصفر والأبيض، في بيت صبحي جاءت أمه الستينية تلف شعر رأسها بعصابة سوداء من الحرير، إخوته الثلاثة، شابة شقراء "سُكينة"، علم بعدئذ أنها أخته، معها صديقتها سامية، سلموا عليه، خرجوا، بقي صبحي والإخوة معه في الغرفة، ثم جاء أبوه مرحبًا، جلس معهم، بقيت صورة الفتاتين في ذهنه، كانتا أجمل اثنتين رآهما في حياته، الأولى شعر أصفر،

عينان زرقاون، بشرة بيضاء مع خدين كتفاحتين يكاد ينـز الدم منهما، والثانية بيضاء ذات شعر أسود، واسعة العينين، حلوة الملامح، سمعه عن الموصليين أنهم محافظون إلى أخر درجة، لكنه وجد نساءهم يسلمون عليه كأنهن يعرفنه، أعجبه المرمر الأزرق الباهي يغطي أرض البيت وينتصب أعمدة في الزوايا، والشبابيك، ثم فوجئ بحجم الكبة الكبير، قطرها نحو سبعين سنتمترًا، محشوَّة باللحم والكشمش واللوز، كان هناك أرز، بامية، بصل أخضر، زيتون، طرشي ممتاز. تلك الكبة كانت أطيب كبة أكلها في حياته، ثم جاؤوا بأخر وجبة من الرقي، كان ورديًّا لا أحمر، ظنه بلا طعم، لكنه عندما تذوَّقه وجده شديد الحلاوة، انتهى الغداء بالشاي وبقلاوة ذات طعم فريد، عرف أنهم يجلبون نساءً مختصات لإعدادها في البيت.

تلك أفضل وليمة بقيت حيَّة في باله، تعيش معه كلما جاء ذكر الموصل، حتى عندما تكررت الدعوات، تكرر الطعام نفسه في بيت صبحي أو غيره لم ينسَ ذلك الغداء، في خلال بضعة أشهر أصبح تردده إلى بيت صبحي طبيعيًا، حتى بات يحلم أنه سيخطب أخت صبحي سُكينة، أو صديقتها الحلوة، وأنهم سيقبلون به لا محالة، ثم سمع من صبحي مرة أنه يفكر أن يذهب في نهاية السنة الدراسية إلى كربلاء، تساءل موسى:

- لماذا كربلاء؟

حدّق صبحي في عينيه مع ابتسامة:

- لأن سامية من كربلاء، سيأتي معي أبي وإخوتي لنخطبها، لابد أن أتزوج.

- قبل التخرج؟

أكّد صبحي:

- نعم، بيتنا واسع، حالتنا المادية جيدة، لماذا لا أتزوج. ثم حدّق به بمرح: اللهم إلا إن كنت أنت تمانع.

ضحك موسى. قبل بدء عطلة نصف السنة بيوم واحد قال له صبحي:

- سنأخذ حافلة صغيرة ونذهب إلى كربلاء، ونأخذك معنا في طريقنا إلى بغداد.

- لكنك قلتَ في آخر السنة.

- غيّرت رأيي، لم أعد أطيق الانتظار.

- أين تسكن سامية؟

- عندنا. مع أختي سكينة في غرفتها.

- أهي معلمة؟

- نعم. في المدرسة نفسها.

- لا شك أنك تحبها.

- أموت فيها.

ابتسم موسى، قال بجد:

- صفْ لي الحب؟

فكّر صبحي بضع ثوانٍ:

- لا أعرف كيف أصفه، إن أغمضت عينيك في الليل ورأيت صورتها معك كل ليلة. فذلك يعني الحب.

* * *

في الطريق إلى السوق الشعبي المسقوف حيث يزدحم آلاف الزائرين يوميًّا وقفت سامية مع ابنتها جذل، عراقيون، لبنانيون، سوريون، مصريون، هنود، إيرانيون، أفغان، باكستانيون، أزياء رجالية، نسائية شتى، ضوضاء قوية، صياح، أشارت سامية إلى ركن في داخل السوق يؤدي إلى عطفة متربة، قالتْ لجذل:

- هنا حدثتْ المهزلة.

توقفت وأخذت تضحك، أثارت ضحكتها رجلاً ذا يشماغ أسود، نظر إليها ثم استمر في طريقه، أشارت سامية إلى الشارع العريض:

- لم يكن هذا موجودًا، كان السوق يمتد إلى المسجد، انظري. أشارت إلى مكانها: هناك، كان هناك مقهيان اختفيا الآن، من أحدهما كانت تصدح أغنية "غريبة على عينك يا يمّه لزهور حسين"، والثانية لأم كلثوم: "لسه فاكر كان زمان". كنت أحب أباك، وأتمنى أن أتزوجه، وكان هو مثلي، كانت الأقاويل تغلي في المدرسة، كيف أمكث عندهم وهم أغراب؟ ثلاثة إخوة بالغين، وأنا شابة جميلة من مدينة أخرى، أمر فظيع، وافق أبي على الخطبة

فقط، لكنه لم يوافق أن نتزوج حالاً، أراد أن يخبر عائلتنا كلها، حزنا أنا وصبحي وعائلته للتأجيل، ذكرتني أم كلثوم بأبيك، اشتقت إليه بالرغم من أنه كان معي قبل يومين هنا في كربلاء، لكني كنت سعيدة، أكاد أرقص وأنا أمشي، عندما سمعت أغنية أم كلثوم: "لسه فاكر"، بدأت أرددها مع نفسي، في تلك اللحظة وقعت عيناي على موسى، هنا كنت أسير، وإلى يساري أخي قاسم، وإلى يميني أختي الصغيرة إنعام، جاء موسى من هناك، "أشارت إلى اليسار".

- موسى العظماوي؟

- نعم. موسى يحمل أسماءه الثلاثة: عظماوي أمغر قمي، يستعمل الأول في الموصل، الثاني في كربلاء، الثالث عندما يذهب مع أبيه الروزخون إلى "اللطميّات والقرايات"، قالت ذلك وقهقهت، أضافت: لم يرنا هو، رآه قاسم أخي، كان زميلاً له في الثانوية، ناداه: موسى.. التفت إلينا، ركض نحونا ليعانق قاسم، عندما رآني بهت، اصفر وجهه، مدَّ يده صافحني، قال: "الحمد لله على السلامة"، التفتَ إليَّ قاسم وهتف: "أتعرفان بعضكما؟" ضحكتُ، قال موسى: "نعم". قلتُ: "زميل وصديق صبحي". لم يكن أخي يعرف أن موسى يدرس في الموصل، قلتُ له: "ماذا تفعل هنا؟" ضحك أخي من كل قلبه: ما هذا؟ كيف تسألينه؟ هذه مدينته، ألا تعرفينه؟ إنه ابن ملا عليوي القمّي الروزخون، فوجئتُ قلتُ له: "لماذا يقول إنه عظماوي؟" بينما كنت أجادل أخي كان موسى يحمرّ ويخضر، لم

يجد ما يقول سوى: "مع السلامة"، هرب، قال قاسم: "أحرجتيه".
قلتُ له: "كيف لي أن أصدقه بعد الآن، ما لا يدخل عقلي أنه يكذب على الناس من دون سبب، لماذا يغيّر اسمه يقول موسى الأمغر؟".

- من الخوف.
- الخوف من ماذا؟
- أهل الموصل يختلفون عنا.
- لم أرهم كذلك. قلت لكل من رآني أول مرة أنا من كربلاء. رحبوا بي كأني أقول أنا من البصرة، بغداد، كأن كربلاء جزء من الموصل، عشت معهم كأني واحدة منهم، في اليوم الثاني لي في المدرسة، جاءت معلمة بكيس كبير من القماش، قالت لي: هنا داخل الكيس شيء من كربلاء، احزري ما هو؟ كان الشيء كبيرًا، قلت مع نفسي لا يوجد شيء من كربلاء بهذا الحجم! بعدئذ أخرجتْ الزميلة مكنسة، مروحة ملونة، زنبيلاً، قالت: أبي يبيع هذه الأشياء، يجلبها من كربلاء، أخذنا نضحك، انهالت علي الدّعوات، كل جمعة في بيت واحدة، خطبتني غير واحدة لأخيها، ابن عمها، أخي زوجها الخ.
- ثم ماذا؟
- حدثت مفاجأة أكبر.
- ما هي؟

أخذت تضحك من كل قلبها:

- احزري.

- لا أستطيع. قولي.

- في عصر ذلك اليوم جاءت أمه مع مجموعة من معارفها تخطبني. ضحكت جذلى، قالتْ لهم أمي: "خُطبت وانتهى الأمر". قالتْ أمه: "كيف تفضلون موصليًا على كربلائي وأهل الموصل يختلفون عنا؟" أردتُ أن أهينها لكن أمي أبعدتني، أمرتني بجلب الشاي، خرجت من الغرفة، تركتهم بلا شاي، اعتذرتْ أمي عني قالتْ لهم عندها صداع، مددت رأسي، قلتُ لهم "لا. ليس عندي صداع. اخرجنّ". أكفهرت وجوههن، قالتْ إحداهن لأم موسى: "ما كان لك أن تزلي تلك الزلّة، خالتي متزوّجة في الرمادي، وابني خاطب أخت صديقه الضابط من أربيل، ذهبتْ تلك التفرقة والاختلاف، لم تبقَ إلا في الحسينيات والقراءات وستتبخر يومًا ما، ورطينا معك". قالتْ أميّ لهن: "سامحوها، قلتُ لكم عندها صداع"، تدخلت إحداهن: "لا. نحن على خطأ، ما كنا نعرف أنها مخطوبة، المخطوبة كالمتزوجة تدافع عن زوجها، الحق معها". لكن أمي أقسمت أن يبقوا، عندما عرفتُ أن النسوة اللواتي معها لم يكن يؤيدنها، خدّرتُ الشاي وقدمته لهن، لكن القصة لم تنتهِ، ذهب وكيل السيد إلى محل أبي قال له: "سكتنا عنك لأنك لا تدفع الخمس، لكنْ أتزوج ابنتك لمخالف فهذا خروج على المذهب، إنه الكفر، لنْ نسكت على ذلك".

– ماذا ستفعلون؟ سأله أبي.

– كل ما نقدر عليه.

– مثلاً؟

– سترى.

ضحك أبي وقال له:

– اشرب شايك ودعني أرى عرض أكتافك.

خرج غاضبًا وعندما جاء أبي في المساء سأل أميّ:

– هل يريد صبحي الزواج الآن؟

– نعم. ينتظر موافقتك.

– إذن حضري نفسك وسامية، سنذهب جميعًا معها خلال هذا الأسبوع إلى الموصل، لنُسكت الجميع. أبرقتُ لأبيكِ في اليوم التالي، جاء الردّ في اليوم نفسه، كلمة واحدة: "جذّل". فنذرت إن جاءتني أنثى أن أسميها جذّل.

– انتهت القضية؟

– لا. لم تنتهِ، انتشر الخبر في كربلاء كلها، طُرِقَ الباب في اليوم التالي وعندما فتحه قاسم وجد مجموعة من النساء، فيهن السافرات وفيهن من يضعن عباءة على رؤوسهن وفيهن الصغيرة والكبيرة، أدخلهن قاسم، سألنْ أمي عني قبل أن يجلسن، كنت في الطابق الثاني، عندما رأيتهن، قررت أن أطردهن شر طردة، لكني رأيتهن يعانقن أمي، سمعتهن يشجعنها على موقف أبي، عندئذ

ارتديت أحسن ما في خزانتي، نادت علي أمي، هرعن إليّ عانقنني وقبلنني، قدَّمن لي ولأبيك هدايا كثيرة، شراشف، ملابس داخلية، وقمصان نسائية ورجالية، ساعة يد، أشياء أخرى لا أتذكرها. وبعد أن جلسن وشربن الشاي قالتْ إحداهن: نحن وفد منظمة نساء الجمهورية الديمقراطيات، وأنهن يباركن شجاعة أبي، قراره الجريء ضد الرجعية، وعادات القرون المظلمة، في المساء جاء وفد آخر من الشبيبة الديمقراطية وأنصار السلام، ثم وفد آخر من القوميين العرب، جاء الجميع بهدايا، أصبح أبي بين ليلة وضحاها بطلاً في كربلاء، حتى بعض رجال دين ذوي عمائم سود وبيض زاروه، أثنوا على شجاعته، قراره، حكمته. ثم سمعوا أن أهلي سيصاحبونني لعقد كتابي في الموصل فجاء مندوبون منهم، احتجوا، قرروا أن ينعقد الكتاب هنا في كربلاء، في الحضرة، وأنهم سيكوّنون درعًا من الرجال لحمايتنا، كي لا يقتحمه رجال السيد، لكن أبي أقنعهم بأنه لا يريد خلق مشاكل، أخبرهم بأنه سيقيم دعوة للجميع عندما يرجع من الموصل، ثم جاءت غير واحدة ممن صاحبن أم موسى، تقول إنها مستعدة لخطبة أي فتاة موصلية أوصي بها أنا لابنها أو لتزويج ابنتها لموصلي أثق أنا به، فقلتُ لهم إن القضية ليست سهلة هكذا، فالعائلة التي خطبتني متحررة ومحافظة في الوقت نفسه، فتياتهم سافرات، لكنهن محافظات إلى أخر حد، لا يوافقن على خطبة إلا بعد دراسة.

ضحكت جدّل من كل قلبها:

- كل ذلك حدث وأنت لم تذكريه لنا؟

- تلك وصية أبي، عائلتنا متحررة غير متعصبة كعائلة أبيك، أوصاني أن لا أذكرها كي لا تثير الحزازات والمشاعر الدفينة.

- لماذا إذن ضرب أبي موسى وركله؟.

ابتسمتْ سامية:

- سرت شائعة بين زملاء صبحي في الكلية أن عائلتي وافقت على الزواج لأن صبحي كان على علاقة معي وأنني حامل، خاف أهلي الفضيحة بين الناس، غضبتْ العائلة، أخذ صبحي يستفسر، جنّد أصدقاءه ليعرفوا من أشاع الخبر، توصلوا إلى صديق موسى حسن اليارمجي، كان يدرس الزراعة في الجامعة، أمسك به صبحي، هدده إن لم يقل الحقيقة فسيسلمه إلى الشرطة لأن هناك من شهد أنه أشاع الخبر، وإن لم يعاقبه القانون، فسيقوم هو بتأديبه، عندئذ أشار حسن إلى موسى، ذهبنا أنا وصبحي وإخوته إلى موسى في فندقه، عندما رآنا أخذ يرتجف، كاد أن "يفعلها بملابسه"، أنكر أنه تطرق إلى الموضوع، لكن حسن اليارمجي قال الحقيقة بشجاعة، كذّبه، قال له: أنت أخبرتني. ليس مرة أو مرتين، كنت تردّد ذلك منذ أن رجعت بعد انتهاء العطلة إلى حد البارحة، قال موسى لحسن: أنت كاذب. عندئذ لكمه صبحي، وركله في قفاه.

* * *

كجندي مستعد للمعركة يأتي طفل في الثامنة مع أمه وأبيه، كما يفعل صفاء وغيره، على ظهره حقيبة مليئة بمستلزمات قضاء الوقت على الشاطئ: جاروف، حفّار، ملعقة كبيرة، سطول، نفاختان تلتفان على الساعد، نفاخة صدرية تمنع الغرق، نظارات لا يخترقها الماء إلى العينين، قصبة تنفس، كل ذلك من البلاستيك، وضع الحقيبة تحت المظلة، بدا هزيلاً صغيرًا جدًا بملابس السباحة، أطول من صفاء قليلاً، لاحظ صفاء يبني نفقًا بين حفرتين، ركض نحوه، جلس قربه ليرى كيف ينهي النفق، كان صفاء يحفر الرمل بالملعقة بهدوء، قال له بضع كلمات، أجابه صفاء بالعربية، لم يفهم ما قال صفاء، ركض إلى حقيبته، تناول منها ملعقته الكبيرة، رجع إلى صفاء، جلس قربه، أخذ يحفر بسرعة، نظر صفاء إليه، تكلم بالعربية، لم يلتفت إليه، استمر في عمله، انهار النفق. نهض صفاء، ضربه على وجهه بكفه، دفع صفاء أوقعه على ظهره، نبعت من تحت الأرض صديقة صفاء ذات كسوة البحر الحمراء المشجرة بالأخضر، دفعته، صرخت بوجهه، أخذت تتكلم معه بعصبية، تلاحما، نهض صفاء ليعاون صديقته، كانت أم الطفل تراقب، هرعت، سحبت ابنها قبل أن يؤذيه صفاء وصديقته، عنفته بشدّة وهي تشير إلى حقيبه الممتلئة، بدا مكسور الخاطر، مد يده ليخرج عدته سمع من يناديه، التفت

رأى صديقه وشقيقته ابتهج، هُرع إليهما، تبادلوا بضع جمل. ثم أخذا يركضان ويضحكان، تركض الطفلة وراءهما وتضحك، اختفوا. لم يرجع الطفل إلا بعد ساعتين، وجد أباه نائمًا على المتكأ، أمه تقرأ، تكلم معها، أشارت إلى الحقيبة، أخرج لقّة جبن وطماطم وخس، بدأ يقضم، ثم نام على الرمل إلى جانب عدة العوم.

هنا يعيش الإنسان من دون ضغط أو خوف حتى يموت، كهذا الطفل، يلعب، يأكل، ينام. كنت في العراق تحمل الدنيا كلها على رأسك كمعظم العراقيين، تتمنى يوم سلام واحد من دون خوف، رجعت من رحلة شاقة تريد أن يعاونك خالك على وضع خطة للهروب إلى غير رجعة، فكّرت طويلاً في إرسال "نبْع" إلى عمّان لتمكث مع الدكتور مروان إلى أن تسنح لك فرصة كي تهرب من العصابة وتلتحق بها هناك، تأمل أن تقنع خالك وزوجته بالذهاب معها، عندك في المصرف في تركيا ما يمكن الجميع من العيش بصورة كريمة، لكن نبْع رفضت غير مرة، تعانقه: رجلي على رجلك، لا نفترق حتى الموت. أصررتُ هذه المرة أن تقنعها. وصلت ليلاً، لم يكن هناك وقت كافٍ للحديث، في الصباح دعتها رقّل لتقضي النهار معها في الراشدية، يعجبها قضاء بعض الوقت هناك، بيت رقّل منتجع باهٍ من الدرجة الأولى، حديقة واسعة، بستان شاسع أكثر من عشر دونمات، آلاف أشجار فاكهة ونخل، زهور استوائية فريدة، خادمتان، ينقضي الوقت مرحًا ولعبًا

وضحكًا وسعادة. لم تعلم رقَل برجوع حسين، مقابل ذلك دعتها "تبْع" للذهاب معهما إلى بيت شريف خال حسين إن شاءت. هو أيضًا يحب الراشدية، هواءها، بساتينها، زهورها، طبيعتها. حينما بدأ القيادة قال:

– كيلومتر هنا يعادل مليونًا خارج العراق، الخوف من التفجيرات، الاغتيال، سقوط القذائف، أسوق ويدي على قلبي.

أمَّنت رقَل على كلامه:

– كل الناس مثلك، مانع أبي وأمي أن أخرج من البيت، لكنهما وافقا عندما سمعا أنك ستسوق، في الجامعة تقول الطالبة لصديقتها عندما تصل: الحمد لله على سلامتك.

لم تكد تُكمل كلامها حتى سمع صوت انفجار شديد على بعد نصف كيلومتر، نظر إلى الساعة، العاشرة صباحًا، اصفر وجه تبْع:

– متى نعيش في سلام؟

قال حسين:

– الأمر بيدك. إن شئت اليوم نذهب إلى الأردن.

ضحكت رقَل:

– تلك أمنية عمي مروان.

كان ظل البساتين الوارف على الأرض مفعمًا بالهدوء والسلام، مرَّت السيارة على مقهى شعبي صغير خالٍ لا يتواجد فيه سوى بضعة كراسي، كهل يروّح على الفحم بمروحة قديمة متآكلة.

صوت الحافظ مهدي يصدح في الفضاء بصوته العميق مرتلاً آيات من القرآن، كراسي المقهى ومناضده من خوص النخل، تَذكَّر الزنابيل والمراوح التي نقلها مرتين إلى تركيا، داخله شعور عميق أن ذلك تم في عالم آخر بعيد لا يمت إلى هذا العالم قط، وأن السنوات التي انقضت مع هذه العصابة لم تكن سوى لحظات توتر وقلق وخوف مرعبة أورثت توجسًا يقتضي التفكير والتخطيط لاختيار الخطوة الملائمة للفرار، وإذْ اجتازا مقهىً آخر كان فيه شابان يلعبان النرد بمرح وصياح، قال لـــ(نبْع):

- كم أشتهي الجلوس في مقهى كهذا وأتناول الشاي المخدر على الفحم.

قالتْ (نبْع):

- لا تشتهي بعد اليوم، سأعد لك شايًا في بيتنا على الفحم حين نصل البيت.

- والجو؟ الأشجار؟ كراسي الخوص؟

- ما بها؟

- هل ستجلبينها أيضًا؟

ضحك الجميع، قالتْ رقل:

- حتى أنا. كلما أمر من هنا أتمنى ذلك، لكن أبي يمانع، وحينما أسأله عن السبب لا يجيب.

ابتسم حسين:

- هنا يبرز الاختلاف بين المرأة والرجل على أشدّه، لا يعرفون إلى حد الآن معنى المساواة بين الجنسين.

قالتْ رقل:

- يتوقع أبي إن التعصب سيزداد، وإن أمامنا رجعة كبرى إلى الخلف، وأن تطورنا توقف.

أكدت (نبع):

- هذا صحيح. سيطرة رجال الدين تعني التخلف.

- إني حزينة على جدي صبحي، دائمًا يتذكر عمي مروان، لم يقتنع لا هو ولا جدتي سامية باللحاق به في الأردن.

قال حسين:

- لم أره منذ سافر. لم يتهيأ لي الذهاب إلى عمان، كيف حاله؟

- قتلته الوحدة، مشتاق لنا، لا ينى من تحذيرنا وحثنا على اللحاق به.

قطع حسين كلامها بإيقافه السيارة حالاً، ثم التفت إلى الخلف. كانت السيارة تحت ظل صف طويل من أشجار الخوخ والدراق، وكانت الورد البيضاء والوردية تحجب أشعة الشمس وقد تساقطت بكثافة غطت الأرض، لتوحد الأرض مع السماء في اللون الزاهي، نزل من السيارة، أشار إليهما أن ينزلا، قال:

- أيوجد في كل العالم منظر جميل كهذا؟ الورد يحيطنا من كل جهة.

ضحكت رقل:

- أنت على حق. لكنك نسيت أجمل الورود.

قالت ذلك ونظرت إلى "تبْع"، ضحكت هذه:

- وماذا عنكِ؟ استأنف حسين القيادة. سأل رقل:

- ألم تقرروا؟.

ابتسمت بحزن:

- لا. يقول جدي صبحي إن الأمور ستستقر، قضية وقت، هو مطمئن، يعمل بالمستشفى عند المالك الجديد مع أبي وأمي، فلماذا العجلة؟ اتفقوا أن يبقوا عاملين فيها المدة التي يشاءونها، لأن المشتري صديق لعمي كان يعيش في بريطانيا، جاء قبل أشهر، يريد توسيعها ثلاثة أضعاف.

- أي أنه سيستغل الحديقة الكبيرة الخلفية والحديقتين الأماميتين الصغيرتين.

- نعم.

- وهذا ما يجنن جدك صبحي.

- إنه الآن نصف مجنون، كان يعبد الحديقة في المستشفى والبيت، ألا تراه أحالهما إلى جنة؟.

ضحك حسين من كل قلبه، قال:

- إذا قضي على الحديقة سيهرب إلى عمان، كل قائمة دواء يسلمني إياها عمك مروان، يسلمني مثيلها جدك صبحي لكن لبذور الورد.

سألتْ (نبع):

- هل تفهم ما فيها؟.

ابتسم:

- من يفهم؟ كلا القائمتين بالإنكليزية، أسلم الأولى للمذاخر الطبية، والثانية لمحلات الزهور.

- البيت واسع عليكم وحدكم؟

- يأتي قسم من أعمامي بين الحين والحين من الموصل أو أخوالي من كربلاء.

- مَنْ عندكم الآن؟

- لا أحد. ذهبت أنا وأبي وأمي وجدي إلى الموصل، هذه هي المرة الثالثة منذ هجرة عمي مروان، التقينا عمتي سُكينة وبقية أعمامنا، قبل أن يهاجر عمي مروان حاول إقناعهم بالهجرة وترك العراق لأنهم سيقضى عليهم إن بقوا، لكنهم ضحكوا علينا، حاولنا هذه المرة إقناع عمتي سُكينة فهي وحدها، قلنا لها تعالي عيشي معنا، هي صديقة جدتي سامية الروح بالروح، وعدتنا، لكني لا أعتقد أنها ستأتي، متعلقة بحفيدها عمر، ثلاث سنوات، حرك لا

يستقر، يمسك ذيلها أين تذهب ويلحقها، يقول عو عو عو. يعني قطار وهي تضحك.

- لماذا وحدها؟

- زوجها لواء ركن اغتالوه قبل سنة.

- وابنها؟

- طبيب مختبر، كم ألـــحَّ عليه عمي مروان من قبل، وجدي الآن أن يأتي ويعمل معنا في المستشفى لكنه رفض.

صمت حسين برهة ثمّ قال:

- عمك مروان على حق، إن لم تخرجوا كلكم فستبادوا، أو تُهجَّروا بالقوة ويُصادر كل ما تملكون.

- كيف تعرف؟

جاء سؤال رقل في وقته تمامًا ليضرب بقوة المبدأ الذي حاول أن يلتزم به بالابتعاد عن الإفضاء بأي كلمة تخص السياسة، أحس أنه ورط نفسه، فتش عن تمويه مقنع:

- هذا حديث الناس الوحيد خارج العراق، متى ما عرفوا أنك عراقي تنهال الأسئلة، إنهم يتوقعون ذلك، لذا فتحت سوريا والأردن حدوديهما أمام النازحين، حتى من دون جوازات، حدثتك عن العجوز وحفيدها، والعراقية أم زينة!

أجابت نبْع:

- نعم.

- هناك شيء لم أحدثك عنه، خشيت أن تتألمي.

- ما هو؟

- رأيتُ طفلاً في السيدة زينب عمره أربع سنوات وبضعة أشهر، كان يقف أمام الخباز في الصباح، رجله اليسرى حافية واليمنى فيها جورب متسخ، سرواله ممزق، قميصه أبيض، اسودّ من الوسخ، شعر رأسه ملبد، خصل قوية نافرة، لم يكن فيه شيء نظيف قط، لكن عينيه كستنائيتان جميلتان تلمعان، سألت طفلاً أكبر منه في الثامنة يصبغ الأحذية، قال لا أحد يعرف عنه شيئًا، يعرف اسمه صفاء، يقول ماما جنة، بابا بكر فقط، ينام في الشارع، سألت "الشايشي" قال: لا أحد يدري كيف وصل، ومن جاء به! ولماذا وحده؟ شاهدوه هنا قبل ثلاثة أشهر، في هذه الزاوية. أشار إلى تقاطع الشارع على بعد خمسة أمتار، يبكي ويصرخ بابا بكر، ماما جنة لبضع ساعات، لم يسكت، أخذوه إلى المستوصف، دفعوا خمسين ليرة ليراه الطبيب، زرقه إبرة نام على إثرها، ثم رموه على المسطبة هنا، كنت أنام في المقهى، ظل عندي، قبل أسبوعين جاءت زوجتي وأولادي من العراق، أجرت غرفة صغيرة أعيش فيها معهم، لا مجال فيها له، نحن نتلاصق عندما ننام في الليل، لا أستطيع تركه في المقهى وحده ليلاً، طفل، لا أحد يدري ماذا يحصل له! رميته على الرصيف، بكى، تبعني، لكنه اعتاد النوم على الرصيف. "أشار إلى مخدّة ملفوفة ببطّانية قذرة تحت

المسطبة"، أعطيته تلك المخدة والبطانية، كان يخاف من الكلاب، لكنه عرف الآن كيف يدافع عن نفسه، يجمع الحجارة، يضعها قرب رأسه، في الصباح، يقف أمام الخباز، إذا احترق قرص خبز رماه له، عندئذ يأتي وأعطيه أنا استكان شاي، "ثم أشار إلى بائع سمك في زاوية الشارع قرب الخباز"، أحيانًا يترك البعض فضلة أرز، قليلاً من السمك عند عبود، ينادي عليه ليأكلها، راقبته ينظر إلى الخباز باستعطاف، يبتعد عندما يأتي زبون، ويقترب إن كان هناك مجال لكي يراه الخباز، ثم حدث ما لم أتوقعه، ما إن عاد ومعه قرص الخبز المحروق ورآني حتى ركض بسرعة، هجم عليَّ، عانقني وهو يصرخ: عادل، عادل، استغرب "الشايشي" سألني: "أتعرفه؟" قلت: "لا. أول مرة أراه". تعلق بساقي وهو يبكي، ثم تشبث بالمسطبة، جلس قربي، عانقني لم يتركني. رائحته منفرة، القمل يسفو في رأسه وجسده.

هتفتْ "رقل ونبْع" كلاهما:

– ماذا فعلت له؟

– كنتُ أنوي مساعدة أم زينة بخمسمائة دولار لتجد لها غرفة لبضعة أشهر، قلت لها، سأعطيك ألف دولار على أن تنظفي هذا الطفل وتتركيه يعيش معك، وافقت، طلبت، من إحسان أن يمدني بأخباره وأخبارها وابنتها بالبريد الإلكتروني.

– ثم؟

- قال لي إحسان، لم ينسك، دائمًا يردّد "عادل"، شكله تغيّر بعد التنظيف والحلاقة والملابس الجديدة، اعتاد الحياة مع زينة وأمها، أحبتاه.

تساءلت "نبْع":

- وماذا بعد؟

- هذه أخبار إحسان إلى قبل يومين فقط.

- لكنك تقول إنها أرملة وليس لها معيل، فكيف ترميه عليها، وهي حائرة لا تعرف كيف تطعم نفسها وابنتها، لماذا لا نربيه نحن؟

- مسؤولية.

صرخت نبْع بقوة:

- مسؤولية ماذا؟ تضع المسؤولية على أرملة؟ ألا يكفيها مسؤولية طفلتها، أتهرب من الواقع بهذه البساطة؟.

ابتسم، أحس أنها على حق وأنها وضعته في موقع دفاعي:

- ماذا تريدين؟

- أريد أن تقسم أمام رقْل أنك ستتبناه مهما كلف الأمر.

- ومئات آلاف الأطفال الآخرين في سوريا والأردن يأكلون من القمامة، يبيعون العلك، المحارم الورقية، الماء في الشوارع، هل سأتبناهم أيضًا؟

هتفت بقوة:

- أولئك لم نرهم! يستحيل علينا أن نرعى الجميع، مسؤولية الدولة التي شردتهم وقتلت ذويهم، دعنا ننقذ واحدًا في الأقل، أقسم.

ابتسم، رفع يده:

- والله سأتبناه بعد أن أهاجر لأني أفكر بالهجرة، وسأهاجر قريبًا.

عندئذ انفجرت تبكي:

- حتى لو لم نهاجر الآن تبناه، ليظل عندنا إلى أن نخرج.

ابتسم بألم:

- حسنًا. لا تبكي، حتى في العراق هناك مئات الآلاف، عندما أجيء من زاخو أمُر متعمدًا بمخيمات المُهجَّرين في الموصل، أرى البؤس والجوع وآلامًا لا مثيل لها. من سيرعى هؤلاء؟

- لا يهمني. لن أرتاح حتى أرى صفاء بين ذراعيّ، إنه ابني من هذه اللحظة، أشهد الله على قولي.

تنهدت رقل، أرادت تغيير الموضوع رجعت إلى أخبار أهلها:

- إلى قبل شهر كانت جدتي سامية تقول نقلاً عن أخوالي أنهم يؤكدون أن الوضع سيكون أفضل، قابل موسى الأمغر أهل كربلاء، التقى أخوالي، طمأنهم أن لا يخشوا أي شيء وأن ما فات فات، وأنه سيرعاهم رعاية خاصة ويقربهم.

سألت (نبْع):

- الأمغر رئيس الوزراء؟

- نعم. رئيس حزب العصبة أيضًا.

- وماذا يعني ما فات فات؟

ضحكت رقل بقوة ثم سكتتْ وأخذت تضحك مرة أخرى.

- أهو شيء مضحك؟

- نعم. قصة قديمة طويلة سأخبرك بها بعدئذ، المهم أنهم يظنون أن الوضع سيتحسن لكنهم أدركوا الآن أن عمي مروان كان على حق وبخاصة بعد أن كشفت منظمات حقوق الإنسان أن ما يحدث في سجون الحكومة أسوأ مما حدث في أبو غريب، وبعد أن بدأت الجثث مرة ثانية تظهر في الشوارع يوميًّا تلتهمها الكلاب، تطفو على سطح دجلة، بدأ الآن جدي وأبي وجدتي يفكرون بالهرب، أصبح البيت كئيبًا، لولا مرح جدي صبحي المستمر لمتُّ قهرًا.

* * *

فتحت أمينة الباب، كانت تتسمَّع صوت وصول السيارة الصغيرة إلى الزقاق الضيق منذ اتصلت نبْع بها تعلمها أنهم غادروا الراشدية، استقبلتهم بالعناق، كان أريج الدّولمة والسمك يملأ الحوش، بعد العناق هتفت (نبْع):

- سأذهب لأعد لكم شايًا على الفحم.

ثم هُرعت إلى دار أهلها المجاور، بينما صعد حسين إلى خاله الذي كان ينظر إليه من الطابق الثاني جالسًا على كرسي خيزران، متكئًا على "محجّل" الشرفة، أمامه منضدة مليئة بالمقبلات،

الجاجيق، السلاطة، "اللبلبي" الباقلاء بـ"البطنج"، الزيتون، الخبز المحمص الخ. فتح له زجاجة جعة، قال وهو يشير إليها:

- اشرب. ربما تكون هذه آخر زجاجة تشربها.

ابتسم حسين:

- أتقصد أني ربما أقتل؟

ضحك خاله من كل قلبه، ضربه على كتفه:

- لا. ما قصدت هذا، قال لي البائع إنه هُدِّد من قِبَل عصابات السود أن يتوقف عن بيع الخمور، ووصلني تهديد أن أطيل شاربي ولحيتي، مات أملي بالبقاء هنا.

طفقا يضحكان، علق حسين:

- هذا صحيح، علينا أن نهرب كلنا.

- هذا ما وصلت إليه، لكن أتعرف أحدًا من الوزراء في التشكيلة الجديدة التي حدثت البارحة؟

الجعة والمَزّة مغرية، الجاجيق بثومه ورائحته المميزة يأتي بعدها في الإثارة، رشف قليلاً من الجعة، أعقبها بالجاجيق، تناول ملعقة حمص مسلوق، قال:

- أصبحوا كثرة، هربت أنا خمسة منهم، رئيس الوزراء، وزير الداخلية، وزير الدفاع، وزير المالية، وزير النفط، أعرف معرفة وثيقة نائبي رئيس الوزراء مالك الفند "أبو مازن"، علي السادر "أبو حسين"، أعرف ثلاثة عينوا بمناصب عالية جدًا؛ "زيد عبد

الزّهرة النكز" وكيل وزارة الداخلية، "ميثم عبد الحسين الخلاط" أمين العاصمة، "محسن حسون النخيب" قائد شرطة العاصمة، لكنْ ليس لهذا جئت، جئت لنبحث موضوع الهرب.

- أهو عسكريّ؟

- من؟

- قائد الشرطة؟

ضحك حسين:

- لا خريج المتوسطة، أحد أغبى الأغبياء في التاريخ، ليس فيهم كلهم من تخرج في جامعة إلا الأمغر طبيب، ومالك أبو مازن خريج حقوق، أما الآخرون فمعظمهم أميّ، شبه أميّ، أو حصل على شهادات مزيفة في بلد ما خارج العراق.

ابتسم خاله بمرارة:

- تعرف الناس كلهم وعمرك تسعة وعشرون سنة.

ابتسم حسين:

- نعم، والفضل للشاحنة.

ضحك شريف ضحكة خفيفة:

- لم تقل لي ماذا طلب منك أبو مازن قبل ثلاثة أشهر، نسيت أن أسألك؟

ابتسم حسين بألم:

- قال لي سأعطيك خمسين مليون دولار لتنشئ شركة شحن، نحن بحاجة إليها، والربح مناصفة، قلتُ له: "أريد أن أعيش ناعم البال مع زوجتي". ضحك وقال: "توقعت ذلك، لهذا أميل إليك، وأثق بك!"

- أتراه خيرًا منهم؟

- لا أدري. كلهم لصوص، لكنه يبدو أطيبهم.

عاد شريف إلى تجهمه، فسأله حسين:

- أنت متشائم.

- نعم، في غاية التشاؤم، دائمًا يأتي من يحتل العراق، يقتل أهله، يسرق كنوزه، وفي النهاية ينهزم المحتلون ويبقى العراق وحده يلعق جروحه ويراوح في تخلفه، لكنْ في هذه المرة أخشى أن يتمزق، وإن تمزق انتهى، لا أدري ماذا سيحدث في المستقبل، ظلام. ظلام.

- اسمعني، إني جاد، أريد أن نضع خطة لنهرب أنا وأنت و(نبْع) وأمينة، لم يبقَ وقت لدينا.

- فكّر معي الآن ثم ضع خطة لك ولأمينة، أستطيع تهريب نبْع إلى الأردن، لكن الأردن بدأ يخضع لهم لحاجته إلى النفط ولأنه صغير جدًا، ولا تأثير له في السياسة الدولية، وهو أصلاً لا يستطيع التحكم بمصيره.

فجأة رن الهاتف، نظر حسين إلى الجهاز رأى رقم أبي مازن، قال لخاله:

- أبو مازن، انظر إلى المصادفات، تذكرناه فتذكّرنا.

- أهلاً أبو مازن، الحمد لله، الآن؟ تعلم أنني أكره دخول المنطقة الخضراء، لِمَ لا ألقاك في مكان آخر، دعنا نلتقي اليوم مساءً في أبي نؤاس، في هذه الحالة لا بأس، هل تُعطيني ساعة أو ساعة وربع؟.

أصرت "نبْع" أن يرتدي أفضل ما عنده، لا أن يذهب بملابسه العادية، اختارت له أخر ما جاء به من اسطنبول، بزة صوف إنكليزي رمادي مقلم بخطوط رمادية أعمق منه، رباط أزرق، فرضت عليه أن يضع قبعة فرنسية من نفس اللون على رأسه، لمّعت حذاء أسود حتى بات يعكس الأشعة، كان ينظر إليها ويضحك:

- لماذا تتعبين نفسك؟ إنه أبو مازن لا أكثر.

ردت جادة:

- لكنه نائب رئيس الوزراء، أسرع، هيا، قف أمامي.

حدّقت به بإعجاب، حب، فخر:

- الله، سيظنون أنك سفير أمريكا في العراق.

ابتسم:

- لستُ أدري هل يهتم الأمريكان بملابسهم؟.

حينما أراد أن يعانقها دفعته:

- لا، سيتعقّص القميص.

أصوات الانفجارات تترى، قريبة وبعيدة، كان يسوق ويده على قلبه، يتمنى أن يغادر مع نبْع وأهله العراق في أقرب وقت ممكن، في كل تقاطع دورية تفتيش، هناك المئات يقفون بسيارتهم ينتظرون دورهم، لولا كتاب رئيس الوزراء بعدم التعرض لما وصل المنطقة الخضراء بثلاث ساعات، لماذا استدعاه أبو مازن؟ مضت مدة طويلة منذ التقاه آخر مرة، ما مصيره إن انفجرت سيارة في طريقه؟ سيموت، ستموت نبْع وهي حية، سجّل اسمها وعنوانها في المصرف في تركيا، سترث كل ما حصل عليه من ملايين إن قُتل، لكنها لن تتمتع بها قط، ستفقد طعم الحياة إن ألمّت به مصيبة.

فجأة ووجد نفسه أمام الركائز الكونكريتية، نقاط التفتيش، أجهزة الاستشعار الإلكترونية قرب المنطقة الخضراء. نظر إلى الساعة، لم يأخذ منه الطريق إلى المنطقة الخضراء سوى نصف ساعة فقط، يملأ المسلحون المدججون المكان، انقبض قلبه، أتعس اللحظات التي تمر عليه هي التي يتجه فيها إلى هذه المنطقة، ثم يأتي بعدها نقاط التفتيش على الحدود عندما يكون لديه بضاعة للتهريب، لا قيمة لكتاب رئيس الوزراء في المنطقة الخضراء، الغزاة فقط هم المسيطرون، يعملون وفق حساباتهم، لا يقيمون وزنًا لأحد، لا رئيس وزراء ولا رئيس جمهورية، يجب أن يجتاز عدة نقاط تفتيش، في كل نقطة جهاز لكشف السلاح والمتفجرات.

الاجتياز سهل قياسًا إلى نظرات الشك الوقحة، الازدراء، التعالي، الأوامر، الصياح، السب، الدفع بقوة، سحب الإنسان الفجائي من السيارة كما لو كان كلبًا. منطقة ضياع كرامة العراق والعراقيين لا منطقة خضراء، وجد أمامه بعد أن اجتاز التفتيشات المحطّمة للأعصاب موظفًا في باب رئاسة الوزراء ينتظره، لاشك أن أبا مازن أعطاه أوصافه، في الأربعين، نحيل أسمر، لم يره من قبل، على عينيه عوينات ثخينة اختفى طرازها منذ عقود، لماذا يغيرون رجالهم دائمًا؟ هتف الموظف متسائلاً ما إن رآه:

- حسين؟

- نعم.

- تفضل.

بدا له أن أبا مازن استعد لينفرد به، لم يرَ كما في السابق أحدًا عنده، أغلق الموظف الباب وراءه، لابد من شيء مهم، رمى أبو مازن أحد الملفات حين رآه، نهض، عانقه، نظر إلى ملابسه الأنيقة:

- تعال اجلس مكاني، أنت أكثر مني أناقة.

- إن كانت المناصب بالأناقة فسأجلس مكان أبي كرش!

قهقه أبو مازن:

- أنت إلى حد الآن نظيف، أتريد أن تتلوث؟.

- لكني منذ أن وصلتم إلى السلطة لوثتموني معكم.

- فقط في نقل المال إلى البنوك السرية في الخارج، هذا أبسط أنواع التلويث.

- أرغمتموني ضد إرادتي.

وضع أبو مازن يده على صدره كأنه في قاعة المحكمة:

- أشهد على ذلك.

ابتسم حسين:

- جيد أن تقوّم من تعملِ معه!.

- أعرفهم على حقيقتهم.

قال ذلك وركّز على عينيه، ثم ابتسم ابتسامة واسعة فتبدّت خطوط المغناطيس واضحة من زاويتي فمه، ارتشف قليلاً من الشاي، قال حسين:

- أعرف ما وراء الابتسامة، كم ربطة ولمن؟.

- لا، ليست ربطة.

- بضاعة؟.

- نعم.

- ربطة نعم، بضاعة لا، لا أستطيع، لماذا ارتديت هذه الملابس؟.

- أعجبتك، أنت شاب وسيم أنيق.

ضحك حسين:

- لا. الربطات تقتضي الأناقة، أما البضاعة فرداء شعبي.

- إذاً؟.

قرَّب عينيه من عيني أبي مازن:

– لتباعد السفرات أشعر أني غريب على الشاحنة، سأترك العمل معكم، سأفتح محلاً لأدوات غيار السيارات، أعرفت الآن؟

قهقه أبو مازن، عيناه رماديتان صافيتان ضاحكتان، ينفذ إليهما المرء بسهولة، لماذا يعتقد أنهما بريئتان؟ يعجبه طريقة حديثه عندما ينفعل، فينزوي خطان عموديان متساويان على جبهته، ابتسم:

– من أصحاب الملايين ويبيع أدوات غيار السيارات؟ فكّر بشيء أرقى! مصيرك معي في قصر على ساحل مرمرة لا في هذا المستنقع! دعنا نقفز قفزة واحدة، نركل الشقاء وأهله، نستقر على قمَّة جبل سالمين.

– لكن المنصب حجزك، هذه مدة طويلة!

أشار أبو مازن إليه أن يسير معه، خرجا من الغرفة، نزلا إلى الطابق الأرضي، تجاوزا عشرات الحراس الأمنيين، عراقيين، مرتزقة، أمريكان، كانوا يروحون ويجيئون، يضحكون، يتبادلون الرأي في الممرات الطويلة التي لا تنتهي. توقفا خارج المبنى في منطقة أشبه بحديقة مفتوحة حيث لا يسمعهما أحد، واجهه أبو مازن، قال وعيناه الرماديتان تلمعان:

– هذا هو الأسبوع الأخير لي هنا، وعدتهم أن تقوم بالمهمة.

هزّ حسين رأسه:

- ولا مرة.

- اسمعني جيدًا، إن لم تنجزها تقضي عليَّ، والحمزة والعباس وعلي واللهِ واللهِ هذه أخر مرة، رجاءً، نحن بين نارين، أمريكا من جانب والشر من جانب آخر.

- المقاومة؟

- أي مقاومة؟ هؤلاء الكلاب السود الطفيليون الصراصير الذين رفعنا عنهم غطاء المراحيض، فاندفعوا في الزوايا كلها، يبحثون عن جيف يأكلونها بدل البراز، عاثوا فسادًا، أقسم لك أنها أخر مرة.

سحب حسين نفسًا عميقًا، ركّز ذهنه:

- عشتَ أنت حياة طويلة سعيدة، كنت ملكًا في اسطنبول، أما أنا فيتيم وحيد، لا أم لي ولا أب، في الوقت الذي تزوجتُ فيه وأردت أن أعيش كباقي الخلق ظهرتم في حياتي، خدعتموني استغللتموني أسوأ استغلال بطريقة لا إنسانية، لا يرضى عنها دين، أخلاق، عرف. سممتم عيشي، قلبتم سعادتي إلى شقاء، سلامي إلى جحيم، كنتم زوجة أخرى تنغص عليَّ وعلى زوجتي كل لحظة طيلة سبع سنوات، دعني أقترح عليك شيئًا، الملايين التي أعطيتموني‌ها موجودة في تركيا، سأرجعها كلها مقابل أن تحررونى، تتركوني أحيا مع زوجتي، إنها حامل، أريد أن أرى وجه طفلي أو طفلتي، أداعبه كباقي الناس، ما رأيك؟.

ضحك أبو مازن:

- قلتُ لك والعباس والحسين وعلي وحمزة، واللهِ واللهِ هي المرة الأخيرة، هناك مفاجأة لك ستراها في اسطنبول، وسر لا أستطيع البوح به هنا، لكني سأبوح لك به، إن عرفوا يقتلوني حالاً. اسمعني رجاءً، أريد أن تترك العراق، لا أستطيع أن أقول لك كل شيء، سينقلب إلى جحيم بعد خروج الأمريكان، إنهم مصممون على إبادة ملايين الأبرياء، اسمعني، لا تركب رأسك، أريد أن تعمل معي في الخارج، اشتريت بيتًا لك في اسطنبول في أرقى حي، ستجدني هناك في استقبالك، سجلت البيت باسمك، حين تصل نذهب معًا للتوقيع فقط، وخذ المفتاح، البيت واسع، مُطل على بحر مرمرة، تستطيع أن تجلب زوجتك، عائلتك كلها، تقطع علاقتك مع العراق حتى يستقر.

- قلتُ لك لا أريد شيئًا، أريد راحة البال.

همس أبو مازن بلهجة أنيسة:

- بعد هذه الرحلة، والله سترتاح، انظر وضعت حياتي وسري بيدك، أهذا كافٍ؟.

طريق الكوارث

حين حاول حسين أن يدخل بستان الحلة نفسه السادسة صباحًا فوجئ، توقف، جمع هائل من العسكريين مُدجَّجين بالسلاح، نظرات مستفزة، تقدم منه ضابط برتبة عقيد، طلب هويته، باغته صوت قوي من داخل البستان بلهجة صارمة:

– دعه.

أبو مازن وعلي أبو حسين ينتظرانه على مائدة طويلة في ظل خيمة عسكرية كبيرة حولها مئات الحرس، يلتفون في دائرة نصف قطرها خمسون مترًا، لا يرى غير ظهورهم، تماثيل مرصوفة ترتدي الزّي المبقع لقوات الصاعقة، أيديهم على زناد رشاشاتهم السود، أوقف حسين الشاحنة، ترجل، هرع نحوه أبو حسين بكرشه الكبير عانقه، شدَّ على يده، لوى رأسه إلى اليمين فبدت عينه اليسرى الجاحظة بوضوح تكاد تندلع، تساءل ألا تخاف زوجتُه من النظر إلى جحوظه أم اعتادت ذلك؟ عاتبه:

– لماذا هذا الدلال؟ لا تزورنا إلا بمخابرة! غيرك يدفع الرشوة لكي يلقي نظرة يتيمة علينا.

مدَّ حسين يده إلى محفظته، أخرجها:

- حسنًا سأدفع رشوة أنا أيضًا.

قهقه علي أبو حسين وأبو مازن في وقت واحد، قال الأخير:

- ما أذكاه!

انسحب علي إلى داخل البستان، بينما نهض أبو مازن، تقدم منه:

- قلتُ لك ثق إنها الأخيرة.

- لماذا تستقيل؟

- لا أستطيع البوح هنا.

- سأظل قلقًا.

- لا تقلق. اطمئن.

تساءل حسين:

- أين البضاعة؟

انفجر أبو مازن ضاحكًا بقوة:

- يتذكر الأمغر ذلك كلما يراني. يذكرك كثيرًا.

- سأزوره بلا ريب عندما أرجع.

- لن ترجع، سأبقيك معي في اسطنبول، سأصل قبلك، سنثرثر وحدنا، عندي موضوعات كثيرة.

الأرض تحت الخيمة معدلة، مغطاة بحصى ناعم، فرش فوقه زرابي إيرانية جديدة زاهية، على المنضدة خبز وفطور عراقي كامل، باقلاء بالدهن، قيمر، "كاهي" ودبس أسود ثخين، جبن، لبن جاموس. ابتسم حسين وهو ينظر إلى المائدة، فسأله أبو مازن:

- لماذا تبتسم؟

- هذه هي المائدة التي يرضى عنها الأمغر لو كان فيها باجة.

- يحب الأكل فعلاً.

نقل حسين نظراته إلى الحرس، لم يلحظ أيًا منهم يلتفت، ينظر إليهما، قال أبو مازن:

- تفضل.

- حتى يأتي أبو حسين!

- لا عليك. أكل قبل وصولك، انتظرتك أنا.

قبل أن ينتهيا من الإفطار جاء علي ورجل في منتصف ثلاثينياته، متين البنية أسمر، عيناه صغيرتان حمراوان، خُيِّل لحسين أنه لم ينم أيامًا، شاربه كث أسود، يرتدي كوفية سوداء مرقطة بالأبيض، وعقالاً بغداديًا، ملامحه غضبة متجهمة، يسير وراءه ثلاثة مسلحين يحدقون مستفزين في جميع الجهات، يحمل أحدهم حقيبة صغيرة سوداء، أما الجنديان الآخران فيحملان حقيبة رمادية أكبر بدت ثقيلة، كل منهما يمسك بسير، أنزلوا الحقيبتين على الأرض قرب الشاحنة، ثم انضموا إلى باقي الحرس، أداروا ظهورهم إلى الخيمة، جلس الرجل الغريب معهم دون أن يسلم، خمن حسين أنه هو البضاعة، بدأ يأكل بشره، لا يرفع عينيه عن الطعام، أكمل فطوره، شربوا الشاي، نهض حسين، رافقه أبو مازن عن يمينه. همس بأذنه:

- سنلتقي.

ابتسم حسين، سلمه أبو مازن ظرفا صغيرًا مفتوحًا، قال فيه، هذا من مكتب السيد رئيس الوزراء كي لا تفتشكم المفارز في الطريق، إن توقفتم في كل نقطة تمكثون يومين لكنْ إن أبرزت هذا الكتاب تمر حالاً. ضحك حسين، سأله أبو مازن عن سبب ضحكه، قال:

- عندي عشرات مثله، كلما أسافر يجهزوني بكتاب رسمي كهذا.

شاركه أبو مازن ضحكه:

- احتياط. مكافأتك هي الأضخم، موجودة في اسطنبول.

هز حسين رأسه، التفت إلى علي أبي حسين وهو يشير إلى الغريب:

- هل شرحت له ما يتوجب عليه أن يفعل في مراحل الطريق؟

- نعم.

- لنتوكل.

صعد إلى الشاحنة، ارتقاها الغريب من الناحية الأخرى، قال له حسين:

- ضع حقيبتيك على الرف.

تجهّمت تقاطيعه نظر إلى حسين وعيناه الصغيرتان تتفجران شررًا، ابتسم حسين، لو كانت نبْع هنا لارتعبت منه، فتح الغريب باب الشاحنة، صرخ:

- عبد الحسن.

هرع أحد العسكريين الثلاثة الذين كانوا يرافقونه وقف قرب الباب، رفع يده بالتحية وهو يرتعد:

- نعم سيدي.

- اصعد. ضع الحقيبتين على الرف.

هتف الجندي بقوة:

- نعم سيدي.

نزل الغريب من الشاحنة، وقف يراقبه، نظر باستعلاء نحو حسين، وضع العسكري الحقيبة السوداء بيسر، أما الرمادية فأتعبته عندما رفعها، شرع يلهث ثم نظر إلى الغريب، قال:

- أهناك شيء آخر سيدي!.

صرخ هذا:

- لا. اذهب.

- نعم سيدي.

استدار حسين بالشاحنة داخل البستان، أصبح مواجهًا لأبي مازن وعلي أبي جسين، رفع يده مودعًا، لوحا له وهما يبتسمان، ابتعد، توجّه نحو الموصل، كان يلوح بكتاب رئيس الوزراء ما إن يصل نقطة تفتيش، يهرع إليه مسلح يأخذ منه الكتاب ليريه آمر المفرزة، عندئذ يفسح له المسلحون المجال بالمرور، اجتاز عشرات المفارز ونقاط التفتيش، حتى إذ بلغت الساعة الثانية عشرة والنصف كان قد تجاوز أخر نقطة تفتيش قبل زاخو، بعد

ربع ساعة وصل مشارف الحدود الدولية، لم يكن يهتم لنقاط التفتيش في الداخل والخارج لولا البضاعة المهربة، باتت عملية المرور روتينية لا تسترعي القلق، أوقف الشاحنة، قال للغريب:

- افتح الحقيبتين، دعني أرى ما فيهما.

أجاب الغريب مستفزًا وبصوت عالٍ:

- لماذا؟.

- لأني أعرف ما هو المسموح فأبقيه هنا وما هو الممنوع فأضعه في المخبأ.

- ضعهما كليهما في المخبأ.

هزّ حسين رأسه:

- لا. لا يمكن.

قال ذلك ثم انحنى، ضغط على الزر تحت دواسة الفرامل، انفتح الباب، ظهر المخبأ واضحًا، أشار حسين إلى المخبأ:

- أين ستقف؟ وأين سنضع الحقيبتين؟.

صرخ الغريب بغضب وهو يكز على أسنانه:

- لماذا لم يقولوا لي؟

- ماذا يقولون لك؟

- المخبأ صغير كهذا؟

ابتسم حسين ابتسامة عريضة وهو ينظر إليه:

- ليس عندي مانع إن أردت أن ترجع إليهم وتسألهم. تفضل؟

- أترجعني؟

- لا. لماذا أرجعك؟ أنتظرك في فندق في الموصل.

صرخ بغضب:

- تسخر مني؟

لم تفارق حسين ابتسامته، قال بهدوء:

- معاذ الله، سأتفق مع سائق سيارة أجرة، أدفع من جيبي له، أوصيه أن يذهب بك إلى أي منطقة في العراق، اسأل من تريد ما تريد ثم ارجع، أنا سائق، أقوم بواجبي، أحترم الجميع.

فكَّر الغريب برهة وقال:

- حسنًا.

فتح الحقيبة الأولى ظهرت بذلة سوداء وأخرى صفراء فاقعة تلمع، بضعة قمصان معظمهم سود، فيهم آخر أحمر مخطط بالأصفر، "دشداشتان"، جوارب، غيار داخلي، كيس نايلون صغير ملفوف على شكل أنبوب، محاط بحلقة مطاط، قال حسين:

- افتح الكيس.

صرخ الغريب بعصبية:

- قل رجاءً.

كبت حسين ضحكة:

- رجاءً.

ثم ضحك، صرخ الغريب:

- لماذا تضحك؟

- لأن المفتش لا يقول لك رجاءً، إن فتحت فمك بحرف واحد يرجعك إلى المكان الذي خرجت منه.

- لكنك لست المفتش.

ابتسم حسين:

- هذا صحيح، أهتم بالتفاصيل كي لا يرجعك المفتش.

فتح الغريب الكيس، أفرغ ما فيه على قميص أسود، تطاير نحو خمسين وحدة من مانع جنسي مغلف بنايلون أصفر، بينما سقطت علبة صغيرة فيها نحو خمسين حبة بنفسجية اللون، مكتوب عليها "فياجرا"، ابتسم حسين، سدَّ الغريب الحقيبة الأولى، تساءل محرجًا كمن يريد تمرير شيء محرج لا يريد أن يطلع عليه أحد:

- ألا نستطيع أن نضع الحقيبة الثانية بما فيها في المخبأ معي؟

قال حسين بهدوء:

- جرب. تعال قف هنا.

وقف الغريب في المخبأ، لم يبقَ سوى قدم واحد فارغ في الأعلى.

- نستطيع أن نضعها في الأسفل على أن تقف أنت فوقها، أو على رأسك، تستغرق إجراءات التفتيش بين عشرين دقيقة وساعة، حسب الازدحام، هل تتحمَّل ذلك؟.

- لا. ذلك خطر.

- لماذا خطر؟ أرني الموجوذات، فلعلي أستطيع تنظيمها بشكل مأمون.

زفر الغريب ساخطًا وبدأ يجر سحاب الحقيبة، قال حسين:

- أخرج كل شيء وضعه على المقعد أمامي لأراه بوضوح.

حدَّق به الغريب غاضبًا، عاد الشرر ينبعث من نظراته، صرخ بعصبية مرة أخرى:

- هذه أسراري الشخصية، عليَّ أن أسترها، لو كنت أعرف ذلك لما خرجت من بغداد.

- قلتُ لك ارجع الآن إن أردت الرجوع، لا مانع عندي.

- الآن بعد أن وصلنا إلى هنا!

- لم يأخذ منا الطريق سوى ست ساعات. ست ساعات لا شيء.

زفر الغريب وتأفف بمرارة مرة أخرى وبدأ يخرج ما في الحقيبة الصغيرة، كان في الأعلى كيس من الخام الأسمر الثخين، فيه شيء يتحرك، قال حسين:

- افتح الكيس.

- لكنها عربيد.

- ما معنى عربيد.

- أفعى.

ضحك حسين:

- ماذا تفعل بالأفعى؟

- ألعبُ بها. إنها هوايتي، أنا أصيد الأفاعي في أوقات الفراغ.

- يمكنك شراء واحدة في اسطنبول.

- ولماذا أشتري؟ هذه المفضلة عندي، أجمل حيّة في الدنيا، نادرة.

- أهي سامّة؟

- لا.

زفر حسين:

- الحمد لله وإلا كنت رميتها.

- لا تستطيع.

تجاهله حسين، ردَّد بحزم وهو ينظر إلى عينيه بتركيز:

- أخرج كل شيء.

التقط رزمة دولارات مشدودة بإحكام بخيط نايلون، ربطة كبيرة ملفوفة بعناية بورق جرائد محكم بلاصق، وضع الشدتين تحت إبطه، فتح الحقيبة بكلتا يديه ليظهر ما فيها واضحًا:

- انظر.

حدَّق حسين في الحقيبة، قنابل يدوية، مسدس مع كاتم الصوت، رشاش مفكك، سبع شاجورات، أربع جامعات، مثقب كهربائي، سكاكين مختلفة الأحجام، شفرات حادة حديثة، كلابتان خاصتان مدببتان، ساطور، مخارز، مقص لقضم الأغصان، سبعة خطافات

جزارة لتعليق اللحوم، كلها مبقعة بدماء جفت عليها بضع طبقات.

هتف حسين برعب:

– ما حاجتك إلى هذه الأشياء؟

ابتسم الغريب:

– أدوات العمل.

– أي عمل؟

– ألا تعلم؟

– لا.

– ألم يقولوا لك؟

– لا. ماذا أعلم، ماذا يقولون لي؟

حدَّق الغريب به في اعتداد، رفع صدرًا يكتنز بإنجازات عظمى يعجز عنها الآخرون، قال بصوت منخفض مليء بالفخر:

– عزيزي. أنت إمَّا ابن قحبة أو بريء، كيف تعيش في العراق ولا تعرف أدوات الاستنطاق الحديثة!.

كتم حسين غيظه، قال بهدوء:

– لا تعتدِ على كرامة الآخرين، أنا لست ابن عاهرة، أنا ابن امرأة شريفة.

– لا أقصد إهانتك، هذه مفرداتنا ننادي بعضنا بها: قحبة، مخنث، قواد الخ، هكذا.

– أنا لستُ منكم، أنا رجل أحترم نفسي.

لم يلتفت الغريب إليه وأكمل:

– يبدأ الاستنطاق بالجامعة نضعها في معصمي العدو، ثم نهدده إن لم يعترف نطبق الجزء الثاني. تناول الشفرات الحادة الصغيرة، انظر إليها كم هي حادة! حدّق حسين فخطف لمعانها الشديد نظره. ندخلها بين ظفر الأصبع واللحم لنسيطر على الظفر، ضحك من كل قلبه، آه لو تراهم كيف ينتفضون من الألم، يرتفعون، ينخفضون، يضربون الأرض، الحيطان يتحركون بجنون، يفقدون وعيهم، عندئذ نطلب منهم الاعتراف ثانية، فإن لم يعترفوا نتناول الكلابتين ننزع الظفر عن الإصبع فيصرخ العدو حتى ينفجر حلقه من الألم، جمع حسين أصابع يديه بحركة لا شعورية، كأنه هو الضحية مع إحساسه بألم في صدره، فإن لم يعترف نقطع أصابعه واحدًا فواحدًا بهذا المقص، تناول مقص تقليم الأشجار، بعدئذ نحن أحرار، نثقب عظامه بالمثقب الكهربائي، أو نقطع لسانه، آذانه، نخرج عينه بإحدى السكاكين، نعلقه بالخطاف ثم نقص ذكره وخصيتيه، نقطع لحمًا من فخذه، نفعل به ما نشاء، وإن أردنا أن نرحمه نقطع رأسه بالساطور ضربة واحدة مع صرخة: يا عليّ يا كرار. طق. وينفصل الرأس.

قال ذلك وأخذ يضحك بانتشاء، كان حسين يسمع وقلبه يتهافت، إذًا هكذا عذبوا والده وخاله وآلاف الأبرياء، بدأت نفسه تغثو، كاد يتقيأ، هتف بسخط:

- لماذا جئت بهذه الألغام؟ أتريد تنفيذ مهمة في الخارج؟

حدَّق به الغريب غاضبًا:

- قالوا لي إنك لا تسأل أي سؤال.

- هذا صحيح. لا أسأل عن أي شيء يخصك، لكنْ يجب أن أعرف كل شيء عن الحمولة، أخاف على نفسي لا عليك، أخشى أن يقبض عليك الأتراك ومعك الألغام، ستُجبر على الاعتراف بأفعالك، ستعدم من دون شك، أنا سأعتقل، أدان لتهريبك فقط، أنا أتفادى قضاء يوم واحد في السجن لأي سبب.

بُهتَ الغريب، غيَّر مجرى الكلام:

- هذه ليست ألغامًا، مستلزمات العمل، أدوات مهنة.

- مهنة ماذا؟

- الجزارة، أتقنتُ مهنة الجزارة مع الحاج شناوة عشر سنين، بوساطتها أنجزنا ثلث المهمة.

- ماذا تقصد؟

- مهمتنا لم تنتهِ، العراق مليء بالأعداء، يجب التخلص منهم أو تهجيرهم، بغير ذلك لا يُحكم السيد السيطرة على البلد، سيبدأ المؤمنون بتنفيذ الباقي بعد انسحاب قوات الغزو، سنسمع الأخبار في تركيا.

- لماذا استبعدوك إذًا؟

- ورطنا الأمريكان، شجعونا، أعجبوا باختراعاتنا، معاملاتنا، أكرمونا، لكن الأمور تغيَّرت بعد كشوفات أبو غريب وسجوننا السرية، خشي الأمريكان على سمعتهم، تنصلوا منها ومنا، رموا كل شيء على رؤوسنا، أخذوا يلوموننا على أفعالنا خشية أن تتدخل منظمات حقوق الإنسان الأوربية فتنفضح التجاوزات السرية.

- ألم تساهموا معهم فيها؟.

- بلى ساهمنا معهم، جرى كل ذلك بإشرافهم ومشاركتهم وتشجيعهم، لكن الكشوفات أوقفت التعاون مؤقتًا، لابد أن يعودوا للعمل معنا إن أرادوا أن يبقوا في العراق، نحن مخلصون لهم، لكن تحت خطط أخرى لضبط السرية.

- لكن لماذا لم تتخلص منها هناك، إنها مستمسكات قاتلة تقود إلى الإعدام.

- في العراق؟

- نعم.

- كان هذا رأيي لكنهم لم يوافقوا عليه؛ قالوا إن تخلصنا منها في العراق فأقمار الأمريكان الصناعية وطائراتهم من دون طيار تستطيع كشف الإبرة تحت خمسة أمتار من التراب، لا نريد أن نعطيهم أي مستمسك، لكن علينا أن نرتب الأمر في تركيا، وهناك ينتظرني عمل.

- ما هو؟

- سر.

- ما تلك الرزمة، افتحها.

- لا أستطيع.

عاد حسين إلى لهجته الحازمة ونظراته المركزة:

- لا يوجد قانون في الشاحنة يبيح استعمال كلمة لا أستطيع، افتحها، أنا من يقرر هنا.

حدّق الغريب بحسين بحدة، لكن هذا لم ينزل عينيه، ثم أخذ يفتح الرزمة، اندلقت مئات الصور، سقط منها قسم كبير في الحقيبة المفتوحة وعلى أرضية الشاحنة، لم يبقَ بيد الغريب سوى نحو مئة ورقة، بدت وكأنها قوائم أسماء وعناوين، أمسك حسين بعض الصور، نظر إليها، جثث مقطعة، أعين مفقوءة، بطون مفتوحة، أطفال مقطوعو الرؤوس، نساء عاريات مشدودات من القوائم الأربع ورجال يمارسون الجنس معهن، ذكور بمختلف الأعمار مقطوعة أعضاؤهم الجنسية، شباب مربوطة ركبهم إلى صدورهم وآخرون يمارسون الجنس معهم، رجال نساء أطفال جالسون على عصي حديد مثبتة على الأرض وأعينهم تدلق معاناة لا توصف، صور أخرى بالمئات، غشيه غثيان شديد، كاد يتقيأ، رماها، هتف:

- ما هذا؟

اتخذت ملامح الغريب مسحة عنف واضحة، صاح بقوة:

- صور الأعداء.

- فيهم أطفال ونساء.

- كلهم أعداء، هم السبب، لم يعترفوا، نستنطق زوجاتهم، بناتهم، أمهاتهم، أولادهم. كيف نظفنا المناطق التي سيطرنا عليها؟

- لكنهم أطفال!

- سيصبحون رجالاً بعد بضع سنين وينتقمون منا.

احتد حسين، أخذ يرتجف:

- هذا في العراق، لماذا جئت بها إلى تركيا؟

- كيف نثبت أعمالنا؟ كيف يدفعون لنا إن لم نحتفظ باسم العدو، عنوانه، صوره؟

- لكنهم دفعوا لك في العراق لقاء ما فعلت، لماذا تجلبها معك إلى تركيا؟

- لا. لم يدفعوا لقاء الكل، قالوا إنهم سيدفعون في تركيا، لماذا أحضرت القوائم معي إذن؟ هناك عشرات آلاف المنفذين لم يتسلموا سوى عُشر أجرهم، إنهم ينتظرونني كي أرسل مستحقاتهم، تزيد على خمسمائة مليون دولار.

أغمض حسين عينيه برهة، تنفس بعمق:

- نحن متورطان، أنا شريكك الآن.

- ماذا ستفعل؟

- سنرجع إلى أقرب قرية مأهولة، ونشتري أشياء تساعدنا على إخفاء هذه القاذورات.

توقع حسين أن يثور، لكنه لم يفعل شيئًا، أخذ يلم الصور ويعيد ربطها، رجع بالشاحنة نحو كيلومترين، رأى قرية عن بعد، توقف قرب دكان من طين، البائع شيخ عجوز يجلس على حصير يتكئ إلى جدار، قربه مذياع صغير، يبث تلاوة لقارئ شاب. يُغمض العجوز عينيهِ يُحرك شفتيه، في الدكان الصغير فتاة بعمر عشر سنوات تجلس على عتبة المبنى، نحيفة ذات عينين واسعتين نجلاوين، شعر حنيّ مضفّر بقصبتين طويلتين، اقترب منها، نهضت، ابتسمت ابتسامة واسعة، شفتاها رقيقتان جدًا، بانت أسنانها بيض صغيرة، لو كانت نبْع معه لأحبتها، كم تحب نبع الأطفال! تتمنى واحدًا أو واحدة، ظلت تحدّق به مبتسمة، تذكّر حاجته، طلب منها شدة أكياس نايلون ولفة لاصق كبير، أعطاها النقود، نظرت إليه، سألته إن كان لديه عُملة أصغر قال لها:

- خذي الباقي.

ابتسمت وأشارت إلى حلوى ولبان متنوع ورقائق بطاطس مقلية و"كرزات" وسجق وملبس موصليّ وفاكهة مجفّفة، وعلب زيتون تركيّة، قالت: "خذ ما تريد". أنهت كلامها بابتسامة واسعة أخرى لتقنعه، شعت ثانية أسنانها الصغيرة البيضاء، غمره الابتهاج فجأة، تذكر ابتسامة نبْع، ضحك ضحكة صغيرة بسعادة، كان لابتسامتها قدرة جبارة غسلت قذارة الغريب، أعطاها ما يعادل عشر دولارات أخرى، انصرف من دون أن يأخذ أي شيء وهو

يسمع كلماتها الرقيقة مع ضحكة بريئة، ابتعد باتجاه الطريق الدولي الذي جاء منه، توقف قبل أن يدخله، أحكم إغلاق الأبواب، التفت إلى الغريب وأمره:

– ضعْ صور الجرائم البشعة وقوائم الضحايا في كيس نايلون، لفّها باللاصق، أدخِلْ النقود في كيس آخر.

ثم وضعَ بنفسه القنابل اليدوية في كيس، بقية الأشياء في أكياس متعددة، رتَّب الرزم كلها واحدة قرب الأخرى في جدران المخبأ الأرضية، أحكم تثبيتها بالجدار مستعملاً اللاصق، بحيث لا ينفصل عن الجدار أي كيس مهما تحركت الشاحنة، أصبحت الحقيبة الرمادية فارغة، وضعها على الرف، قال للغريب:

– جرب أن تقف الآن. وقف الغريب في المخبأ، ناوله كيس الأفعى: هذه ستبقى في يديك طيلة التَّفتيش.

– لا أستطيع إبقاءها في يديّ أكثر من خمس دقائق، يداي ساخنتان.

– ثم ماذا. ألا تقول إنك تلعب بها؟

– في العراء نعم، في الكيس لا. وإذ رأى حسين لم يفهم قصده هتف: ستهيج، ربما تُمزّق الكيس وتلدغني.

– قلت غير سامة، حتى إذا لدغتك، غرزة إبرة لا تضر.

– لكنها سامة.

دهش حسين، حاول أن يضبط أعصابه، احتدّ:

- من أنت؟ ما حقيقة أمرك؟ مرة تقول سامة ومرة تقول غير سامة. قل الحقيقة؟

- الحقيقة سامة. لكني قلتُ غير سامة كي لا تخاف أنت منها.

- حسنًا لا يهمني إن كانت سامة أو لا، إما أن تُبقيها بيديك أو تطلقها الآن في البرية. لا حل آخر.

- فيما بعد.

كاد حسين يصرخ لكنه هدّأ نفسه، ركّز نظرات حادة عليه، قال بحزم وهو يضغط على كل حرف:

- قلتُ الآن يعني الآن. لا وقت لدينا.

نزل الغريب من الشاحنة متضايقًا يتأفف، أراد حسين أن يرى الحية، تبعه عن بعد، وضع الغريب الكيس على الأرض على بعد بضعة أمتار من الشاحنة، فكّ عقدة الخيط بحذر، فتح الكيس على وسعه بعناية ثم ابتعد، أول ما انطلق فجأة من الكيس لسانها الأسود اللامع، اندفع بسرعة ثم رجع، كانت رمادية تضرب إلى اللون الفضي، سمك إنش ونصف بطول متر وقدمين، غادر الكيس منها رأسها، لمعت عيناها السوداوان، ثم انبعث لسانها الأسود مرة أخرى بقوة إلى الأمام ورجع، وحينما أصبحت كلها خارج الكيس، رفعت رأسها برهة لتستطلع البيئة الجديدة التي وجدت نفسها فيها، جسدها كالزجاج، يعكس ألوانًا شتى تتراوح بين الرمادي والأخضر مع خطوط صفر فسفورية ونارية، ظلت ثابتة

بدون حركة بضع ثوانٍ، ثم اندفعت بسرعة نحو عشب ملتفٍ على نفسه، مليء بالأشواك. سأل حسين:

- كم يومًا هي معك؟

- من؟

- الحية!

- أكثر من سنة.

- ما اسمها؟

- أيجب أن يكون للأفعى اسم؟

- من يُحب حيوانًا يطلق عليه اسمًا.

- هذه ليست حيوانًا. إنها أفعوان.

كاد حسين ينفجر ضحكًا:

- لم أكن أعرف أنك مثقفًا.

ابتسم الغريب، حدَّق به:

- أسمع الأخبار كثيرًا.

عاد ينظر في المسار الذي سلكته الأفعى، يُركِّز نظره كمن يريد أن يذهب ليصيدها مرة أخرى، ظل هكذا حتى سمع أمر حسين أن يصعد ويقف في المخبأ، سدَّ الباب عليه، سأله عبر بابه إن كان مرتاحًا، أجاب:

- نعم.

قال له:

- اخرج حتى نصل الحدود.

شرح له كيف يتصرف كيف ينتظر، ألا يُخرج أي صوت حتى السعال:

- أي صوت ما عدا النفس يعني الموت لكلينا، أفهمت؟.

نظره مُركّز على مسلك الأفعى، هزّ رأسه:

- نعم.

الجو ربيع، الثانية عشرة ظهرًا، حدود زاخو غير مزدحمة، بضع شاحنات أمامه، قبل أن يُخرج كتاب التوصية ميّزه أحد الضباط من بُعد، أرسل شرطيًا في الثلاثين شديد السمرة، أخذ جوازه، ختم عليه من دون أن يطلب منه الترجل من شاحنته، ثم أشار إليه أن يتجاوز الصف ليقف في مقدمة الشاحنات للتفتيش، كان حسين يكره أن يعامل بتميز، أن يرى السخط في أعين الآخرين لأنه فُضّل عليهم، لكنه لم يتدخل، المفتش في أربعينياته، طويل مكرش، بدأ البياض للتو يقتحم سواد شعره، عيناه كبيرتان، وقّع الأوراق من دون أن يحاول أن يرى ما على ظهر الشاحنة، سأله باهتمام لماذا لم يأخذ معه بضاعة؟ ثم ابتسم ابتسامة خفيفة بعد أن علم أنه ينتظر حمولة في اسطنبول.

- ما هي؟

- ملابس أطفال.

- هل سترجع من هنا؟

- إن شاء الله.

سأله إن كان يستطيع أن يجلب له علبة زيتون من نوع معين، أخرج علامتها من جيبه، سلمها لحسين، هز حسين رأسه موافقًا، تحرك، ابتسم، تفاءل. تلك أقصر مدة يقضيها في تفتيش حدودي طيلة رحلاته، لم تأخذ سوى خمس عشرة دقيقة، لكنه وجد الشاحنات واقفات في خط طويل يزيد على عشر كيلومترات في الباحة بين الحدودين، تُفتِّش القوات التركية عمن فجَّر بناية في ديار بكر، قُتِل أكثر من عشرين مدنيًا، علم من أحد السواق الأتراك أنهم سيفتحون الحدود صباح اليوم التالي. اغتم حسين، أغلق بابي الشاحنة بإحكام، فتح باب المخبأ، أخبر الغريب بتأخير السفر إلى الغد، زفر هذا متضايقًا:

- أنستطيع الرجوع إلى العراق؟

- نعم.

- إذن لنرجع.

ضحك حسين:

- أأنت جاد؟

- نعم. لم لا، نقضي يومًا في الموصل ونعود غدًا.

كاد حسين يضحك، تذكَّر حين انفجر إطار السيارة قرب الموصل، كان الوقت ليلاً، اضطر إلى الذهاب إلى أول فندق رآه، مرحاض نصف متر في متر، كيف يتسع لبدين؟ الحنفيات قديمات صدئات.

يتآكلهن الملح، السرير حديد يصر، الوقت صيف، لا تبريد، الحرارة تذيب الصخر، أصبحت الزيارة ذكرى لا تُنسى، حدق بالغريب وهز رأسه بإصرار:

- لا.

قدحت الكراهية، في عيني الغريب شررًا قويًّا، همس مهدّدًا:

- سأعرف كيف أجبرك على احترام كلمتي، يجب أن نرجع إلى الموصل. ثم أضاف مهدّدًا: سترى.

أخرج من جيبه الهاتف المحمول، هجم عليه حسين قبل أن يضغط على أي زر، انتزعه منه، هتف بحنق:

- أأنت مجنون! تريد أن تستعمل هذا وتدَّعي أنك مُطارد من قِبَل الأمريكان؟

- ماذا في ذلك؟

- ما أشد ذكاءك! إن كنت صادقا كما تدَّعي فاعلم أن الرقم موجود في أجهزة التنصت الإلكترونية للقوات الأمريكية، ما إن تتكلم كلمة واحدة حتى ترصد الأقمار الصناعية مصدر المكالمة، عندئذ يوجّهون صاروخًا أو طائرة بدون طيار تُسقط قنبلة على الشاحنة، ننتهي كلانا في أقل من خمس دقائق، تفشل العملية، سأتلفه هنا.

- لن تستطيع، فيه أرقام مهمة.

- اتصل بأهلك من هاتف عمومي في تركيا، اطلب منهم أن يزودوك بالأرقام لأنك أضعت هاتفك، أما هذا فهو جاسوس عليك وقنبلة موقوتة لكلينا.

حين انتهى من كلامه وضعه على الأرض ووطئه بقدمه فتفتت، كزَّ الغريب على أسنانه، فحَّ كالأفعى:

- آه لو ألتقيك في العراق لأعرفك من أنا!

تظاهر حسين بأنه لم يسمعه، قال:

- سأذهب لأجلب غداء لنا، هل يعجبك شيء ما؟

قال الرجل بلهجة تبين منها حسين بوضوح صلفًا وحقدًا:

- لأجيء معك.

- لا. لنْ يراك أي كان حتى نجتاز نقطة تفتيش الحدود التركية.

- إذًا هات باقلاء بالدهن الحر.

- لا يعدون هذه الأكلة هنا.

صرخ الغريب بغضب:

- أنت غبي لا تعرف مع من تتكلم!

قال حسين بهدوء:

- لا تصرخ. المكان مليء بالجواسيس العراقيين المتطوعين لنقل الأخبار إلى الأتراك، يوصلون أي شيء يسمعونه أو يرونه غير طبيعي، يراقبون أي سيارة، شاحنة، شيء يسير، شخَّصوا رجلاً واحدًا اجتاز الحدود العراقية، رجل واحد في الشاحنة، إن علموا

أن هناك اثنين قضي علينا. ثم وقف وقد اعتلت ملامحه سورة غضب: احذر أن تهينني بعد الآن.

- لماذا تعارضني دائمًا؟

لم يعره حسين أي اهتمام، عندما رجع من المطعم وبيده الطعام وجد الغريب وبيد الصور يتفرج عليها بسعادة، ابتسامة كبيرة تملأ وجهه، قال حسين:

- أولاً هذه مخاطرة كبيرة، دعنا نخرج من حدود تركيا، وافعل ما تريد، ثانيًا ستجعلني أعيد لصقها بحائط المخبأ.

هتف الغريب بانشراح:

- أنا أفعل ذلك، لكن انظر كم هو ممتع؟

- ماذا؟

- عملنا. رفع رأسه وصرخ: هات لنأكل.

- اسمعني، رأيت في المطعم بضعة جواسيس، مرة أخرى لا ترفع صوتك، سأقول لك شيئًا مهمًّا، لنْ تأكل لقمة إلا بعد إرجاع الصور إلى مكانها ولصقها بإحكام كما كانت، هل فهمت؟.

أراد الغريب أن يفتح فمه لكن حسين وضع سبابته على شفتيه، همس غاضبًا:

- ولا كلمة، هيا.

انتظره حتى انتهى، أغلق المخبأ.

* * *

- توقف هنا، أريد النزول.

قال الغريب ذلك لحسين وحينما رآه يتوقف، سأله:

- قلتَ إنني حر حين ندخل تركيا!

- نوعًا ما.

نظر الغريب في عيني حسين بغضب:

- ماذا تقصد بنوع ما؟

- يعني أن ليس لك مطلق الحرية!.

صرخ بقوة:

- لا أفهم. فهمني.

حدَّق حسين به، وضع سبابته على شفتيه:

- لا تصرخ. تكلم بهدوء كالبشر، يعني أنك لا تستطيع أن تتصرف كما في العراق، لا تستطيع أن تتشاحن مع أي كان، أن تثير أي مشكلة، أن تفعل أي فعل يمكن أن يجلب الشرطة التركية لأنك دخلت البلد بلا أوراق.

- وإن فعلت؟

- سنعتقل. ستعدم أنت، وأقضي أنا سنوات في السجن، لكنْ لماذا تريد النزول؟

- لأصيد أفعى بدل التي أجبرتني على إطلاقها.

سأله حسين:

- كيف تعلم مكان الأفاعي؟

قال بجفاء:

- هذا شغلي.

نزل بسرعة، أخذ يبحث بين الأكمات، كان الربيع في أزهى حالاته، الورود الصفر والحمر، النجيل الخفيف يملأ الكون، بدأ يقلب الصخور بحذر، راقبه حسين حتى إذ قضى نحو ربع ساعة ضغط على بوق السيارة، توقع أنه سيغضب لكنه لم يفعل، اكتست ملامحه نوعًا خفيفًا من التجهم، عندما صعد سأل:

- هل هناك مطعم قريب؟

- على بُعد ساعتين تقريبًا.

قال حسين ذلك ثم أضاف:

- يوجد لدينا بقايا خبز وجبن، معنا مرطبات أكثر من نوع، اضحك على معدتك حتى نصل.

- وأنت؟

- تعلمت على الصبر. دائمًا أتخيل نفسي أنني في رمضان.

- أنا أيضًا تعلمت على الصبر.

- عن الطّعام في رمضان؟

ضحك من كل قلبه:

- أي طعام، وأي رمضان؟ أنا أصوم! لتصيد امرأة عليك أن تصبر.

ضحك حسين:

- كيف؟
- تراقبها حتى تأتي اللحظة المناسبة.
- أكنت تنجح أم تفشل.
- أنجح وأفشل، نجحت كثيرًا مع غير المتزوجات، أعدهن بالزواج وبعد أن أشبع منهن أركلهن، لكني مازلت أتذكر فشلي مع زوجة الضابط.
- أي ضابط؟
- الذي رأيتُ زوجته في سلمان باك.

طفق يأكل ويرتشف من علبة مرطبات:

- كان ربيعًا كما هو الآن، يعجبني الربيع، أشار إلى الحشيس الزاهي يملأ الأفق، أتمنى لو نمت على ذلك الحشيش الأخضر الحلو، تمددت عليه، كان ذلك قبل عشر سنوات تقريبًا، فتحتُ عيني رأيت امرأة رائعة، بشرة وردية، آية في الجمال، ترتدي السواد، معها طفلة بحدود ثماني سنوات، ولدان صغيران، يخرج الناس في الربيع "أيام الجمع" إلى الراشدية، السلمان، جزيرة الخنازير، قال لي صديق إن زوجها ضابط قتل في الحرب مع إيران، كنت أعرف بيتها، راقبت البيت بضعة أيام، المراقبة تحتاج إلى صبر، كان أهلها ومعارفها كثر، يدخلون ويخرجون عشرات المرات، في يوم ما بدأتُ بالمراقبة من العصر حتى العشاء، لم يدخل أحد عندها، ضغطت على الجرس، فتحتْ الباب، دفعتها حالاً بقوة كادت تسقط،

كانت ترتدي منامة قصيرة تكشف عن فخذيها حتى اللباس، إلى حد الآن أتذكّر لونه أحمر، توترتُ ذُهلتُ هجمتُ عليها في الحوش، أسقطتها على ظهرها على الأرض، عندئذ فاجأتني بصراخها، بدأت تصرخ بكل ما لصوتها من قوة، رأيت ابنتها ذات ثماني السنوات تخرج وبيدها الهاتف وتتكلم، طفقت تصرخ هي أيضًا، تتكلم وتبكي، خفت هربت، لكنهم عرفوني، كانوا يرونني في المنطقة، قبضوا علي، أتدري ماذا فعلوا بي؟، لم يرد حسين عليه، أكمل: ربطوا رجليّ بحبال تتدلى من السقف، انهال شابان على قدمي بعصي الخيزران حتى تمزق الجلد، تركوني في الموقف أسبوعًا كاملاً حتى شفيت من الضرب، سجنوني ثلاث سنوات لأني دفعتها، ظلم، واللهِ واللهِ بوش وليّ من أولياء الله، أنقذنا من ذلك المجرم الديكتاتور، من كان يستطيع أن يتحرك آنذاك؟ الآن حرية افعل ما تريد، اقتل من العدو ما شئت، اذبحه، ضاجع نساءه أطفاله، خذ بيته وما يملك، لا أحد يلمس شعرة منك، في كل يوم أضاجع امرأة من نساء العدو رغم أنفها.

– أين تلقاهن؟

– ما إن نشاهد امرأة جميلة في مناطق الأعداء حتى نكتب تقريرًا عن عائلتها الإرهابية إلى الأمريكان، يقبضون على الرجال والنساء، وعلي والحسين والزهرة الأمريكان أولياء الله، شبعونا

"تيك وفلوس"، يبدأ الأمريكان بالغنيمة، ثم يناولوننا إياها، تبقى معنا حتى نمّل منها.

– وإذا حملتْ؟

– ثم ماذا؟ السجون السرية مليئة بأطفال ولدوا هناك.

– تقول سجون سرية، كم سجنًا؟.

قهقه الغريب:

– أين تعيش؟ أنت تعمل معنا ولا تعرف كم عدد سجوننا؟.

ابتسم حسين بألم:

– لا أخرج من البيت.

– كل مليشيا لها سجن أو أكثر، عندنا ثلاثة وأربعون مليشيا تابعة لشخصيات قوية في الأحزاب السياسية، في سجن واحد يوجد أكثر من ألف امرأة من نساء العدو خطفناهن من الشارع لا يعرف عنهن أهلهن أي شيء.

– أتعرف من ربطك وأخذ يضربك؟

– طبعًا. اسمه عبد علي أبو الحسنين الطويل.

– ماذا فعلتم له؟

– هه. هه، سؤال حلو كالعسل، ماذا فعلتم له؟ أولاً قلعنا أظافره، ثم قطعنا أصابع يديه ورجليه إصبعًا إصبعًا بمقص الأشجار، قطعنا ذكره وخصيتيه، ثقبنا عظام رجليه ويديه بالمثقب الكهربائي،

أجلسناه على عصا بطول نصف متر، حتى كادت عيناه تنخلعان، ثم جاء دوري، أتعرف ما لقبي؟

– لا أعرف سوى أنهم قالوا علي أن أوصل بضاعة جديدة.

– أأنا بضاعة؟

– هكذا يطلقون على من أهربه، سلهم، ستلتقي رجلاً مهمًا في اسطنبول سله إن كنت مخطئًا أو لا.

انفجر الرجل يضحك من كل قلبه:

– أنا بضاعة؟ ليكن أين أنت يا سهير؟

– من سهير؟

– زوجتي.

– وتقول إنك تضاجع كل يوم امرأة جديدة!

– ثم ماذا؟ كم امرأة كان عند الإمام عليّ عليه السلام؟ أربع زوجات وتسع عشرة جارية! كم امرأة تزوج الإمام الحسن عليه السلام؟ أكثر من مائة وخمسين امرأة، يتزوجها اليوم ويطلقها غدًا، النساء متعة فقط، حلال. حلال. حلال.

– أي نساء؟

– كلهن، نساء العدو بخاصة، يا أخي يقول الله في كتابه الكريم: "وما غنمتم". جميع نساء العدو غنائم حرب كلهن.

– هل كانت زوجة الضابط من العدو؟

- لا. لكنه كان ضابطًا في جيش العدو، خادمًا للعدو، يعني مرتدًّا عن الإسلام.

- لم تُكمل ماذا فعلتم بعبد علي أبي الحسنين؟

- أرأيت خطافاتي في الحقيبة؟

- نعم رأيتها.

- هي اختراعي أنا.

- أأنت أول من صنعها؟

- لا أنا الذي اخترع الاستنطاق بها، لذا يسمونني أبا خطاف، هناك أبو الدّريل، أبو الشفرة، أبو العظم، أبو القدّاحة! كل من يكتشف آلة تُفيد الاستنطاق يكافأ، يسمى باسمها.

- كيف؟

- نعلق العدو بالخطاف، إن كان رجلاً نتراهن كم ساعة سيبقى على قيد الحياة إن عُلّقَ من ظهره، من تحت إبطه، من حلقه، فكّه، مخرجه. أما إن كانت امرأة فنريها المعلقين، فإن لم تستجب لنا فككنا ساقيها بالقوة وتناوبنا عليها وعلقناها.

- وإن استجابت؟

- نُبقيها جارية لأنها تصبح حينذاك غنيمة حرب، يبدأ الأمريكان بالتمتع بها، ثم نحن.

- هل يشارك الأمريكان بهذه الأمور؟

قهقه من كل قلبه:

- يعطوننا ما نشاء لقاء مراهقة عراقية من عمر ثلاث عشرة حتى ثماني عشرة، ثم أخذوا أخيرًا يقايضوننا بالمترجمات.

- أمريكيات؟

- لا، لا يوجد أمريكيات مترجمات، عربيات، عراقيات، كرديات، لبنانيات، مصريات، فلسطينيات، آثوريات، مختلف القوميات، تبقى أشهر بعيدة عن زوجها، يملها المارينز يقايضوننا إياها بالمراهقات و...

قاطع حسين:

- لا أصدق.

- هل الأمريكان أنبياء؟ معي هنا صور عشرات الجنرالات الأمريكان مع مراهقات ومراهقين عراقيين، يعطوك ما تريد إن زودتهم بمراهق أو مراهقة، معي صورهم إن أردت أريكها الآن.

- الأمريكان صحيح، لكن المترجمات عربيات، عراقيات، لا يفرطن بشرفهن بسهولة.

قهقه أبو خطاف:

- أنت نائم على ظهرك، قالت لي إحداهن، تطوعت من أجل المال، مائتي ألف دولار في السنة ومن أجل عضوي، مدت يدها إلى وسطها، أختار بحرية و"على راحتي" من أشاء من الجنود الشقر الأمريكان، هناك لا تستطيع خيانة زوجها، يعرفها الناس في البيت، العمل. لا يرغبن بنا، يفضلن الأمريكي، أشقر، أبيض،

أملس وله قضيب طويل يصل إلى خمسة وعشرين سنتمترًا، عندهم آلات تُطول القضبان، بينما أطول قضيب عراقي لا يتجاوز خمسة عشر سنتمترًا، صدتني مترجمة عراقية تستنكف الكلام بالعربية، قالت لي أنا أمريكية، لكنها حين تفتح ساقيها، تبدأ سبي بالعربية، رفضتني ما لم أجلب معي رجلاً آخر للتعويض عن قصر عضو...

قاطع حسين وهو يشير إلى نقطة سوداء على الجهة اليمنى:

– انظر إنه المطعم، انقضت الساعتان كأنها لحظة.

قهقه أبو خطاف من كل قلبه، لمعت عيناه فرحًا، على بُعد عشرين خطوة تقريبًا انتصب كوخ صغير ذو كوة واحدة في أعلى الحائط، مبني من حجارة طبيعية مرصوفة بمهارة مثبتة بالجص فقط، سقف من أغصان بلوط تعلوها حشائش ملبدة بالجص، صخور منحوتة مختلفة الارتفاع تمتدّ على طول الجدار الأمامي للمطعم. على بُعد نحو نصف ميل إلى يمين الشارع تجمع على سفح تل صغير بضعة عشر بيتًا من الطين، شاحنة واحدة ضخمة (قاطرة ومقطورة) فضية اللون واقفة غير بعيد عن الطريق العام، رصف حسين شاحنته قربها، رجل في الستينات نحيف، أمامه منقل على منضدة طويلة، يهوي الفحم بقطعة من الكارتون، إلى يمين المنقل صينية نظيفة فيها أسياخ لحم للشي، مُغطاة بقطعة من الشاش الأبيض النظيف، ابتسم وحياهما بالتركية، كان يضع على رأسه

عمامة صغيرة من كوفية مرقطة، يرتدي زيًا أشبه بزي أكراد العراق، نظر أبو خطاف إلى المطعم باستخفاف. تساءل:

- ألا يوجد غيره؟

- يوجد، إن تصبر ثمان إلى ست ساعات أخرى نصل فيها غازي عنتاب.

- لا. لا أستطيع أن أصبر.

- اللحم هنا طيب طري، الخبز جيد، عنده شراب عنب وبصل أخضر.

- تعرفه جيدًا!

- أتوقف هنا دائمًا، نحن مبكران، بعد ساعة يمتلئ.

- أين يجلسون؟ مصطبة واحدة، خمسة كراسي فقط، منضدتان صغيرتان.

أشار حسين إلى الصخور المرصوفة أمام الحائط، خارج الكوخ:

- انظر إلى هذه الصخور، يجلسون عليها ويأكلون أو يقفون.

آنذاك لمح حسين شخصًا ممدّدًا داخل المطعم على المصطبة. اعتدل حين قدّم له الكهل الطعام. نظر إليهما قبل أن يبدأ. وبلهجة شاميّة قال:

"تفضلوا إخوان".

"شكرًا. سنلحق بك.".

بعد قليل وضع طعامهما على منضدة صغيرة أمام كرسيين مصنوعين بطريقة بدائية لكنهما قويان، مثبتة أجزاؤهما إلى بعضها بالحبال إضافة إلى المسامير، هتف الرجل في الداخل:

– واللهِ واللهِ عليكما أن تقتربا مني أو أقترب منكما.

ثم قهقه بسعادة، سحبا منضدتهما لتلاصق منضدته، في ثلاثينياته، أشقر تجاوز جسده حدود النحافة شيئًا قليلاً، يرتدي قميصًا أبيض مخططًا بالأخضر، أقحل بعرق جسده الغزير مع الغبار، تذكّر حسين حالته قبل أن يضع أبو مازن التكييف في الشاحنة، كيف كان يعرق ويتلبد شعر رأسه، يتجلد قميصه بالعرق وإفرازات جسده فيصبح جافًا كالورق يحلم بنعيم مرش ماء بارد في الحمَّام مع (نبْع). جذبت لحيته اهتمام حسين، لحية شقراء بارتفاع سنتيمتر واحد، هو أيضًا كان ينساها قبل الزواج، بعد ذلك دأب على حلاقتها ما إن يستيقظ أنى كان، عيناه صفراوان باسمتان كتقاطيعه، نظر إلى صاحب المطعم، تكلم معه بالتركية، كم ودَّ هو أيضًا أن يتعلم التركية، لكن من أين يأتي بالوقت، تقول (نبْع) الإنكليزية أهم، جاء صاحب المطعم بعد قليل بثلاثة كؤوس صغيرة فارغة وضعها على المنضدة، عندئذ مد الشامي يده إلى حقيبة يراها حسين لأول مرة، أخرج زجاجة عِرق ذات نصف لتر، صب في كل كأس ما يصل إلى ربعه، ثم سكب فوقه ماءً صافيًا من شربة زجاجية كانت موجودة

على المنضدة، أشار إلى زجاجة العرق، بعد أن استحال العرق إلى ما يشبه الحليب:

- هذا أفضل عرق في العالم، عرق الميماس، وهذا أطيب ماء في العالم، تذوقوه وتذوقوا شراب العنب تروا الفارق، هذا الماء لا يعادله أي ماء على سطح الكرة الأرضية.

رفع حسين كأس الماء إلى شفتيه، ارتشف قليلاً ثم أغمض عينيه، بينما جرع أبو خطاف الكأس كله، قال بحماس:

- صدقت، ماء لذيذ طيب، يا ليتنا نشرب مثله في العراق.

قال حسين:

- نحن نشرب سمومًا في العراق، يتمزق قلبي عندما أفكر في الأطفال وماذا سيعانون في المستقبل.

- بصحتكم إخوتي.

صكَّ الشامي كأسه بكأسيهما، رفع حسين كأسه، ارتشف بضع قطرات مجاملة، لكنه رأى أبا خطاف يسكب الكأس كله مرة واحدة في جوفه، أمسكَ حسين بعضده، قال:

- هكذا تسكر بسرعة.

نتر أبو خطاف يده بقوة من قبضة حسين، نظر إليه بغضب، هتف مهددًا:

- لا تفعل ذلك مرة أخرى.

فوجئ الشامي بحركة أبي خطاف، نظر إلى حسين نظرة تأييد، لكن أبا خطاف حدَّق بالرجل وقال بلهجة آمرة:

– صب كأسًا آخر.

امتعض الرجل للهجة أبي خطاف، بدا كمن أجبر نفسه على الابتسام، نظر إلى حسين، فغمز هذا عينه اليسرى البعيدة عن أبي خطاف، قال الشامي:

– لخاطرك.

ووضع كمية أقل من العرق ثم ملأ الكأس بالماء، ضيَّع أبو خطاف الكأس كله في جوفه، ابتسم، فجأة أحس بالجوع يهجم عليه، أخذ يلف اللحم بالخبز الطري، ويضع فوقه البصل الأخضر والبقدونس ويقرضه بنهم شديد، قبل أن ينتهي ما في ماعونه من لحم مشوي، التفت نحو حسين، أمر بلهجة صارمة:

– اطلب لي ماعونًا آخر.

ابتسم حسين ونظر إلى الشامي، قال:

– أنت تعرف التركية، أليس كذلك؟

قال الشامي:

– نعم.

صاحب المطعم مقرفص قرب الباب، أنهى لتوه لف سيجارته، نهض حين سمع الشامي، وضع هذا بضعة أسياخ من اللحم على

النار وأخذ يروِّح عليها بقطعة الكارتون، ثم جاء بها ووضعها على منضدتهم، تكلم مع الشامي قليلاً، نظر هذا إليهما وقال:

- هل تريدون المزيد من اللحم المشوي أو الشراب؟

قال حسين:

- لا.

قال أبو خطاف:

- نعم.

عندئذ ارتشف الشامي مصّة عِرق ثم نظر إلى أبي خطاف، قال:

- خيّو، لم أتشرف بمعرفتك؟ ما اسم حضرتك؟

- لعيبي.

زوى الشامي ما بين عينيه وأخذ يفكر، كمن يسمع شيئًا غريبًا، قال حسين في داخله لابد أنه يسمعه أول مرة، ملأ كأس لعيبي بالعِرق مخلوطًا بالماء، صكّه مرة أخرى:

- بصحتك أخ لعيبي القبضاي.

ضحك لعيبي من كل قلبه، ثم سأله:

- ما معنى قبضاي؟

- يعني فتوة.

نهض لعيبي وبيده كأس العِرق، صرخ بقوة:

- نعم. لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار.

قهقه الشامي، هتف لعيبي ثانية:

- املأ كأسي خيّو.

- على عيني.

ملأ الكأس الرابعة، سأل:

- ما اسم الوالد؟

تطايرت عينا أبي خطاف شررًا، قبض على ساعد الشامي بعنف، صاح:

- من أنت لتسأل عن أبي؟

أسرع حسين وأمسك بيد لعيبي، سحبها حالاً، قال:

- على رسلك، الرجل يجاملك يريد أن يتعرف إليك، لا داعي للغضب، كفى، هيا نستأنف السفر.

التفت لعيبي إلى حسين:

- لماذا يسأل؟

نظر حسين إلى الشامي:

- قل له يا أخي اسمك واسم أبيك.

قهقه هذا:

- أنا رضوان بن محمد بن جبرائيل، أتريد أكثر؟ قلْ.

أحس لعيبي بالخجل. تهافت:

- اسم أبي مزبان.

صُدِم الشامي مرة أخرى، نظر إلى حسين نظرة عميقة، ابتسم هذا، عندئذ صكّ الشامي كأسه بكأس لعيبي بابتسامة واسعة:

- بصحة القبضاي بن مزبان.

قهقه أبو خطاف وأخذ يحتسي العرق بهدوء، سأله الشامي:

- أنت شرّيب خيّو، كيف وجدت هذا العِرق؟

- أفضل مشروب في العالم كله.

رفع الشامي كأسه إلى الأعلى:

- يعيش الميماس.

ردد أبو خطاف بكل قوته وهو يصيح:

- يعيش الميماس ومن يصنع الميماس ومن يشرب الميماس.

ثم نظر إلى الشامي:

- أخي رضوان، هل عندك قنينة ميماس أخرى أشتريها.

- لا والله، لكنْ خذ هذه، فيها قليل ولو.

ناوله إياها، عاينها أبو خطاف كان فيها أقل من الربع، هزَّ رأسه بقليل من الرضا، كمن يتوقع أكثر، ثم نظر إلى حسين، قال بلهجة جافة آمرة:

- أعطه الثمن.

هب الشامي حالاً مستنكرًا:

- لا والله.

بدأ لعيبي يقرأ ما مكتوب على القنينة، لكن تأثير العرق ظهر على أجفانه أثقلها، على لسانه جعله يقطع الحروف، سأل:

- ما معنى الميماس أخي رضوان.

ضحك هذا من كل قلبه وقال:

"ما يدريني، "كُس" أمّ من يعرف.

بدأ لعيبي يشرب العرق، يأكل ببطء، عندئذ مدَّ الشامي يده، أخرج حجارة صفراء لامعة، نظر إلى لعيبي، ناوله إياها، ابتسم ابتسامة كبيرة:

– خيّو أنت ذكي. تعرف كل شيء، أتعرف ما هذه؟

وضعها لعيبي براحة يمناه، حرك يده، صغيرة لكنها ثقيلة، قلّبها، نقلها من يد إلى يد أخرى:

– لا.

– هذه ذهب خالص، إنها ثروة، تستطيع أن تحصل على مثلها مجانًا.

– كيف؟

– إنها من تل الذهب.

ثم نظر إلى حسين:

– يبدو أنك السائق؟

– نعم.

– أتعرف أين يقع تل الذهب؟

– لا.

– أذاهب أنت إلى أنقرة أم اسطنبول؟

– في طريقي إلى اسطنبول.

- عندما تجتاز جبال طوروس وتنحدر الانحدار النهائي نحو الغرب، ترى سهمًا كبيرًا أبيض يشير نحو اليسار مكتوب عليه بالإنكليزية والتركية "تل الذهب"، قفْ إلى يمين الطريق، ثم انظر نحو اليسار، على بعد كيلومتر من الطريق الدولي، ترى تلاً صغيرًا بارتفاع مائة متر، على سفح التل ذهب، اذهب إلى هناك، فتش عن الحجارة الذهبية تجد واحدة أو أكثر كهذه، علامتها أنك إن ضربتها بصخرة كبيرة لا تتفتت كباقي الحجارة، تنخسف كأي معدن.

- كم دقيقة تقضي عادة حتى تعثر على واحدة مثلها؟

- بين ساعة وساعتين.

توسل لعيبي بالشامي:

- رجاءً هل تكتب الاسم، أنا لا أعرف التركية ولا الإنكليزية.

- لخاطرك.

أخرج السائق من حقيبته ورقة صغيرة وكتب عليها بالتركية "تل الذهب"، سأله حسين:

- ألا يوجد حراس؟

- لماذا الحراس؟

- إن كانت هناك لافتة مكتوب عليها تل الذهب فذلك يعني أن السلطات تعرف بذلك، مناجم الذهب في أي بلد ثروة وطنية تقع حمايتها على عاتق الدولة.

قهقه الشامي:

- خيّو الأتراك طيبون، بسطاء، عندما يقرؤون هذه اللافتة يتصورون أن الأمور كلها نوع من الفكاهة، ولأن حكومتهم بنت قحبة مثل حكوماتنا يعتقدون أنها تسخر منهم.

في تلك اللحظات بدأ السُكر يسيطر على لعيبي، أخذ يضحك من دون سبب، مد يده إلى لفة الصور، بدأ يزيل اللاصق من فوقها، أسرع حسين أمسك بيده، لكن هذا دفعها بقوة، صرخ:

- من أنت أيها السائق الغبي لتمنعني.

ضحك الشامي، نهض من دون أن ينهي سوى ربع كأس عِرق، قال:

- مع السلامة.

عندئذ وقف لعيبي وصرخ به:

- قِف. سأريك صورًا جميلة.

توقف هذا برهة، نظر إليه وهو يضحك:

- صور من؟

أخذ قلب حسين يخفق، أي مصيبة ستقع على رأسيهما! تدَّخل حسين وهو يبتسم، قال بصوت حرص أن يكون طبيعيًا:

- لا عليك خيّو منه، إنه سكران، مع السلامة.

صرخ أبو خطاف:

- أأنا سكران أيها السائق الحقير؟.

ثم وجَّه لكمة إلى أنف حسين، جعلت قطرتين من الدماء تنزل من فمه إلى أعلى شاربه الخفيف، هُرع الشامي إليه، قال له حسين:

- أرجوك اذهب، رجاءً، هذه هي عادته عندما يسكر، يفقد توازنه وعقله.

خرج الشامي، نظر صاحب المطعم الكهل إلى لعيبي نظرة مثقلة بالاحتقار، ابتعد لعيبي عن حسين، ذهب إلى أخر المطعم، شمَّر عن ساعديه استعدادًا للعراك، قال صاحب المطعم وهو ينظر إلى حسين:

- بوليس؟.

تكهرب حسين، هتف وهو يهز رأسه نافيًا ولا يعرف ماذا يقول:

- نو. لا. نا.

كان يتكلم مع صاحب المطعم ويراقب لعيبي الذي تناول كرسيًا وهجم بكل ما يملك من طاقة عليه ليضربه، انحرف حسين عنه، وضع قدمه الأيمن في طريقه، سقط أبو خطاف على وجهه، طار الكرسي من يده، نهض نفض "دشداشته" وجَّه لكمة إلى وجه حسين، لكن هذا كان مستعدًّا لها، أمسك يده بقوة، تناول لقّة الصور من فوق المنضدة باليد الأخرى، سحبه إلى خارج المطعم وهو يحاول أن ينفلت منه، وينهال بالضرب بيده اليسرى على أي مكان في جسد حسين، عندئذ أفلته حسين، عيناه حمروان، صبغت الدماء وجهه الأسمر فبات بلون الشوندر، سأله حسين:

- ماذا تريد أن تفعل؟

- سأقتلك.

هتف بذلك وأخذ يبحث عن حجارة في الأرض، لكن حسين أسرع إليه، شدَّ على رقبته بكفيه بقوة، فصرخ هذا:

- خنقتني.

- لا لم أخنقك لكني سأعلمك الأدب، هل تتعارك معي بروح رياضية؟

- ملاكمة؟

- نعم.

آنذاك كانت الشاحنة السورية قد بدأت الحركة، أفلته حسين، ابتعد لْعيبي راكضًا، توقف على بعد خمسة أمتار تقريبًا، ثم هجم على حسين، سدَّد له ضربة بكل قوة على وجهه لكن حسين أبعدها بيسراه، ابتسم وقال:

- اضرب ثانية.

تراجع لْعيبي إلى الخلف ثم هجم ثانية فصدَّ حسين الضربة، قال له:

- أرأيت؟ أنا أقوى منك، أستطيع تحطيمك، لكنك أمانة بيدي حتى أوصلك، كفى، كن عاقلاً.

رفع لْعيبي يديه إلى الأعلى مستسلمًا:

- أنت على حق.

مدّ حسين يده مصافحًا:

- هيا. انتهى الأمر.

- نعم انتهى الأمر.

قال لعيبي ذلك بصوت ثابت، بدا كما لو أن العراك قد محا تأثير العِرق، كان ألم أنف حسين شديدًا، مسحه بكفه ثم نظر إليها، رأى مسحة دم خفيفة، علم أن لا قطرات أخرى، حسد نفسه لأن الوقت ربيع، لو كان صيفًا لما توقف الرعاف بمثل هذه السهولة.

الطريق الدولي هادئ، حدّق حسين في البرية المزدانة بورود الربيع وبالخضرة الشاملة، تمنى لو كانت (نبْع) معه، لبقي في هذا المكان بضع ساعات، قال حسين وهو يشير إلى لفة الصور تحت إبطه:

- انظر كنت ستمحونا من فوق سطح الأرض، نسيتها.

- قلتَ انتهى الأمر.

- نعم.

- لماذا تذكرني بخطأي؟

ضحك حسين ضحكة قصيرة:

- العفـــ..

قبل أن يُكمل حسين كلمته جاءت لكمة قوية مفاجئة على أنفه قطعت الحرف الأخير منها، تبعتها لكمة أخرى، لكن حسين زاغ عنها، رمى لفة الصور على الأرض ثم وجّه لكمة إلى أنف لعيبي،

كانت من الشدة بحيث جعلته يتقلب بضع مرات على الأرض، تناول حسين رزمة الصور من الأرض، تقدم بحذر نحو لعيبي، وضع حذاءه على وجهه، قال له:

– أنت أفعى، أنت غدَّار، أنت نصف رجل، انهض يا جبان.

ثم أمسك به من أعلى "دشداشته" رفعه، وقف يترنح وأنفه وفمه يقطران دمًا، عاجله بصفعة على خده الأيسر جعلته يسقط أرضًا، بصق في وجهه:

– هيا يا منحط، سنستأنف سفرنا الآن.

صعد الشاحنة قبله ثم اقترب من مقعده ليراقبه من الشباك ليتأكد أنه لم يجلب معه حجارة يغافله حينما يسوق ويضربه بها، كان لعيبي منهوك القوى، يتمايل في مشيه، وصل الشاحنة، حاول أن يصعد درجتها العالية، لم يحتفظ بتوازنه، سقط على الأرض، نزل حسين دار حول الشاحنة، رآه يحاول النهوض بصعوبة، ساعده، وجد جرحًا خفيفًا في جبهته، دفعه إلى الشاحنة دفعًا، سدَّ الباب، اتخذ مقعده خلف عجلة القيادة، نظر إليه، رأى دمًا يغطي أنفه، فمه، حنكه، بضعة خدوش صغيرة في جبهته وخدَّيه، بقع دم على "دشداشته" في الزّيق والصدر، نظر إلى وجهه في المرآة، رأى قليلاً من الدم يلوث أنفه وأعلى شفته، كان الألم شديدًا وبخاصة من جراء الضربة الثانية التي جاءت فوق الضربة الأولى، أراد أن يغسل وجهه بالماء ليزيل آثار الدم، لكنه خشي من غدر لعيبي.

تناول بضع محارم ورقية، مسح الدماء قبل أن يتحرك، أشار إلى المحارم الورقية، قال لـعيبي:

- نظف الدماء من أنفك وفمك، توجد مرآة في الأعلى، امسح الدماء بشكل جيد، لا تدع أيًا كان يشك بنا.

- قلتَ أن لا تفتيش بعد الحدود.

- نعم لا تفتيش، لكنْ هناك دوريات ربما تعترضنا، من يدري، علينا أن نتوقع كل شيء.

حينما أنهى لعيبي تنظيف نفسه. التفت حسين إليه. قال بحزم وهدوء:

- أي حركة ضارة تقوم بها تضطرني إلى ضربك حتى أفقدك وعيك، أضعك في المخبأ من هنا حتى اسطنبول، إن أخرجت صوتًا من المخبأ سأربط يديك ورجليك وأكمم فمك وألصقك باللاصق في جدار المخبأ لكي تتنفس فقط، لن أسمح لك بالماء والطعام وقضاء الحاجة، سأتركك تتبول وتفعلها على نفسك.

- تهددني؟

خرجت الكلمات من فم لعيبي مقطعة، قدَّر حسين أنه يتألم من أنفه وأسنانه.

- نعم أهددك وأنذرك، ومن هذه اللحظة لا أسمح لك بالصراخ ولا بالأوامر، أفهمت؟ إن تكلمت فتكلم بأدب.

هز لعيبي رأسه:

- نعم.

بدأ حسين يسوق الشاحنة وعيناه ترمقان لعيبي بين الحين والحين، حتى حينما يفتح صندوق الماء ليشرب شيئًا كان يلاحظه كي لا تفاجئه ضربة بإحدى قناني المشروبات تخل من توازنه، تجعل الشاحنة تترنح، وتكون النتيجة كارثة لا يمكن أن يتنبأ بعواقبها، بعد نحو نصف ساعة سيطر النعاس على لعيبي. نكّس رأسه وأخذ يشخر، يتمايل نحو اليمين والشمال، يفتح عينيه، يفز من نومه، يعدل رأسه، يصحو لحيظات، يبتسم مع نفسه، يغلق جفنيه، ثم أغفى إغفاءة ثقيلة لم يستيقظ إلا بعد بضع ساعات في غازي عنتاب، كان الوقت عصرًا، بدأ الجوع ينهش معدتيهما، قال حسين للعيبي قبل أن ينزل:

- تستطيع أن تبدل ملابسك هنا، لا داعي للــ "دشداشة" والكوفية والعقال، سنجلس في مطعم راق في غازي عنتاب، وننام في الشاحنة، وغدًا فجرًا نغادر إلى أنقرة.

تل الذّهب

- متى نصل؟

سأل لعيبي، أجابه حسين:

- اليوم بعد الظهر، العصر، حسب الظروف.

تركت الشاحنة أنقرة، على الطرفين غابات لا تنتهي حتى تبدأ من جديد، يحب حسين السير في هذا الطريق حتى اسطنبول، الشمس صباحًا وراءه، لا تزعجه أشعتها، إن سارت الأمور من دون مفاجآت فسيصل اسطنبول قبل العصر بأي شكل من الأشكال، كان أكثر ما كان يحب في هذا الطريق حينما تمطر الدنيا مطرًا خفيفًا فيعكس الشارع نظافة وبللاً ويسود الجو لون رمادي مفعم بالحنان يرجعه إلى طفولته، سأل لعيبي:

- هل ستقف في تل الذهب؟

تذكر حسين موضوع الذهب كان نسيه كلية، اعتاد أن لا يأخذ ثرثرة السواق الذين يلقاهم مأخذ الجد.

- لا.

- أرجوك.

- لماذا؟

- لعلنا نحصل على حجارة من الذهب.

- أصدّقت السائق؟

- لمَ لا أصدّقه؟ لماذا يكذب؟

ضحك حسين:

- لو كان ما قاله صحيحًا لرأيت الملايين يعششون هناك.

- هل يترتب شيء على تأخرنا ساعة.

هزّ حسين رأسه:

- لا.

توسل لعيبي:

- رجاءً.

لاحظ حسين أسلوبه المؤدب، تغيره الشديد، أراد أن يضحك لكنه ضبط نفسه، أهكذا تفعل القوة؟ أهكذا تخلق إنسانًا آخر؟ قال:

- لا بأس، لكنْ بشرط.

- ما هو؟

- ساعة واحدة وتذهب وحدك.

- موافق.

فكّر حسين برهة ثم سأله:

- كم دولارًا عندك هنا في المخبأ؟

- ثلاثون ألفًا.

- وفي العراق؟

- لماذا تسأل؟

- مجرد سؤال، إن لم ترد الجواب فأنت حر؟

- ربع مليون، وانتزعت دارًا لعضو بعثي في القيادة القطرية يُقدَّر ثمنه الآن بأكثر من مليون في الجادرية، تصوَّر فيه مسبح!

- قصر!

- نعم. قصر كبير، حديقته أكثر من ألف متر مربع.

- كل هذه الثروة وتريد المزيد؟

- لم لا؟ ألم يقل الله: المال والبنون زينة الحياة الدنيا، قدَّم المال على الولد؟ وأنت ألا تركض نحو المال؟

- فقط ما يساعد على العيش الكريم، همي الأول والأخير أن أسعد زوجتي وأعيش معها باطمئنان، لا همَّ آخر لي.

- قنوع، أمثالك قلة في المجتمع، وقع أمامنا عدد لا بأس بهم من القنوعين.

- ماذا تقصد؟

- أنا أعتبرهم مجانين.

- من هم القنوعون؟

- الجماعة الأعداء، كنا نقول لهم تعاونوا معنا ونعطيكم آلاف الدولارات، رفضوا، قال الجنرال الأمريكي لأحدهم، كان فلاحًا فقيرًا لا يربح في اليوم أكثر من بضعة دولارات، إن دللتنا على أحمد أبو مَنْ السماء نُعطيك عشرة ملايين دولار وننقلك إلى أمريكا أنت

وعائلتك، لكنه رفض، أصر على أنه لا يعرف عنه شيئًا، وبعد نسف المنطقة كلها، وقتل أكثر من خمسمائة إنسان، ودك بيوتها بالطائرات، وجدنا جثة أحمد أبي من السماء في مكان قريب لذلك الأحمق.

- من هو أحمد أبو من السماء؟

- زعيم المتمردين في المدينة.

- هل الفلاح الفقير وحده رفض؟

- معظم أبناء المنطقة لكن هناك من تعاون معنا بعد تعذيبه أو تهديده باغتصابه أو اغتصاب أحدى قريباته، توقف لحظة ثم سأل حسين: أتدري ماذا سأفعل إن وصلت إلى اسطنبول؟

- لا.

- احزر؟

- زيارة متحف طوب قابي أو المتحف الإسلامي؟

ضحك لعيبي:

- أأنا من هواة المتاحف؟

- جزيرة الأميرات؟

- لا.

- المياه المعدنية في ترمال؟

- لا، هذه أول مرة أسمع بهذه الأسماء!.

- ماذا إذن؟

- المبغى، يقولون التركيات حلوات، هل تعرف مكانه؟

ضحك حسين من كل قلبه:

- لا. ولا أريد أن أعرف، سلْ من سيستقبلك.

- لا أعرف من هو، أتعرفه أنت؟

- أعرفه. لكنهم قالوا لي لا تذكر اسمه فقد نستبدله.

همس لعيبي:

- لنْ تقول إذاً؟ ردّ حسين:

- لا، لكن أتتذكر ماذا نسيت في المطعم؟.

فتح لعيبي عينيه:

- لم أنسَ شيئًا.

- متأكد؟

- نعم.

ابتسم حسين وهو يسوق:

- أتراهن؟.

هزّ لعيبي رأسه:

- على ماذا؟

- فلوسك كلها التي في المخبأ.

أكّد لعيبي بجد:

- والعباس، والحمزة أقبل.

- نسيت بطل العرق.

قهقه لعيبي، قال بجد:

- أقتلك ولا أعطيك الفلوس.

ضحك حسين:

- لا أريد فلوسًا مغموسة بالدم، كنت أمزح معك.

أخذت الشاحنة ترتفع تدريجيًّا في مسار جبال طوروس، في البداية صعدت بزاوية لا تزيد على ثلاثين درجة، ثم بدأت سرعتها تتثاقل تدريجيًا، ازداد الصعود حدة، قلّتْ السرعة أكثر، بدت الجبال متَّصلة بالسماء لعلوها الشاهق، طفقت الغيوم تظهر في السماء والشاحنة ترتقي طبقة فوق طبقة، تتدرج الغيوم في ألوانها، أبيض، رمادي فاتح، رمادي غامق، أسود. بعد نصف ساعة بدأ المطر ينث ثم ازداد، أخذ يهطل، اختفت الشمس كليَّة، اضطر إلى فتح الأضواء، ينقطع المطر بين الحين والآخر، يُغيِّر من كثافته، في أحيان ما يتوقف إلى حين، بعد نحو ساعتين بدأت الشاحنة تنزل، اختفت الغيوم، عادت الشمس تشرق، كانت عينا لعيبي نحو الجهة اليمنى للشاحنة، بيده الورقة التي كتبها له السائق الشامي، حتى إذ بدا سهم أبيض من بعيد هتف: "وصلنا". كان السهم يكبر، يتَّضح ما هو مكتوب في وسطه تدريجيًّا، حين اقتربت الشاحنة منه وُجِدَ مكتوب فيه كما قال السائق الشامي:

"تل الذّهب" بالتركية والإنكليزية، هتف لعيبي:

- هنا، قف.

التل على بُعد نصف كيلومتر لا أكثر إلى الجهة اليسرى من الطريق، أصفر فاقع زاهٍ، يلمع قسمه الغربي تحت أشعة شمس ما بعد الظهيرة كأنه قطعة من المعدن المشع، بينما كانت بعض صخوره تعكس أشعة ذهبية متألقة، كرر لعيبي بتوسل:

– رجاءً توقف هنا.

انحرف حسين بالشاحنة نحو الكتف، أشعل الوامضات الخلفية، توقف في مكانٍ أمين، فتح باب المخبأ، قال للعيبي:

– قف لا تنزل الآن، دعنا نتخلص من هذه القاذورات الوحشية.

– من ماذا؟

نهض حسين، انتزع أكياس النايلون التي تحوي أدوات التعذيب، سلمه إياها، قال له:

– تخلص منها في البرية في هذا الجانب قبل أن تعبر إلى جهة تل الذهب.

– لماذا لا نتخلص منها في اسطنبول؟

– هنا أفضل. لا يوجد رقيب، اسطنبول مدينة فيها رقابة شديدة، بعد أن تتخلص منها تعال لأعطيك الباقي لتتخلص منه.

– الباقي لا. عندي مهمة في اسطنبول.

– ما هي؟

– لا أستطيع البوح بها، لكني مكلف بالقيام بعمل.

– مادمت مكلفًا بمهمة في تركيا فلن تتسلم السلاح إلا بأمر من سيستقبلك.

قال لعيبي:

– لا أريد أن يعرف هو أو أي شخص آخر أنني هربت سلاحًا معي.

– سأخبره أنا.

– لا تستطيع.

– سنرى.

زوى لعيبي ما بين حاجبيه، ابتسم مهدّدًا، ردد:

– حسنًا سنرى.

قال حسين:

– ابتعد عن الطريق، انظر إليَّ، حينما أشير لك أخرجها من الأكياس وارميها.

نزل لعيبي مسرعًا، فكَّر حسين برهة، "تُرى ما هي مهمته؟ ألا تكفي جرائمه في العراق ليقوم بواحدة أو أكثر في تركيا؟ إن فعل سيُقبض عليه هو أيضًا كشريك فيها، أي ورطة ورطت فيها نفسك يا أبله!، أتراه يريد قتلك، قتل أبي مازن، أو كليكما معًا؟ أو قتل شخص آخر؟ من يدري!"، ارتجف ثم التفت إلى المخبأ، انتزع لقّة المسدس كاتم الصوت، وضعه في حقيبته الصغيرة مع نقوده، قرر أن لا يفتح باب المخبأ إلا بعد مناقشة الموضوع مع أبي مازن

منفردين وأن يُبقي لُعيبي بعيدًا عن السلاح حتى لو خالف أوامر أبي مازن، أخذ يراقب لُعيبي حتى إذ وصل نحو مائة متر التفت إليه، تأكّد حسين من خلو الطريق، لا سيارة قادمة من الخلف أو الأمام، أشار إليه، تخلص لُعيبي مما في الأكياس في غير مكان، تختفي القطعة في ثنايا أعشاب وزهور الربيع العالية حالاً، رجع أبو خطاف يحُث خطوه، قبل أن يصل بداية الطريق الدولي بنحو عشرة أمتار انطلق يعدو بأقصى ما يملك من قوة. كان يرتدي قميصًا وسروالاً أسودين، يضع نظارة سوداء على عينيه، قطع المسافة إلى بداية الشارع الدّولي بلمح البصر، انتقل نظر حسين بشكل غير إرادي إلى أشعة الشمس تنعكس على التل الذهبي مأخوذًا بجمال درجات انعكاسات الأضواء عليه وتفاوتها في لمعان متفرد متباين، فجأة اقتحم أذنيه صوت هائل لشاحنة قادمة من الخلف، لمح لونها الفضي في المرآة في اللحظة نفسها التي خطا فيها لُعيبي أول خطوة بعد الخط الأبيض المحدد في الإسفلت، ثم رآه يرتفع أمام شاحنته، بضعة أمتار، يطير في الهواء، يلتف حول نفسه، قطعة سوداء تدور كاللولب حول بعضها وترتفع، تخيّله سيبقى يدور في الفضاء يقتحمه حتى يخترق طبقة السماء العليا، يختفي في أثيرها غير المحدود، لاحظ عينيه مذعورتين تكادان تخرجان من محجريهما، ملامح ابتسامة وأدها الألم، ثم انحرف فجأة إلى اليسار، ليسقط على ظهره، ينقلب عدة مرات، يستقر

على بطنه أمام الشاحنة، يداه ممدودتان، جسده هامد من دون حركة.

أحس حسين بدمائه تنزل من رأسه حتى قدميه، بالشلل يدهمه فجأة كقدَر أسود، لاشك أن الشاحنة التي ضربته ستتوقف، إن توقفت فذلك يعني نهايته بعد أبي خطاف، ظل يتابعها وقلبه يخفق حتى اختفت في الأفق النازل مع الجبل، ثم فكَّر في سرعة: إن مرَّت أي سيارة في الاتجاه المعاكس ورأت لعيبي مطروحًا على الأرض أمام شاحنته فسيتصل صاحبها بالشرطة، نزل حالاً، أحس أن رجليه من لباد لا يستطيع أن يسير عليها، لكنه تحامل على نفسه، سحبه من يديه، وضعه قريبًا للقمرة من جهة شاحنته اليمنى، أتعبه هذا الجهد، جعله يلهث، انتبه إلى نفسه، جسده مضطرب، ترتجف يداه ورجلاه، يرتجف كله، أراد أن يوقف ركبتيه عن الارتعاد، لم يستطع، كانتا تهتزان بغير إرادته، لم يشعر بالهلع من قبل كما شعر به الآن، لم يقلبه على ظهره، لم يشأ أن يرى عينيه أو أيًا من ملامح وجهه، فجأة أخذت الدموع تنهمر على خدَّيه، أنت لم تُحبه قط، كرهته من كل قلبك، كنت تتمنى لو وقفت في محكمة تعاقبه على جرائمه، لتكون شاهدًا على اعترافاته، إذًا لماذا تبكي؟ على من؟ أدرك أنه يبكي من دون إرادة، كان صوت لعيبي يردد:

- إنها أدوات العمل، تكون البداية بالجامعة، نضعها في معصمي العدو ثم نهدده إن لم يعترف فسنطبق الجزء الثاني، ندخل الشفرات بين ظفر الإصبع واللحم لنسيطر على الظفر، "تناول الكلابتين" ننزع الظفر بهذه الكلابتين، فيصرخ حتى ينفجر حلقه من الألم، فإن لم يعترف نقطع أصابعه، واحدًا فواحدًا بهذا المقص، بعدئذ نحن أحرار، نثقب عظامه بالمثقب الكهربائي أو نقطع لسانه، آذانه، نخرج عينه بإحدى السكاكين، نعلقه بالخطاف ثم نقص ذكره وخصيتيه، نقطع لحمًا من فخذه، نفعل به ما نشاء، وإن أردنا أن نرحمه نقطع رأسه بالساطور ضربة واحدة، طق وينفصل الرأس.

صوته يصرخ: يا علي يا كرار، ضحكته ما تزال تتدفق في أذنيه وهو في غاية الانتشاء، حدّق بالجثة، توقع أن تسيل الدماء من أنفه، فمه، مكان الضربة، أي مكان! لم يرَ شيئًا، فجأة وجد نفسه يسأل بصوت مسموع: أين الدم إذًا؟ ضربة قاتلة ولا دم؟ أمعقول هذا؟ غطس بدماء الآخرين أكثر من أي كان ويُقتل من دون أن تسح منه قطرة واحدة؟ أمعقول هذا؟ لم يرَ الشاحنة عندما ضربته، كان مأخوذًا بأشعة الشمس وتل الذهب، عليه أن يفكر في تعليل، ضربته زاوية السيارة اليمنى بينما كان يتجه ليعبر الشارع، إذًا كانت الضربة في جهته اليسرى، يعني أنها أعطبت قلبه، توقف عن النبض حالاً، هذا هو التفسير المعقول.

فجأة صعقته مشكلة آنية! مصيبة! كارثة، أين يضعه؟ هل يتركه في مكانه؟ مستحيل! في كل مكان شرطة، تبحث تحلل تستقصي، سيصورونه ويذهبون بالصورة إلى كل من يتوقعون أنه رآه، من رآه معك؟ كل أصحاب المطاعم التي ارتاداها معًا من زاخو حتى هنا، مرة أخرى جاء صوت من داخله: "تصرف بسرعة لا مجال للتردد". فتح باب الشاحنة من الجهة التي كان يجلس عليها لعيبي قبل دقائق، رفعه، خُيِّل إليه أن وزنه تضاعف بعد موته، رماه على الكرسي الذي كان يجلس عليه، أخذ يلهث، سدَّ الباب، حسنًا فعلت يا أبا مازن بوضع مانع أسود على الزجاج، بالرغم من أن أحدًا لا يستطيع أن يراه إلا أن تركه هكذا في مقعده خطر، لا تفتيش مطلقًا حتى يصل إلى قصر أبي مازن، الطريق سالك، لكنْ من يضبط المصادفات؟ ماذا لو بلغ صاحب الشاحنة التي ضربته عن الحادثة؟ عندئذ ستطير الدوريات على الطريق كالعقبان، دائمًا يحصل ذلك، حين تصلهم شكوى على شاحنة يفتشون الشاحنات كلها في الطريق، حتى لو من هاتف مجهول يريد الضحك عليهم، لولا الدوريات لرماه في الخلف وغطى الشاحنة بالمشمع، لا يراه أحد مطلقًا.

لم يبقَ سوى وضعه في المخبأ مع سلاحه لا حل غير ذلك، فتح باب المخبأ، وضع رجليه أولاً لكنهما لم تحملاه، انثنيا، ضغط عليهما بركبتيه فانحنى عليه لعيبي بجسده كله، لم يستطع إيقافه

بسهولة، أضاع نحو عشر دقائق ليتمكَّن من سد باب المخبأ، عندئذ جلس في مكانه، تنفَّس بارتياح، شغَّل الماكينة، ظل يسير برهة على كتف الطريق الدولي حتى إذ اطمأن إلى أن لا سيارة وراءه دخله، لكن القلق مع ذلك لم يفارقه، سار بهدوء شديد لكي يترك فرصة كافية للشاحنة التي ارتكبت الحادث أن تهرب، يا لغبائه حتى أنه لم يميز أكانت تركية أم لا، وقف حين وصل أول استراحة على الطريق، كانت الشمس في طريقها إلى المغيب، الاستراحة مليئة بشاحنات متراصة، معظمها فضية، لكنْ لماذا يبحث؟ توقف، اللعنة على تل الذهب! لولاه لظل لعيبي حيًّا، قرر أنه إن سار فسيصل إلى بيت أبي مازن في قبل العاشرة مساءً، ذلك وقت جيد، لا ينام أبو مازن قبل الثانية عشرة، نزل، بالرغم من اقتراب المغيب إلا أن الأشياء تبدو واضحة، مع ذلك تناول المصباح اليدوي، فتَّش في الباب، حافاته، ثناياه، لعل هناك قطرة دم، إن وجد شيئًا فسيأخذ ماءً من الاستراحة ويغسله، لم يرَ شيئًا، تنفس بارتياح، عاود السير، وإذ وصل إلى الجسر المعلق اتصل بأبي مازن، ردَّ عليه، شعر بالسعادة ترفرف فوق رأسه، تنفَّس بارتياح، ردَّد بصوت عالٍ، وهو يضع يده على السماعة:

- الحمد لله.

انزاح الثقل عن كتفيه، سمع أبو مازن يقول:

- ستجدني في جراج الشركة.

استقبلته اسطنبول التي لا تنام بضجيجها، ضوئها، شوارعها، أسواقها، ابتسم بالرغم من انهيار أعصابه، تذكر جولاته مع ميثم، وصوته المليء بالضحكات: "دعني أريك بعد الأكل مقهىً جميلاً". من بعيد يبدو المقهى على قمة جبل، تصعد إليه السيارة ببطء جعل روحه تذوب في بتلات ورد فريد يقتحم العين رغمًا عنها، على طول الطريق الصاعد الملتوي، ورود لم يرَ مثيلاً لها من قبل، كانت كلها من نوع واحد، وألوان ساحرة خفيفة متنوعة، بحجم يقل قليلاً عن حجم كرة القدم، ترى لماذا لم يستورد مثلها الدكتور صبحي؟ في الأعلى فوجئ حسين بباحة المطعم تطل على البحر، جرف صخري مقصوص، بارتفاع يزيد على مائتي متر، مُسيَّج بسياج حديد قوي يُطل على البحر، في السياج دوائر صغيرة بحجم البرتقال كي لا ينفذ منه الأطفال، الموائد منبثة في ساحة تُظللها أشجار ضخمة، يُشرف السياج على لسان صخري مندفع في البحر بطول خمسين مترًا، نزلا إليه بدرج حلزوني حديد، لا يتسع سوى لاثنين فقط، مع حافة يمسك بها النازل أو الصاعد، حتى اللسان الذي يخترق البحر محمي بسياج حديد، حدَّق في ماء البحر، ما أصفاه! استطاع أن يرى بوضوح حتى عمق خمسة أمتار، أطفال، شباب، نساء، رجال، عجائز، في يد بعضهم كعك، قطع خبز جاف، طعام حيوانات جاهز، يرمونها، يرتفع صياح، بهجة، قهقهات، مرح، تتلقفها أسماك مختلفة الأنواع والأحجام، تتجمع على أسفل

السياج الطويل. نظر ميثم إلىّ وجه حسين بانتشاء تتنازع ملامحه شظايا إعجاب، إثارة، سعادة:

– ما رأيك؟

هزَّ حسين رأسه:

– لم أرَ في حياتي أجمل من هذا! لابد أن الصيد هنا ممنوع.

– نعم. وإلا ترى العشرات وبأيديهم صنارات.

حدَّق حسين في المياه مرة أخرى، شديدة الزرقة، شفافة، أنيسة، رقراقة فوق الصخور، انتقلت عيناه إلى سطح الماء حيث تتغير ألوانه بين بقعة وأخرى، في البعد والعمق، ليصبح رماديًا تسوده زرقة خفيفة، تكتنفها خطوط عرضية تكشف ألوانًا تتفاوت في الزرقة، تمتد أمام عينيه من الشرق حتى الغرب، ولتمتزج مع السماء في نهاية الأفق فيستحيل عليه تحديد خطٍ يفصل بينهما، إذ يؤول أمر الكون كله إلى وحدة كاملة. أين أنت يا ميثم؟ أصبحت أمين عاصمة، أمين بغداد، بعد الغزو كشفت عن اسمك كاملاً: ميثم عبد الحسين الخلاط، نفخ الله في صورتك، ضحك من كل قلبه، ترى أتتذكر وأنت في منصبك جولاتك الدائبة التي شملت المدينة وضواحيها معي؟

في جراج الشركة اقترب منه أبو مازن، كان وحيدًا، لكنه شاهد من بعد رجلين كهلين ينظران إليه، قال وهو يعانقه:

- أتعرف أنني وصلت اليوم ضحىً؟ أي مصادفة! لكنك تأخرت خمسة أيام! وقت قياسي لم تتأخره من قبل.

هزّ حسين رأسه:

- نعم. صادفتنا صعوبات كثيرة.

- الحمد لله على السلامة. تلفت يمينًا وشمالاً، نظر إليه باهتمام: أين لُعيبي؟ لو تدري كم هاتف وصلني اليوم منذ أن وطئت قدماي اسطنبول، أين لُعيبي؟ أين أبو خطاف، أين السيّد لُعيبي؟ أين الزعيم؟ قلتُ لأبي حسين لا تُعطي تلفوني لأي كان، يبدو أنه اضطر إلى إعطائه إلى جماعة لُعيبي منعًا للمشاكل.

ابتسم حسين:

- المشاكل؟ أو الخوف؟

ضحك أبو مازن:

- كليهما. أين هو؟

حدّق حسين في عينيه:

- يرفض أن يغادر المخبأ. ابتسم أبو مازن:

- إحدى نزواته! لابد أنه جننك بسوء خلقه، طلباته، قذارة لسانه!

- جنني فقط؟

ضحك أبو مازن ضحكة قصيرة، همس وهو يتلفّت:

- لا أعتقد أن هناك من هو أسوأ منه في العراق كله.

توقف حسين، نظر إلى أبي مازن لائمًا:

- تعرفون كل ذلك ولم تحذروني!

قرَّب أبو مازن فمه منه وهو يهمس:

- لو كان غيرك لنبهناه، لكننا نعرف أنك تستطيع السيطرة على هذه الحشرة وما هو أسوأ منها.

تقدَّم حسين إلى الشاحنة، فتح بابها:

- اصعد.

لم يصعد أبو مازن، قال متسائلاً:

- أأنت جاد؟ لا أصدقك، لعله نائم في الشاحنة من الخلف.

ذهب إلى الخلف رفع المشمع، لم يرَ شيئًا، رجع، صعد إلى القمرة، فغر فاه بقلق:

- أين هو؟

قال حسين:

- سأفتح باب المخبأ وإن انفتح سيسقط عليك لعيبي، فتلقفه!

ضحك أبو مازن:

- أأنت جاد؟ لم أفهم شيئا.

- كما قلتُ لك.

ضغط حسين على الزر فانفتح الباب واندلق لعيبي ساقطًا على ركبتيه، ثم انحنى فارتطم رأسه بفخذي أبي مازن، انفعل وهو يتحسس رأسه، أخذ يلهث، هتف:

- ما هذا؟ هل انتحر بالطريق، إنه بارد، ميّت، كيف مات؟

– لا تعجل سأقص عليك القصة، لكنْ قبل كل ذلك علينا أن نفكر ماذا سنفعل به؟

احتدم أبو مازن برهة:

– أرجعه إلى المخبأ الآن، يبدو أنه سيقضي هذه الليلة وحيدًا لأول مرة منذ الغزو.

– ساعدني.

وضعاه في مكانه، أغلق حسين باب المخبأ، قال أبو مازن:

– ستقضي الليلة عندي، دعنا نفكّر معًا.

– أنا عندي أيضًا ما أريد أن أناقشه معك.

– كان لابد أن يموت ميتة تعسة، لكن ميتته هذه مرت سريعة، لم يتألم فيها، يستاهل أن يلقى ما كان يذيق ضحاياه من عذاب، لكنْ ماذا سنقول لعصبته المجرمين؟

قال ذلك وضربه سوط همٍّ شديد، جعل عينيه الصفراوين تضيقان، هم اغتصب بريقهما، سكت برهة طويلة، وهو جالس على الكرسي نفسه الذي كان يجلس عليه لعيبي، قضى بضع دقائق وهو يعمل فكره، تأوَّه بعدئذ، شعر حسين أنه زفر ألمه بتلك التأوهة، نزل من الشاحنة، تناول حسين حقيبة ملابسه، ووضع فيها حقيبة النقود والمسدس مع كاتم الصوت، أغلق الملجأ والشاحنة، لحق بأبي مازن إلى سيارته الألمانية الأنيقة السوداء، التفت سائقها التركي إلى أبي مازن وقال بضع كلمات، هزَّ أبو مازن رأسه.

ردد أبو مازن وهو ذاهل وبصوت خافت:

– ماذا سنقول لهم؟ ماذا سنقول لهم يا أبا مازن؟ ماذا سنقول لهم؟

كان ينقر ببنصره الأيمن على ظهر كفه، ثم أحنى رأسه وعصر جبهته بقوة، خيل لحسين أن تلك المعضلة أصبحت هواء ثقيلاً مسمومًا خانقًا سيقتل أبا مازن، لكن هذا التفت إليه:

– دعنا نتمتع الآن، ننسى القضية، ننام مرتاحيْن وفي الغد سأجد الحل الملائم وقد كتبه العقل الباطن هنا.

أشار إلى رأسه ونقر جبهته، ثم التفت إليه:

– أنت متعب؟ أليس كذلك.

– ماذا تظن؟

ابتسم أبو مازن ولم يقل شيئًا، أغمض عينيه حتى توقفت السيارة، سياج لحديقة محاط بقضبان حديد سود تنتهي بزوايا حادة، يصعب تجاوزها، بينما كان الباب لا يفتح أو يغلق إلا بجهاز سيطرة إلكتروني، لينبجس طريق مزدوج مزدان بورود لم يتبين حسين ألوانها، بالرغم من الضوء المنبعث من غير مصباح مثبت على جانبي الطريق، كان يسمع من ميثم كثيرًا بقصر أو بيت أبي مازن لكن هذه هي المرة الأولى التي يدخله، بدا لحسين أنه دعاه ليفكرا معًا في مصير لعيبي، وإذ انتهى الممر توقفت السيارة أمام الباب الداخلي المبهر الذي كان مزيجًا من الزجاج الملون والخشب في

مربعات غير متماثلة إطلاقا، يفصل بينها إطارات مذهبة، أو مفضضة.

استقبلهما ممر بطول مترين يؤدي إلى قاعة واسعة مؤثثة بطراز حديث من الأرائك والمناضد والكراسي، القاعة دائرية محاطة بنوافذ عريضة بين أربعة إلى ستة أمتار، وفي وسط القاعة درج زجاجي لولبي يُفضي إلى الأعلى، صعد حسين خلف أبي مازن، وجد نفسه في قاعة دائرية أخرى صغيرة تتقاسمها بضعة أبواب، قال أبو مازن وهو يُشير إلى أحد الأبواب:

- هذه غرفتك، في داخلها حمَّام وحوض تستطيع أن ترتاح فيه، ثم انزل لنكمل السهرة.

انتصبت أمامه غرفة الفندق الذي نزل فيها مع الأمغر، لكن هذه الغرفة أفضل، أكثر جاذبية، لوحاتها أحدث، أجمل غرفتين دخلهما في حياته، لم يدر كم قضى متمددًا في الحوض الأزرق والماء يدغدغه في ظهره، ساقيه، صدره، قدميه، كان الماء يندفع بقوة من ثقوب عدة ليغسل الجسد، يمسده، يريحه من دون بذل أي جهد لتحريك اليد، بصعوبة طرد من دماغه صولة الكفاح على الأعصاب التي خاضها مع لعيبي ونزواته وجنونه، استحضر هيكل نبْع تبتسم، أتحلم ببيت مثل هذا! كلما تأتي من بيت رقل كانت لا تمل من وصفه، لكنها ذكية لم تفه بأي كلمة عن رغبتها بأفضل من النقرة التي يعيشان فيها، لم تسأله إذا كان وفر نقودًا تكفي لبيت

جديدا ما أعظمها! ثم أحس بتأنيب ضمير كبير لأنه يُخفي كل شيء عنها، حتى رغبته بشراء بيت في اسطنبول فخم كهذا، وعده أبو مازن ببيت هنا، ليسجله باسمه، لا بأس، لكن أن يعيش معها في مكان يعرفه المتوحشون لا، لم يبقَ أمام تحقيق حلمه سوى أسبوع واحد، صبر طويلاً، عندئذ سيختار مكانًا آمنا، نعم، اقترب وقت التحرر كلية، الابتعاد عن شرذمة الشر هذه، ليكن شعاره لا أكثر من أسبوع آخر، ومع تصميمه هذا وجد جسده يرتخي ودماءه تبرد، زفر طاردًا آلام ثاني أقسى وأصعب وأطول يوم مر به في حياته بعد يوم تهريب الأمغر، تُرى هل ستفاجئه الأيام بيوم أشد من هذين اليومين؟ ابتسم بسعادة، تمنى لو كان الوقت نهارًا لخرج ونظر من الشبابيك إلى الجو، أعجبته هذه المدينة إلى حد لا يصدق، لكنها مع الأسف قريبة من العصابة، لا، لن يدع نبْع تراها، العالم مليء بالجمال، سيتصل بالدكتور مروان ليجس له الإقامة في البرازيل، لابد أن صديقه الذي يرسل بذور الورد للدكتور صبحي يعرف عن الأماكن الجميلة الكثير، نعم إذًا سيكون السفر من بغداد إلى عمان ومن هناك إلى الجنة، قطعت أفكاره طرقات على الباب. وصوت أبو مازن:

– هل نمت؟

– لا، أنا قادم، دقيقتان فقط.

كما أحس أن ساقيه وقدميه غريبتين عنه عندما قتلت الشاحنة الفضية لعيبي؛ عاد الإحساس نفسه الآن لكن بشكل معاكس، الآن ساقاه، قدماه خفيفتان كالريشة، ربما كان وضعهما كذلك عندما كان طفلاً يلعب الكرة، ينط ويقفز ويركل.

ارتدى سروالاً، وضع المسدس بين الحزام والجسد، أرخى فوقه قميصًا من الكتان المربع، نزل وهو يسمع أصواتًا لم يسمعها من قبل، أصوات فتيات يلعلع بينها صوت أبي مازن، كانوا جالسين حول منضدة دائرية، كرسي شاغر أدرك أنه له، حيَّاه أبو مازن، نهض، قالت القريبة من أبي مازن معرفة نفسها: ألِف.. ابتسم، توقع أن تقول الثانية: باء، لكنها! قالت نزان، أما الثالثة فابتسمت سحبت الكرسي إلى الخلف، صافحته قالت ريّان ثم جلست، شكرها بالإنكليزية، وجد نفسه مرغمًا بين اثنتين، كن لا يرتدين سوى أقمصة شفافة لا يختلف الواحد عن الآخر كثيرًا إلا بالألوان، اعتراه خجل شديد، أحس بالدماء تتدفق في وجنتيه، مدَّت نزان كفَّها البيضاء الصغيرة، مسحت وجهه، قالت بالتركية عبارة ضحك منها الجميع، علقت ألِف بجملة أخرى، اشتدت القهقهة، سأله أبو مازن:

- أتعرف ماذا قالتا؟

لم يزل الخجل، لكنه أحس أن أبا مازن يحاول بسؤاله أن يقتلعه، قال:

- لا.

استمر أبو مازن:

- قالت الأولى مسحت وجهه لأرى هل هناك دماء تنبثق من الجلد، قالت الثانية الخجل رمز للقوة الجنسية، بقدرته مضاجعة عشر مرات في الليلة.

تكرس خجله، لم يستطع أن ينطق كلمة واحدة، تكلمت الثالثة، كان صوتها متغنجًا رنانًا يشبه صوت (نبْع):

- ما أوسمه!

صبت الأولى له كأسًا صغيرًا من الوسكي، قال أبو مازن:

- هذا شراب أهل الجنة.

ابتسم حسين:

- أفضل الجعة.

رد أبو مازن:

- اشرب هذه وحدها ثم ثن بالجعة.

المائدة مليئة بأكثر من عشرة أنواع من "المَزَّة"، الفتاتان اللتان تجلسان إلى يمينه ويساره تخدمانه، تدغدغانه، تضحكان. انفردت الثالثة لخدمة أبي مازن، تذكَّر ميثم ومن معه في أول لقاء، استطاع آنذاك أن يسيطر على نفسه، لم يلمس الفتاة التي جاء بها، لكنه هنا لم يستطع، بدأتا بالرغم منه تجوسان في مناطقه الرطبة، تكتشفان الغابة التي يتوافر عليها، خشي أن تكتشف

إحداهما المسدس، تملص منهما ونهض، اعتذر لكن أبا مازن الذي لابد نما إليه زهده بالنساء، اعترض:

– مالكَ؟ حتى أنك لم تأكل.

قال:

– دقيقة واحدة فقط.

يا لك من سخيف! لماذا جلبت المسدس؟ أأنت صغير لتقع بخطأ بعد خطأ! وضعه تحت مخدته، نزل بهدوء وهو ينظر إلى مرافقتيه شبه العاريتين، أفخاذهما الملساء المصقولة، أثدائهما الناهدة، سمع في الليل صوت باب الحمَّام يُفتح ويُغلق مرتين، لم يستيقظ، انتباهة سريعة خلفت أثرًا باهتًا تناثر في اللاوعي حالاً، رجع مرة أخرى إلى نومه العميق، ثم اضطر إلى النهوض للذهاب إلى الحمَّام، في رجوعه رأى الفتاتين عاريتين فاتنتين، لم يشأ إيقاظهما. لكنْ لا بد من ملامسة إحداهما ليجد له مكانًا يتمدد فيه. الضوء خفيف لكنهما وهما في رقادهما وما ينكشف من جسيديهما أثاراه من جديد، اندس لصق أقربهما إليه، ظهرها إليه، الحيز ضيق، أحست به، انقلبت نحوه، فتحت عينيها لحظة، عانقته بقوة من عنقه، ازدادت التصاقًا به، شخرت بخفوت، تفعل (نبْع) الشيء نفسه عندما يستيقظ في الليل، خدش قلبه الندم، هل سيصارحها؟ أغمض عينيه، راح في إغفاءة عميقة، أفاق على مداعباتهما،

قبلهما، فجأة تفجَّر التوتر مرة أخرى، التاسعة وبضع دقائق، قالت له ريَان:

– ابقَ بضع دقائق، سندلكك.

بدئتا بأصابع رجليه، كانتا ماهرتين، أحس أن جسده تغيَّر تحت أيديهما، بات عجينًا تصيغانه كيفما تريدان، أغمض عينيه، وهما يسحبان توتراته وقلقه إلى واحة أمان كثيفة، نهض معهما إلى الحوض، تعاونتا على إنعاشه مرة أخرى، نزلوا إلى الطابق الأسفل، رأوا مائدة الفطور مُعدَّة، أبو مازن يرشف مع الفتاة الثالثة القهوة بالحليب، يقرآن الجرائد التركية، رحبا بهم، اختار حسين أن يجلس مقابل البحر، لم يكن بعيدًا. تكلمت رفيقة أبي مازن معهما، قهقهتا، موسقت إحداهما كلماتٍ، اشتدت القهقهة، قال أبو مازن وعيناه على الصحيفة، كأنه يكلمها:

– قالتا، أخطأتِ، ضاجع خمس مرات فقط.

ابتسم وتجاهل التعليق، البحر صافٍ أزرق بلون السماء، الشبابيك العريضة مفتوحة، النسيم منعش، قدَّر أنه لابد أن يهب أسرع قليلاً خارج المبنى، على الماء. انتقلتْ عيناه إلى بضعة زوارق شراعية تتسابق، تجرح سطح البحر بقوة، لابد أن الهواء يدفعها للسير مخلفة مثلثات من الزَّبد الأبيض تكبر بين لحظة وأخرى، تختلط مع بعضها، تتلاشى، تستحيل إلى مويجات صغيرة ككرات متراصة تغرق بعد لحيظات، بينما يبدو أمامه على بعد بضعة أميال شاطئ

ينبعج نحو فضاء من غابات تتخللها مبانٍ بيض زاهية، تفسح المجال إلى بركان من ورود بنفسجية وحمر وصفر وبرتقالية تلتف على بعضها لتكوّن قلبًا صدره نحو البحر وذيله نحو مروج خضر بدت وكأنها ساحة ملعب "جولف" شاسع، تهيئ النظر نحو بهجة أخرى في دوامة من أشجار الورد، بينما يرتفع سفح إلى اليسار على تل كبير مرصع ببيوت بيض وصفر تزهو بقرميدها الأحمر الأخاذ، في الجهة اليمنى خطوط من أشجار متفاوتة الخضرة تسودها أشجار الجهنمي البنفسجية، تبدو وكأنها تفصل صفوفًا من بيوت متنوعة، صفًا فوق صف.

ودَّعت نزان وريّان أبا مازن وحسين بالقبل، اختفيتا بعد الفطور، لم يبقَ معهما إلا أليف، كانت في نحو الثانية والعشرين، سمراء حلبية، طويلة القامة مثله، نحيفة، ذات صدر معتدل، قال أبو مازن:

– فكَّرت ووصلت إلى قرار.

– ما هو.

– تأتي بالشاحنة إلى هنا، أقوم أنا بصرف الجميع، الخدم، الحراس، الفلاح، حتى هذه، نُنزل أنا وأنت لعيبي من المخبأ، نضعه في سيارتي، نذهب نرميه في مكان بعيد مقفر ونرجع.

جاءت امرأة أربعينية بيضاء نحيفة متوسطة الطول، تلف شعرها بقطعة حرير بنفسجي، تنزل جذيلتان شمطاوان على طرفي صدرها، أخذت ترفع المائدة، تساءل حسين:

- ماذا تتوقع أن تفعل الشرطة؟

- لا شيء مطلقًا، هو بلا أوراق.

- وعصابته؟.

قال أبو مازن بألم:

- تلك هي المشكلة، سنذهب إلى مركز الشرطة المسؤول عن المنطقة التي رميناه فيها، لأنهم عادةً ما يضعون صور القتلى وأوصافهم وكل ما يخصهم في لوحة إعلانات وينشرون ذلك، بما فيه الصور، في جرائد معينة، عندئذ لا يوجد غير المقَّص والتوابل.

- ما معنى المقصّ والتوابل؟

ينزل ثوب المرأة بطوله ليُغطي حذاءها المُسطّح، بينما يصل ردناه العريضان إلى راحتيها، أخذت تمسح المنضدة الزجاجية بعناية، قال لها أبو مازن عبارة بالتركية، هزت رأسها وتركت المائدة، ضحك أبو مازن ضحكة قصيرة:

- يعني أننا نقص صوره وما كُتب عنه، نترجمه إلى العربية، نرسل القصاصات في بريد سريع إلى العراق، نضيف تعليلاً مقنعًا: "وصل سالمًا لكننا لم نستطع السيطرة عليه".

- هذا معقول. كم يستغرق ذاك؟.

- أسبوع أسبوعان في الأكثر.

- لماذا نأتي بالشاحنة إلى هنا وننقله إلى سيارتك؟ نضاعف العمل! نذهب بالشاحنة إلى المكان الذي نختاره ونرمي الجثة هناك.

جاءت الخادمة بصينية الشاي، أخذت تصبه في ثلاث استكانات من الكريستال، ضفيرتاها يتحركان فوق الزجاج، ضحك أبو مازن:

- أنت داهية، دائمًا تفكيرك أكبر من سنك.

- لكني لن أبقى هنا، سارجع غدًا فجرًا.

نفى أبو مازن بهزة رأس:

- لا، أريدك هنا معي لتكون ساعدي، موت أبو خطاف قضى على رجوعي إلى العراق، ليس عندي من أثق به غيرك.

ابتسم حسين:

- لكني يجب أن أنقذ زوجتي.

نظر أبو مازن في الفضاء الجميل أمامه حيث السفن تمخر عباب البحر لا تثير خلفها سوى مثلث أبيض ذي زبد يطفو، فوق السطح الأزرق الدافئ:

- هناك من يجلبها آمنة إلى هنا في يومين لا أكثر.

- لا أثق بمن يتبع لعيبي ومن على شاكلته، لا أثق بأي كان.

- لابد من التعاون مع الحثالة إن أردت أن تكون في القمة!

ابتسم حسين ونظر إليه:

- عدت ثانية إلى الغازك.

هتف أبو مازن:

- أريد أن أشاركك بثروتي كلها، أضعك معي في القمة، وأنت تأبى!

- لكن هناك أمور غامضة لا أعرفها.

حدّق به أبو مازن بعينيه الصفراوين وبتركيز وانفعال لأول مرة منذ أن شاهده:

- انظر إليّ، أنا أعيش أفضل من أي ملك في العالم، لن أرجع إلى العراق، سأبقى هنا. من يريد أن يأتي عليه أن يخضع لشروطي أنا لا لأي شيء آخر، أنا تاجر، مليونير قبل أن أعمل مع هذه الحثالة، أتدري كم نقلتَ في شاحنتك خلال المدة التي قبلتُ فيها منصب نائب رئيس الوزراء؟، لم يترك له فرصة للجواب استمر: نقلتَ أكثر من مائة وخمسين مليار دولار منها ستة وثلاثون مليار دولار لي أنا وحدي، أتعرف معنى ذلك؟

بهت حسين:

- كم؟

- ستة وثلاثون مليار.

انقبض قلب حسين، حمالة حطب أنت يا حسين! حمار شغل فقط، تنقل على ظهرك ولا تدري كم، لا تهتم، استفدت أنت أيضًا، أصبحت تملك الملايين، لكن كان عليك أن تعرف كل شيء، أنت لست آلة!، اقتربت من النجاة، عليك أن تُسرع لإخراج نبع وخالك

وزوجته في الأقل تمتعوا بالثروة في سلام، بدأت من بعيد طائرة مروحية تنزل علمًا تركيًا ضخمًا تحته لافتة زرقاء مكتوبة بالأبيض باللغة التركية، قال حسين وهو يتابع العَلَمَ:

– لا، أسمع بالمليار، لكنني لا أعرف كم يساوي!

ضحك أبو مازن ضحكة خافتة:

– لتعرف كم يساوي المليار عليك أن تعد: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، ولكي يصل العد إلى مليار يجب أن تواصل العد لأربعمائة عام كاملة، بشرط أن لا تأكل أو تنام، أما لكي تعد ستة وثلاثين مليارًا فعليك أن تعد لمدة أربعة عشر ألف سنة، هذا معنى ستة والثلاثين مليار دولار، يعني ميزانية عشر دول من دول العالم المتخلف، حصلتُ عليها، حصل غيري على أكثر منها أو أقل، لكنهم سيبددونها على لا شيء، حمقى، أغبياء، لصوص، إن عملتَ معي ستكون شريكي، نقر على دماغه، هنا خطط جبارة وأنت منفّذ ذكي أمين، سنكون أغنى أغنياء العالم خلال عشر سنوات، سيكون لكل منا أكثر من مائة مليار دولار و...

قاطع حسين:

– وشركاؤك؟

– من تعني؟.

تطير المروحية ببطء يُمكّن الجميع من قراءتها، بينما العلم واللافتة يظهران كورقة صقيلة تبحر في السماء، قال حسين:

- الأمغر وأخوك أبو حسين؟

- أبو حسين سمسار لا قيمة له، ليس أخي، لا يمُتّ لي إلا بصلة العمل، يعرف كيف يجند الأعوان، أما الأمغر فمهم لأنه رئيس حزب، والحزب متنفذ، ساعد الأمريكان، اليد اليمنى لهم، الآن يحكم العراق، لذا يجب أن يحسب حسابه بدقة.

تنفس، أغمض عينيه كمن يعيد التفكير في قضية معينة مئات المرات ثم نظر إلى حسين بنصف إغماضة:

- ماذا حدث في الطريق عندما هربت الأمغر؟.

ضرب شعاع شك دماغ حسين، لماذا تذكر ذلك الآن بعد سنوات؟.

- لا شيء.

ضحك أبو مازن ضحكة قصيرة:

- إن كان لا شيء فلماذا يسألني هل قال لك حسين عني شيئًا وأنا في الطريق؟

اشتدَّ شك حسين:

- أسألكَ؟.

نظر أبو مازن بتركيز:

- نعم ثلاث مرات، أقول له حسين سكوت، أمين، لا ينقل أي شيء، مدَّ سبابته كنوع من التحذير، ومرتين سألني هل تعتقد أننا يجب أن نتخلص من حسين؟ قلت له في المرة الأولى حسين يفيدنا أكثر من أي كان في أي وقت، وفي المرة الثانية صرخت في

وجهه لا تكن ناكرًا للجميل، هو الذي أنقذك من الإعدام، لو كان غيره لسلمك، هو من نقل المليارات لنا، كان يستطيع أن يخبر الأتراك كما فعل ناقل المليارات الإيرانية إلى حزب الله اللبناني ويحصل على نصف الغنيمة، لذا يجب أن تخبرني عما حدث في الطريق.

اختفت المروحية من الأفق، ابتسم حسين وهو يرتعد من الداخل:

– نعم، حينما أصر المفتش أني أهرب شيئًا خاف الأمغر وفعلها في ملابسه، أصدر قنابل رياح من المخبأ.

انفجر أبو مازن ضاحكًا:

– صحيح؟ لا أصدق ما أسمع! كيف تركك المفتش؟

أغمض حسين عينيه ليهدئ نفسه:

– أقنعته أنها مني، وأني مصاب بزحار.

فكّر أبو مازن لحظات، سهمت عيناه بعيدًا وهو ينظر إلى البحر كالمأخوذ، ثم انفجر بغتة يضحك، يردد:

– يا له من ضراط! يا له من ضراط!

– ليس هذا حسب، بل صرخت به عندما فقد الحقيبة:"كفى عويلاً كالنساء! وجللته بالبطانية، قلت لمن جهزنا بأنبوب ماء نغسل القمرة من برازه، هذه زوجتي، كي لا يكتشفوا أن رجلاً معي في الشاحنة احتياطًا، رجاني أن لا أذكر ذلك لأي كان.

أنهى أبو مازن ضحكته وأردف:

– الأمغر خبيث دنيء قذر جبان، لن ينسى تلك الإهانات، لكنه ذكي، يلح علي أن أشاركه، سيكون مفتاح حنفية الذهب لنا، حتى إن خرج من رئاسة الوزراء سيبقى العراق بيد حزبه، يعني بأيدينا. العراق يعني النفط، النفط هو المحرك الأساس للاقتصاد العالمي، النفط هو الله الأوحد في هذا العصر، هو الإله، القبلة، المستقبل. أرأيت؟ يجب أن تبقى معي، لا تغامر بروحك، الأمغر خبيث، مادام طرح تصفيتك فلابد أن يفعل، لكنك هنا معي محمي، لن يطالك أذى.

قال حسين:

– لا أستطيع ترك زوجتي وحدها في ظروف كهذه بعد أن رأيت الصور التي تكشف ما فعل لعيبي وزمرته.

ظهر زورق تجديف مصبوغ بالعلم الأسباني فيه نحو عشرة شباب يرتدون ألوان العلم، قال أبو مازن:

– وماذا تستطيع أن تفعل؟ جاء الغزاة بالاتفاق مع الأمغر وأمثاله، يقضي الاتفاق أن يترك العراقيون حق التصرف بالنفط للغزاة وحدهم، ويترك الغزاة حق التصرف بالعراقيين للأمغر، لا يتدخل شريك بعمل شريكه.

– ما معنى التصرف بالعراقيين؟

– إخلاء العراق من عشرة ملايين قتلاً وتهجيرًا، ليتقلص عدد أعدائهم إلى ١٩٠% من سكان العراق، حينئذ يضمنون الفوز في

أي انتخابات، ثم يقضمون الباقي تدريجيًا بالاغتيالات والتهجير بهدوء، حتى يكنسوهم من العراق، هذه هي خطة الشراكة الأبدية بين الاحتلال والأمغر، أكشِفُها لك لأني توقفتُ، أنا لا أهتم بالسياسية، بالدولار فقط، حصلت عليه، فلماذا أرجع؟ لن أرجع إلى العراق الذي لم يعد عراقًا، لذا لا تكن عاطفيًّا، تصرف بتعقل، أعرض عليك مستقبلاً قلما يرفضه أحد.

فجأة احتل أفق البحر مئات من زوارق التجديف، تحز سطح البحر بسرعة، كل زورق مصبوغ بعلم دولة من دول العالم، قال حسين:

– لا مجال لتغيير رأيي، ما إن نتخلص من جثة لعيبي حتى أرجع.

قال ذلك ثم فتح عينيه على وسعيهما وهو ينظر إلى أبي مازن كمن يتذكر شيئًا، فتساءل هذا:

– ما هنالك؟

– تذكرت شيئًا قاله لعيبي لما سألته لماذا جاء بالقنابل اليدوية وبالرشاشة معه؟ قال: "كُلفت بمهمة في تركيا"، لكنه لم يفصح عنها، قلت له لن أسلمك السلاح إلا بموافقة الرجل الذي يتسلمك مني فهددني، قال: سنرى، لم يكن يعرف اسمك، ولم أخبره، خططتُ أن لا أفتح باب المخبأ عن السلاح إلا بعد أن أعلمك عن نيته وبوجودك، ماذا تظن؟ هل تظن الأمغر أراد التخلص مني هنا؟

فكر أبو مازن برهة:

– قلت لك إنه خبيث وجبان، نعم منك بالتأكيد، يخشى أن تفضحه، وربما مني أيضًا لأنه ظن أنك أفضيت لي بالأسرار، لا يوجد غيرنا نحن الاثنين.

اندفعت إلى مخيلة حسين ما رآه وسمعه كل يوم عن عشرات الجثث مرمية في الشوارع والمزابل أمام الأبواب، جثث متفسخة لأطفال، نساء، رجال، شيوخ. كلاب تفضل جثث الأطفال على غيرها، سيارات حكومية تقف ينزل منها ملثمون يرتدون أزياء القوات الخاصة، يدفعون الأبواب يقتلون كل من أمامهم ينهبون البيت ويختفون، آخرون يقتلون حراس البنوك والمصارف، يسرقونها هي ومحلات تبديل العملة والصاغة والشركات، عصابات متخصصة بقتل الأكاديميين وطلاب المدارس، كل ذلك يجري بتنظيم محكم، بهدوء، دون ضجة، دون تحقيق.

قلّتْ أعداد الزوارق المتسابقة، لم يبقَ أمامه سوى ثلاثة عليها أعلام لم يعرف لأي دولة تعود! حدّق بأبي مازن:
– لن أبقى. الآن أدركت أن أهلي في خطر، عليَّ أن أنقذهم.
سهم أبو مازن في فضاء البحر:
– لو لم يقبّر أبو خطاف لاستطعت جره للكلام، لعرفت تفاصيل المؤامرة علينا، لكني أحذرك إن علم السود بموت أبي خطاف فتلك نهايتنا كلينا، نهاية أي منا يطأ أرض العراق، لن يصدقوا أنها

حادثة دعس حتى لو صورتها بالفيديو، يتصورون أننا قتلناه تنفيذًا لأوامر الغزاة.

فكّر حسين برهة ثم نظر إليه بتركيز وبصوت هادئ:

– إذًا ستكون أنت المسؤول عن بقائي على قيد الحياة أنا وزوجتي.

قهقه أبو مازن:

– لماذا؟ لماذا أنا؟

اختفت الزوارق كليًّة، جاءت بضعة زوارق حكومية ترفع العلم التركي، بدت كزوارق خفر سواحل أو إنقاذ، قال حسين:

– لأنك تستطيع أن تقول لمن يسألك لم تصل البضاعة، لم تصل الشاحنة.

– لمدة أسبوع؟

– إلى الأبد، لماذا تحدد وقتًا؟

حدّق أبو مازن فيه مأخوذًا:

– لم أفهم.

أنهى حسين استكان الشاي، سأله أبو مازن:

– أتريد آخر؟.

هزّ حسين رأسه، أشار أبو مازن إلى الخادمة، ابتسمت، كانت عيناها صفراوان، حيتان، جاءت بآخر، قال حسين:

- تصورّ أنني تخلصت منه ورجعت إلى العراق قبل أن أصل إلى اسطنبول، يعني أنك لم ترَني قط، متى سيكتشف المتوحشون الحقيقة؟

- تأخذ العملية بتدخل الأمغر والنفوذ الرسمي من ثلاثة أشهر إلى ستة، أما إن لم يتدخل الأمغر فربما سنة، الاستقصاء من الحدود، الإجراءات الرسمية البيروقراطية، كتابنا، كتابكم، التدقيق في الأرقام الخ، يأخذ مدة طويلة.

جاءت سفينتا شحن كبيرتين إحداهما زرقاء والثانية صفراء، بدأت الأولى تعكر صفاء الجو بصراخ أشبه بنواح يصدع الرأس، ينقطع ثم يعود.

- هذا ما أقصده، قلْ لهم لم تصل الشاحنة بعد، بعد عشرين يومًا قلْ لهم جهزوني برقم الشاحنة وباسم السائق كاملاً، وبعد أن يرسلوه لك، قدمه ببلاغ رسمي، وحين يُجيبك الطرف التركي بعد أشهر بتقرير لا ترسله لهم، قل لهم هنا بيروقراطية مملة، بلغوا الحدود من طرفكم، سيأخذ التقرير ستة أشهر إلى سنة، سيقول التقرير على سبيل المثال خرجت الشاحنة من الحدود في تاريخ كذا، ودخلت بعد أربعة أو خمسة أيام، سيشكون في المعلومات لأنهم لن يجدوني أو يجدوا الشاحنة في العراق، هذا وقت أكثر من كاف، بعد عشرة أيام من الآن في الأكثر سأكون في الأردن أو سوريا أو تركيا مع زوجتي وخالي وزوجته، اسم جديد، هوية

جديدة، جنسية أخرى، لا يعرفني من العالم القديم سواك وأهلي، سنخطط إن عملنا معًا أن أعمل في مكان بعيد منعزل عنك، لا أرتبط بك إلا في أوقات معينة، وبأمكنة معينة.

- وأهلك؟ ألا تخشى عليهم؟ سيقتلونهم كلهم.

- ليس لي سوى خالي وزوجته، سيخرجان معي أو بعدي بيوم.

- وأهل زوجتك؟

- سجلنا زواجنا أمام رجل دين بالسر، لم نتزوّج رسميًّا حتى الآن، كل منا من مذهب، نخشى تسجيل الزواج رسميًا وعلنًا كي لا نقتل، رأيت في سوريا عددًا هائلاً لنساء قتل أزواجُهن لأنهم من مذهب آخر، توجد أختان قتل زوجاهما أحدهما سني، والآخر شيعي، تهمة الشيعي أنه أخفى عديله عنده بضعة أيام، لا يعرف أحد زوجتي قط سوى عائلتينا.

* * *

قبل أن يصل الدار بنحو خمس عشرة دقيقة اتصل بـ(نبْع)، كانت في بيت أهلها، قالتْ له وبصوت مبحوح أثار قلقه إنها ستراه في مسكنهما حالاً وستكون معها رقل. عندما سألها "لماذا رقل؟"، قالتْ له: "إنها ستشرح له كل شيء عندما تلقاه". انقبض قلبه، الوقت مساء، قبل مغيب الشمس بدقائق، وضع الشاحنة في الجراج، أخذ سيارة أجرة، أحس بخزي يلطخه منذ أن ترك أبا مازن، لأول مرة يلمس امرأة غير زوجته، رقد ليلاً في أحد فنادق غازي عنتاب،

رآها غاضبة عليه، تصرخ على غير عادتها: "لا تكذب عليَّ، أنا أشم رائحة الفتيات تنضح من جلدك اعترف، كم واحدة رقدت معها؟"، فجأة تختفي وينتصب لعيبي أمامه وعلى منضدة بينهما أدواته، يهز رأسه فرحًا: "أتخلصت مني بهذه السهولة؟ لا. سأريك نجوم الضحى. اربطوه إلى الكرسي"، حاول أن يتحرك لكن قدميه تأبيان أن تطيعاه، يرفع يده ليدفعهم، يبقى ساعده كله في مكانه، "هه. هه. سنقلع أظافرك أولاً، ثم نثقب عظامك، ثم نقطع بالساطور قدميك، ثم أخيرًا هذا الخطاف"، يلوّح به ويقهقه بصوت بشع يملأ الكون، سأعلقك بالخطاف من فمك، افتح فمك، أي حلم هذا! الغريب فيه أنه وهو نائم يعرف أنه يحلم، يشجع نفسه: "لا تخف. هذا حلم ليس حقيقة". يسمع طرقات على الباب، يحاول الاستيقاظ، يصعب عليه فتح عينيه، يعلم في داخله أنه إن فتح الضوء سيكون بسلام، لكن من أين يأتي بالطاقة ليمد يده، أخيرًا ينجح، يخرج المسدس من تحت المخدة، لا، الدنيا مازالت ظلامًا، لم ينتصف الليل، ذهنه مشوش، يتقلب، بعد حين غطس في نوم عميق، كم تكرر الحلم؟ سأل نفسه لماذا تذكَّر لعيبي، عندئذ أدرك أنه عندما وصل إلى النقطة التي قتل فيها رأى شيئًا ما على حافة الشارع في المكان الذي دُعِس فيه لعيبي، ربما قلمًا، ربما نظارات شمسية، نعم، أدرك أنها نظارات لعيبي الشمسية، كيف لم يلاحظ ذلك من

قبل؟ لابد أن رؤية شيء يخص لعيبي ساعة مصرعه أعاده حيًا في حلمه، لكنْ أهي النظارة والمكان فقط؟

حاجاته في المخبأ، هذا يعني أنه لم يغادره قط، معه دائمًا، تخلص قبل أن يُردى من أدوات العمل، لكنه أبقى السلاح: الرشاشة، شواجيرها، المسدس وكاتم صوته، الخمسة رمانات اليدوية، إن كانوا كلّفوا لعيبي بمهمة قتله فيجب أن يستعد للدفاع، أبقى السلاح في المخبأ، لكنه تذكَّر أنه لا يعرف استخدم الرشاش؟ رآه كثيرًا بأيدي المليشيات، والجنود لكنه لم يستخدمه قط، قرر أن يتدرب في أول فرصة، توقف قرب منحدر قريب إلى الشارع، أوقف الشاحنة على الكتف، وضع الرشاشة في حقيبة، رأى صخرة كبيرة على بعد نحو مائة متر، التفَّ حولها سهل معشب مليء بالزهور، فتح الحقيبة، تفحصها، وجدها نوعين، ثمانية عشرة رصاصة، وثلاثين رصاصة، ركَّبها، تعلّم كيف يضعها بسرعة أولاً، ثم تدرب على سحب صمام الأمان ثانيًا، بدأ بإطلاق النار لثوان قليلة، صوت قوي جبار أرعبه، جعله يرتجف، عليه أن يُطلق بضع إطلاقات أخرى، يا له من صوت مدوّ رهيب! كيف يشعر من هو محكوم عليه بالموت بإطلاق النار؟ يرعبه الصوت أولاً وينهيه الرصاص ثانيًا، يا له من اختراع جهنمي حقير! أسيضطر لاستعماله! أسيُمسخ حيوانًا حينما يستعمله كالآخرين؟

بعد خمس دقائق من استئناف السير وجد سيارة شرطة تومض له أن يقف، تلفّت رأى حقيبة لعيبي قربه على الكرسي، اضطرب، يا لك من مغفل! سخنت دماؤه، أوقف الشاحنة، وضع الحقيبة في المخبأ، أقفله، أنزل زجاج السيارة.

توقفت السيارة قربه، أشار الضابط إليه أن يقف على كتف الشارع، وقف وراءه، جاء من الناحية اليمنى، فتح الباب له، لم يصعد، مدَّ رأسه فقط، كان أسمر ذا شعر أسود كثيف وحاجبين متصلين، قال بعربية مكسرة:

- هل سمعت بوم، بوم؟

ابتسم حسين، سأل بالإنكليزية:

- هل تتكلم الإنكليزية؟

هز الشرطي رأسه نافيًا، هز حسين رأسه كذلك، ابتسم الشرطي، طلب رؤية جواز سفره وأوراق السيارة، ركَّز عينيه في جميع موجودات القمرة، أمره أن يُنزل الحقيبة من الرف، أنزلها، فتحها له، حدَّق فيها من دون أن يمد يده، أمره أن يُخرج ما فيها، رفع غطاء صندوق الفلين الذي يحوي الماء البارد وبعض اللفات، وقناني غازية وعصائر فاكهة، أحنى رأسه باعتذار، رفع يده محيّيًا، غادر. لكن الخوف ترسب في القمرة، كيف عرف؟ لابد أنه كان قريبًا، وسمع الصوت، الحمد لله، نجا مرة أخرى.

شعر حسين بارتياح، برزت "نبْع" مرة أخرى، قرر أن لا ينام في أي فندق في تركيا والعراق أن يستمر بالسير، في زاخو كان ازدحام شديد، علم أنه لن يصل إلى التفتيش قبل ساعتين، أغلق الأبواب، ترك الشاحنة والمكيف يعملان، أرخى الكرسي، فجأة غفا، لكنه صحا بعد قليل على صوت شخيره، كم نام؟ نظر إلى الساعة ليس أكثر من خمس عشرة دقيقة، أحس براحة لا مثيل لها، فعل ذلك مرة أخرى في الموصل، بيجي، تكريت.

كان متلهفًا للقاء (نبْع)، يهدئ نفسه وهو يسوق: لا تفسد لقاءك بالعجلة! سيطر على نفسك، لقاؤها أجمل أحداث حياتك، ليكن لقاءك هادئًا، هي رقيقة، لكن هل يستطيع؟ هي التي تهجم عليه، تلتحم بعناقها، تسند رأسها على صدره، كم تبقى؟ لا يدري. يشعر أنها تندمج معه حتى يزول ما بينهما كليّة، يشعر أن جلداهما يختفيان، يتداخل أعضاؤهما ببعضهما، يحس أن قلبها قلبه، نبضاتها نبضاته، دمها دمه، حينما يكون وحده في أسفاره التي لا تنقطع لا يتذكر طعم قبلها، لا يتذكر تقاطيع جسدها، يراها أجمل خلق الله، لكنه لا يستطيع تجسيمها في الخيال، حينما يعانقها يتشظى، يذوب، يتفتت يُصبح هلامًا، يذوبان في بحر سعادة لا ينتهي، لكن اليوم رقّل موجودة معهما، سيُحرم من هذه المتعة.

ضغط على الجرس، تأخرت بضع لحظات، فتحته، عيناها حمراوان منفوختان من البكاء، صوتها مبحوح، قبّلته في خده ثم انسحبت،

سمع نحيب رقل، كانت تجلس في غرفة الطابق الأرضي، أسرع إليها، رآها في حالة مزرية، ما إن رأته حتى انفجرت في بكاء شديد، قالت:

- كلهم. لم يبقَ أحد.

نظر إلى (نبْع)، تساءل:

- من؟.

انفجرت تبكي:

- قبل يومين جاءهم هاتف مجهول، أن يتركوا البيت خلال ثلاثة أيام، ثم جاؤوا في الضحى قتلوهم كلهم، كانت رقل معي في الجامعة ذهبنا لنستخرج شهادتينا مترجمة، أوصلتها بسيارتي إلى بيتها رأينا لمة وهرجًا حول الباب أسرعنا، رأينا الجميع؛ الدكتور صبحي وسامية وأبا رقل وأمها وأخاها، رأيناهم كلهم مقتولين، مع خادمهم العجوز الكردي.

- ألم يرهم أحد؟

- بلى. الجيران كلهم، قالوا إن قسمًا منهم يرتدي الأسود مع القناع، وآخر يرتدي ملابس الشرطة المبقعة مع أقنعة سود، كانوا يستعملون سيارات وزارة الداخلية، لكنهم لم يستطيعوا تسجيل الأرقام.

- لكنْ لماذا لم يتركوا البيت قبل ثلاثة أيام؟

- سمعوا المكالمة في الليل وفي اليوم التالي هجم المسلحون على البيت وقتلوا الجميع.

إذن بقيت رقل وحيدة مثله، ذهب إليها عانقها، قال:

- لنذهب وندفنهم في الأقل.

- قلتُ لخالك شريف ذلك، منعنا: "من يذهب يقتل، ستأتي الشرطة وتأخذهم إلى المستشفى ومن المستشفى تستطيعون أن تأخذوا تصريحًا بالدفن".

- متى حدث هذا؟

- أول البارحة، والبارحة جاءت عائلة وسكنت البيت، أخذوا يستعملون السيارات، ذهبنا أنا وخالك شريف لنجلب قطع الذهب المصاغ، النقود، جوازات السفر، سندات الامتلاك، بقية الوثائق، قالوا لنا إن جئتم مرة ثانية ألحقناكم بهم، ذهبنا إلى الشرطة، لم تتحرك الشرطة إلا بعد عشر ساعات، جلبوا جوازات السفر، والوثائق، لم يستطيعوا استرجاع الدار أو الذهب، قالوا إنهم لا يستطيعون الدخول في معارك مع السود من أجل إخلاء الدور، حتى النقطة الأمريكية في المنطقة رفضت التدخل.

- ما معنى السود؟

- الذين يرتكبون هذه الفظائع يرتدون ملابس مدنية سوداء، أو ملابس عسكرية مع قناع أسود.

- حسنًا سنذهب في الغد إلى المستشفى.

لم يستطع أن يغفو بالرغم من تعب الطريق الشديد، لعيبي كان موجودًا دائمًا، كان بينه وبين (نبْع)، بينه وبين أي شيء ينظر إليه. تذكّر أنه في صور التعذيب يبدو وعصابته يرتدون الأسود، أنه يردد كلمتي البيض والسود، حتى أنه عندما ذهب إلى مستشفى المنطقة في اليوم التالي رآهم يرتدون الأسود، ينتشرون في أروقتها، عيونهم تقدح شررًا، يتزاحم مئات المراجعين أمام ساحة المستشفى، في حديقتها الأمامية، مكلومين مفجوعين بأهاليهم، أقاربهم، أولادهم، آبائهم، زوجاتهم، يتدافعون على الأبواب يريدون جثث ذويهم، النحيب اللطم التفجع على أوجّه، ازدادت رقّل تداعيًا، دخل حسين إلى بهو المستشفى، وجد قاعة صغيرة فيها ثلاثة مسلحين وموظف متين مربوع، قميص أسود، سروال أسود، مسدس في الخصر، يستند إلى منضدة فوقها دفتر كبير مجلد وقلم جاف، وضع الموظف رشاشته على المنضدة قرب الدفتر، حدَّق به بقسوة، عينان كستنائيتان فاتحتان، شارب خفيف طويل، بشرة تميل قليلاً نحو السمرة، أشار الموظف إليه أن يكتب اسمه عنوانه رقم هاتفه، ثم نظر مدققًا إلى الكتابة، سأل:

– حسين أم حسن؟

قرأ حسين ما كتب، أدرك أنه نسي نقطتي الياء، قال:

– العفو.

تناول القلم مرة أخرى، قال الموظف وهو ينظر إلى مسلح يقف قربه وينظر باتجاه الباب:

- يحدث هذا دائمًا، الناس مشغولو البال.

أعقب كلامه بضحكة قصيرة متهكمة، شاركه المسلح الثاني ضحكته بأقوى منها، أحس حسين أن الضحكة متعمدة ومبطنة بالتهديد، توجَّس شرًا، رفع عينيه حدجه الموظف بنظرة يختلط فيها الازدراء بالوحشية، ثم ابتسم ابتسامة متصلبة أقحمت لعيبي بينهما ومعه أفعوانه لكن بحجم كبير يماثله في الطول والعرض، لسانه الأسود يندفع بقوة ليلامس وجنتي حسين، صوت لعيبي ينقلب إلى فحيح أفعى:

- أدخل إلى الثلاجة فتِّش على من تريد أن ترى جثته.

أراد أن يقول له إنني سأجيء بمن يستطيع تشخيصهم، لكن كلمات الموظف جمدته، خلقت في ذهنه تساؤلاً: "كل ذلك الازدحام في الخارج ولا أحد يدخل ليستقصي عن فقيده؟ أليس هذا بغريب؟"، عاد صوت الموظف:

- أدخل فتِّش لعلك تجد من جئت تبحث عنه، هُمْ كُثر بقدر الزبل.

غلت الدماء في عروقه لكن الموظف لم يتركه، اقترب منه، كاد يلتهمه:

- اسمك يدل على أنك أسود فلماذا تسأل عن الكلاب؟.

ازداد غليان دمه، في مثل هذه اللحظات يفقد القدرة على الرد، فكَّر لحظة بأنه يستطيع بضربة واحدة أن يقضي عليه ثم يختطف الرشاشة فيقضي على المسلحين الثلاثة في قاعة الاستقبال بلمح البصر، لكنه قال مع نفسه: "هذا جنون"، في اللحظة نفسها رأى (نبع) تمد رأسها من الباب، تشير له بإلحاح أن يلحق بها، خرج مسرعًا من الاستعلامات، عانقته بقوة، قبلته في خديه أمام الجميع وهي تقول:

– الحمد لله. الحمد لله. الحمد لله.

– الحمد لله على ماذا؟

– على سلامتك، كانوا سيذبحونك، اسمع ماذا تقول الحجّية.

أشارت (نبع) إلى امرأة تتمرغ بالتّراب وتقطع شعر رأسها، ومعها طفلتها ذات عشر السنوات، قالت:

– انظر إنها تحرق القلب أليس كذلك؟

ثم مدَّت إصبعها إلى امرأة أخرى قربها في الخمسينات ذات تقاطيع جميلة، بدينة بعض الشيء، تبكي بصمت وتمسح عينيها.

– نصحتنا هذه المرأة أن لا ندخل إلى المستشفى، من يدخل يقتل أيضًا ويرمى في الزبالة، تقول إنها سألت ابنة المرأة التي تبكي، قالت الطفلة: "قتلوا أول البارحة أبي وجئنا أمس لنتسلم جثته، فقالوا لأخوي أدخلا شخصاه في الثلاجة، فدخل أخواي، انتظرناهما حتى منتصف الليل، لم يخرجا، سألنا عنهما موظفًا أسود، قال

خرجا من الباب الآخر، اليوم صباحًا رأينا جثة أبي وأخي الصغير في المزبلة، أما أخي الكبير فلم نرَ جثته، نخاف أن يقتلونا إن دخلنا".

نظر حسين إلى رقل:

– دعيهم إنهم موتى، لا يهم أين أو متى يدفنون، إن كان هناك رب خلقهم، فسيحاسب من قام بقتلهم، إن استقرت الأوضاع وساد القانون سيحاسب هؤلاء كلهم، لنرجع.

في السيّارة قال وهو يشدّد على كل حرف:

– لنْ نبقَ نحن أيضًا، غدًا نذهب جميعًا إلى الأردن، نوصّل رقل إلى عمها ونذهب نحن إلى تركيا، لا حياة لنا في هذا المسلخ البشري، سآخذ معي خالي شريف وزوجته، لحسن الحظ أن سيارتنا كبيرة، سآخذها الآن لتغيير الزيت وفحصها، لا تُعدّي الطعام، سنذهب لنودع أهلك ونتغدى معهم ومع خالي شريف، ستكون هذه آخر مرة ترينهم في العراق.

* * *

الشارع ضيق، الوقوف مسموح على الجهة الأخرى المقابل للبيت فقط، هناك بضع سيارات، أوقف سيارته على بعد نحو عشرين مترًا، الساعة التاسعة وأربع عشرة دقيقة، مصباح واحد مُنار في الشارع الطويل على بعد ربع كيلومتر، تلفّت حواليه عندما ترجّلت (نبْع) ورقل من السيارة ليرى إن كان مراقبًا أم لا، كان كلام خاله

يتردد طيلة الوقت في أذنه، "أخطأت خطأ جسيمًا عندما أعطيتهم عنوانك، بت أخشى عليك، ليست القضية سهلة، ما قاله لك الأسود مهم، يجب أن تحذر، لكني لا ألومك، حدث معك الشيء نفسه حينما غيَّروا الشاحنة. الإنسان مُسيَّر، يسير نحو حتفه برجليه، لا يملك قدره، حدث شيء شبيه لنا في إيران، سألوني أأنت أسود أم أبيض، قلتُ: لا أومن بالمذاهب والأديان أنا علماني، فعل أبوك مثلي، عذَّبونا أكثر من غيرنا". ألحَّت أمينة وهي تتوسل إليهم:

- ابقوا معنا الليلة.

كرر الطلب شريف.

- لا. لنْ أعرضكم للخطر، لتبقى (نبْع) ورقل معكم.

- لا. لن أبقى، هتفتْ (نبْع) بقوة وأضافتْ: لست خيرًا من عمي ممتاز وعمتي سميرة، عاشا معًا وماتا معًا، ما قيمة حياتي إن ذهب حسين.

- أنا أيضًا سأجيء معكما.

قالتْ رقل ذلك، الوجوم مسيطر، كان الجميع يبكي إلا شريف وعارف والد (نبْع)، وعندما ودَّعوهم لم يروا سوى اليأس في عيونهم واضحًا، جثتْ أم نبْع على ركبتيها، عانقت ابنتها وهي تبكي وتتوسل إليها أن لا تذهبْ، لكنها أصرت:

- حياتي مع زوجي لا هنا.

ثم نظرت إليه وقالتْ لائمة وهي تبتسم:

- يا عزيزي لماذا تتبلل قبل المطر؟ من يقول إنهم يريدون أن يصفّونا في هذه الليلة؟.

ابتسَمَ حسين:

- يا ليت.

منذ أن غادر المستشفى بدأ يرسُم خِطة في دماغه، شتائم الموتى التي اندلقت من فم موظف المستشفى الأسود المتين المدجج بالسلاح، استحضرت مهمة لعيبي في تركيا أمامه، من الحقد الذي اندلع من عينيه تأكد أنه كأبي خطاف، أدرك أنه لا يتورع عن فعل أي شيء، ولحظة لامه خاله لأنه سجّل عنوانه في دفتر استعلامات المستشفى الكبير شعر بما لا يقبل الشك أنه سيكون الضحية التالية، لكنه لام نفسه لسماحه لنبْع ورقَل بالمجيء، كان عليه أن يأتي وحده، وبإصرار نبْع على مرافقته أدرك أنه هو المسؤول الأوحد عن حياتي الشابتين البريئتين إضافة إلى حياته، حينما كان الجميع في بيت خاله يتكلمون ويبكون ويُطّيبون خاطر رقَل كان هو يعد خطة بعد خطة ويرسم تفاصيلها.

في الطابق الثاني في بيته الصغير غرفتان، أمامهما شرفة لا يتجاوز ارتفاع ستارتها مترًا واحدًا، سأله البناء الذي كلفه ببنائها إن كان يريد أن يضع فراغات في الجدار أو أسياخًا من حديد أو مشبكًا من خشب، قال لا، فكَّر في الأطفال، طلب منه أن يبني حائطًا عاديًا لكن بنقوش من الموزائيك.

في هذه اللحظة أدرك أن الحائط بالرغم من قِصَره الذي لا يتجاوز سبعين سنتيمترًا قد يُصبح مانعًا جيدًا لمن يهاجم البيت من الأسفل، طلب من (نبْع) ورقل أن يمهدا ذهنيهما للهرب قبل الفجر، أن يقضيا ليلتهما في الغرفة الثانية ليبقى هو وحده في الغرفة الأولى، توقع أن من سيهاجم البيت سيقضي على من يرقد في الغرفة الأرضية ثم يصعد إلى الطابق الثاني، وسيقع واجب التخلص منه على عاتقه قبل الوصول إليهما، كانت هذه الخطوة الأولى، قال لرقل و(نبْع) عندما تسمعا أي صوت، لا تنزلا مطلقًا اجلسا وراء الباب، فإن فُتِح عنوة فإن من سيفتحه سينظر إلى الجهة التي ينفرج منها الباب لا خلفه، زودهما بقنينة رش لإبعاد الكلاب، قال لهما سيكون باستطاعتكما الاستعداد، فما إن يلتفت المهاجم إليكما ترش من بيدها القنينة على وجهه فيختل توازنه ويقع في الحال، تذكرا ألا تنزلا إلى الطابق الأول للمرافق إلا إن كنت معكما، لا ولا لأي واحدة تنزل وحدها، ثم التفت إلى نبْع:

– ضعي الأشياء المهمة في حقيبتك لا تضعي ملابس، لتكن خفيفة تستطيعين الركض بها، نامي بملابسك هذه وبحذاء رياضة، والتفت إلى رقل: هذا ينطبق عليك أيضًا، لا تُطفئا الضوء لتريا ما تفعلان عندما يهاجموننا.

ابتسمت (نبْع):

– تتكلم وأنت واثق من أنهم سيهاجموننا.

- هذا ما أعتقده.

- قال الله لا قالك.

- إن شاء الله.

عندما أغلق عليهما الباب وانسحب إلى غرفته فوجئ بـ(نبْع) تدخل عليه، تضعُ يدها على فمه وتضيع بين أحضانه، همست:

- كنت أعد اللحظات.

لم ينسَ العبارة إلى حد الآن، يا لها من جملة، ويا لها من متعة، "كنت أعد اللحظات" يتذكرُها بخاصة عندما تُفجِّر الرقصة البرازيلية جنون الفتيات العاريات على الشاطئ كل يوم، لم تتركه المراهقة الشقراء، ذات السادسة عشرة، طيلة اليوم كانت قريبة منه، تجلس على متكئه عندما يأكل تشاركه طعامه، تجلس على الرمل قربه، تسند جسدها على متكئه، يدها تعبث بشعر صدره، تربت على فخذه، ساقه. ابتعدت عنه عندما أغفى بعد الغداء، رجعت ما إن صحا، أكانت تراقبه؟ لا يدري، تغيب بعض الوقت بين الحين والحين لكنها ترجع، فجأة حلت السادسة، جاء أرنان جلس على كرسي قربه، عندما سمع الرقصة أول يوم سأل أرنان عن معناها، لم يعرف، قال له إنها بالبرتغالية، أغنية برازيلية مشهورة منذ سنين، انطلقت تمهيدات الرقصة السبع بموسيقى قوية ضخمة أشبه بالصافرة، خرج الجميع من الماء، وقفت المتمددات والجالسات بانتظار الأغنية، رفعت المراهقة الشقراء يدها عن

فخذه، وقفت أمامه على بعد متر، التفت إليه وابتسمت، حجبت النظارة عينيه، لكنها كانت متأكدة أنه يراها، ابتسمت. نزعت حمالة الصدر، رمتها على بطنه، نزعت البكيني، رمته على وسطه، رفعت ذراعاها، فرجت ساقيها، بدت آلهة إغواء فريدة، تفجرت موسيقى الأغنية، تبادلت الفتيات النظر إلى بعضهن، ينتظرن رائدة تقتحم الساحة، تشجعهن، ليتبعنها. التفتْ إليه، مدَّت يدها إلى نهدها الممتلئ، مسحته، غمزت عينها كأنها تهديه الرقصة، انطلقت إلى الساحة مع أول كلمات الأغنية، اشتعل الجو تصفيقًا، انحنت للمصفقين، بدأت الرقص، هجمت الفتيات نحوها، كن يرمين بالبكيني في طريقهن على متكئاتهن، على أحبائهن، على الرمل، صدح الجو (ديكو باورا. أسو. ريا. دبا. يودوتو. دكن. جاجن. ديور. بورا. باشي. باشي. ما جيا. ليسي. ليسي). كن يتمايلن إلى الأمام والخلف، يرفعن سيقانهن، ينحنين، تزداد الموسيقى بإيقاعها الراقص قوة وعنفوانًا والفتيات يزددن حركة ذوبانًا جنونًا، كن يتحركن وكأنهن جسد واحد، روح واحد. يا لقوة الموسيقى عندما تحل بالجسد فتسكنه باللحن والإيقاع!، كم أصبح عددهن؟ مائة، مائتين، خمسمائة؟ لا يستطيع أن يخمن، ما استطاع أن يلاحظه جمالهن الأخاذ، كن خليطًا من البيض، السمر، السود، قصيرات، طويلات، متوسطات، لكنهن كن جميعًا فاتنات، ساحرات،

ليس في الحياة أجمل من شابة عارية تسفح حيويتها على الشاطئ برقصة متميزة!

بدأ صفاء وغيره من الأطفال يرقصون في دائرة أخرى على بُعد بضعة أمتار من الراقصات الفاتنات، عندئذ أخذت الطفلة صديقة صفاء ذات البكيني الأحمر تتعرى، لحقت أمها بها حالاً، أمسكتها من يدها، أجبرتها على ارتداء كسوتها، أعادتها إلى المتكأ. تكلمت معها بعصبية، جلست، جاء أخوها وصفاء، جلسوا قربها وهما يلهثان من الرقص السريع، وإذ انتهت الموسيقى انفضَّت الراقصات وهن يعانقن بعضهن وسط تصفيق الرجال، حملت كل منهن كسوة البكيني، نفضنها، وقفن في صف طويل أمام مرشات الماء وهن عاريات، جاء أرنان، سأله:

– بعد قليل تبدأ لعبة نهائي كأس العالم، أتراقبها معي أم في مكان آخر؟

– في البيت، صفاء ينام مبكرًا.

أغمض عينيه برزت "تبْع" هتافها يملأ الكون "كنت أعدّ اللحظات". همس: حتى أنا، بقيت عنده نصف ساعة فقط. أغلق الباب وراءها، ارتدى ملابسه وحذاءه، وضع الرشاشة على الأرض، صف قربها الرمانات اليدوية، وضع المسدس بكاتم صوته تحت المخدة، آنذاك أحس باطمئنان مُرْضٍ، عليه أن يغفو ليكون على استعداد، لكن لماذا ينتظرهم ليأتوا؟ لماذا لا يهرب الآن قبل

مجيئهم؟ إنهم يأتون عادة في الفجر، لماذا ينتظرهم؟ العاشرة وبضع دقائق، ليهرب الآن!

أسرع إلى الغرفة الثانية، نقر الباب بهدوء، فتحته نبْع، وقعت عيناه على وجه رقل نائمة، امتصت الأحداث حيويتها، أصبحت جلدًا على عظم خلال أربعة أيام، صدرها يرتفع وينخفض بهدوء.

اقتربت منه نبع، أشار إليها أن تخرج، همس بأذنها:

- لنذهب الآن لماذا ننتظر حتى الفجر ليهاجمونا؟

- كف. لا تتخيلْ أوهامًا.

أمسك بيدها، شدَّ عليها، ثم نظر إليها برجاء:

- اسمعيني. أعرف ما لا تعرفين، ليست أوهامًا، رجاءً لنذهبْ. فقط فكري بما حدث للناس في المستشفى، أعددتُ السيارة، كل شيء جاهز، اجلبي أوراقك وهيا، رجاءً.

فكَّرت قليلاً، وهي تنظر في عينيه، ابتسمت:

- لا بأس، دعني أعدّ الشاي ونخرج.

الآن وبعد هذه المدة الطويلة، عندما تُفرض الذكرى كقدَر أسود على دماغه، لا يعرف ما حدث بالضبط، ربما أصابه نوع من الذهول جعله يخلط الأمور، لا يدري، هل رجعت إلى الغرفة أم نزلت إلى الحوش، ما يتذكره أنه دخل غرفته ليجمع أسلحة لعيبي. يتذكر بوضوح كل حركة تحركت بها نبْع، كل نظراتها، يتذكر كلمة نبْع "كنت أعدّ اللحظات"، دوي انفجار هائل كقدر أسود مصحوب

بصوت مرعوب، تلاه بضعة انفجارات ضخمة في الحوش، أسفل غرفته، انفجارات رهيبة هزّت البيت كله، ظنه سيتهاوى ويندك مع الأرض وينسحق هو أيضًا مع الركام.

ارتج دماغه، نسي كل شيء، نسي الخطط التي أعدّها، ما قر في ذهنه لا شيء، تلبّسه الخوف، رعب حقيقي، أخذ قلبه يدق كطبل عملاق يملأ عليه وجوده، لا بل أصبح وجوده كله قلبًا يدق، ثم أدرك أنه يرتجف، يقشعر، وكما تلاشت قواه عندما رأى لعيبي ميتًا أمامه تلاشت قوته الآن، إذًا غيّروا أوقاتهم، جاؤوا بعد العاشرة بدل الفجر كي لا يتركوا له مجالاً للهروب، وقف وراء الباب يسمع صوت أقدام المهاجم تصعد على الدرج، لماذا تبخرت رجولته؟ أين عنفوانه؟ هكذا هم الضحايا دائمًا، يقتلهم الخوف قبل أن يقتلهم العدو، من يستطيع تبديد خوفه؟ لا أحد. عليه الاعتماد على نفسه، هيا انهض، هذا ليس بحلم، لا تدعهم يتخلصوا منك، استيقظ، تمالك نفسه، صحا كليًّة، نهض، إذًا بدأ الهجوم، ماذا كانت الأصوت؟ لم يفكر، سمع مرة أخرى صوت الأقدام على الدرج بوضوح، وضع المسدس تحت حزامه، تناول الرشاشة، أحس بأقدام المقتحِم تتوقف قرب الباب، لا بل سمعه يلهث من صعود الدرج سريعًا، تُرى ماذا سيفعل؟ سيركل الباب بقوة فيكسره؟ أم يحاول أن يدفعه بدون عنف، فجأة انهمرت موجة رصاص هائل على الباب أعقبها ركلة فتحته فبدا منخولاً، خطى "البسطال" الأيمن

المبقع على العتبة، ذلك من تجهيزات القوات الخاصة، تجاوزت سبطانة الرشاشة فتحة الباب، الثواني سنوات، قلبه يدق بقوة، ترى أيسمع المهاجم دقات قلبه؟ خطى الجندي خطوة أخرى، أصبح داخل الغرفة، قصير نحيف، قناع أسود لا يُبين من وجهه سوى أنفه الأسمر المعقوف، مرّت لحظة طويلة جدًا، حار حسين ماذا يفعل! أيضغط على الزناد؟ التفت الجندي إلى اليسار حيث كان حسين واقفًا، أصبحت عينه أمام فوهة الرشاشة، لاحظ حسين في تلك اللحظة عينيه الكستنائيتين العميقتين تحترقان رعبًا متأتيًا من إدراك حقيقة أنه فات الأوان عليه لتحريك سلاحه نحو حسين، في تلك اللحظة ضغط حسين على الزناد، دوت بقوة مرعبة بضع رصاصات، انقلبت على إثرها خوذة المهاجم المبقعة لتغطي وجهه، ارتفع إلى الأعلى بضعة سنتيمترات ثم تهاوى داخل الغرفة على وجهه، في نفس الوقت الذي سمع حسين صوت أقدام أخرى تصعد الدرج، وصوتًا متفجعًا يصرخ من كل قلبه:

- تعالوا، قتل طالب.

كان حسين يقف على بُعد نصف متر داخل الغرفة ملتصقًا بالحائط قرب السرير، في أقل من ثانية أصبح المهاجم الثاني أمام الباب، فتح النار من رشاشته في الغرفة، يمينًا وشمالاً، مزّقت أصوات الرصاص أسماع حسين، وإذ انتهى شاجور المهاجم فاجأه حسين، وقف أمامه، ضغط ضغطة خفيفة، فانطلقت بضع رصاصات مدوية

على وجهه، تراجع إلى الخلف وهو يصرخ، سقط من فوق الستارة إلى الحوش، عندئذ تناول حسين رمانة يدوية، ألقاها في الحوش الصغير أعقبها تأوهات وصرخات وأصوات شظايا متعددة، أدرك أن قسمًا منها اصطدم بمعدن، بينما أصاب القسم الآخر الأبواب والحيطان. رأى بضع شظايا تتجه نحو السماء، ثم تناول ما تبقى من الرمانات، صعد إلى السطح، نظر إلى الشارع، وجد في ضوء الشارع الخفيف سيارتين عسكريتين أمريكيتين فارغتين، أربعة مسلحين يهمون بدخول الدار، رماهم بواحدة فارتفع صراخ بعضهم، ثم رمى قنبلة على كل سيارة، فاشتعلت النيران بالبعيدة عن الباب، أم القريبة فتفجر فيها شيء قوي جعل أحد جدرانها ينفصل، وتهشمت واجهتها، نزل من السطح، أسرع هتف وهو بباب الغرفة الثانية:

– نبع، رفل هيا لنسرع.

ظهرت رفل وحدها مخطوفة الوجه، قالت:

– نبع ليست هنا.

تذكّر الصوت المروع المرعوب حين بدأ الهجوم، إذن نزلت تعد الشاي، بدأ يرتجف، نظر إلى الغرفة ليتأكد، لم يرَ شيئًا، جف حلقه، هتف:

– لا تُضيعي الوقت. هيا، لا تنسي حقيبتك اليدوية وحقيبة نبع.

نزل أمامها، رأى (نبْع) على ظهرها غارقة بدمائها، عيناها شاخصتان نحو السماء، ثوبها منحسر عن فخذها الأيمن، قرب كفها إناء شاي من الصيني مكسور، سبع مهاجمين على الأرض قسم منهم لم يمت بعد، ترتجف يد أحدهم بآلية، كلهم كانوا ينزفون، خمسة منهم يرتدون السواد، اثنان ببزتي الجيش المبقعة، مبعثرون جميعًا في الحوش الصغير، ثمة بضعة حرائق في الغرفة الأرضية، لم يتأكد في ماذا؟ أنبوب قنينة الغاز تشتعل فيه النيران بلهبٍ عالٍ، الثلاجة مقلوبة، تمزقها الشظايا، كل ما في المطبخ؛ القدور، المواعين، الملاعق، السكاكين متناثر في الحوش الصغير.

قبل أن يدلف إلى الشارع قال لرقّل:

– قفي أنتِ هنا.

نزل بحذر، سائق حاملة الجنود القريبة من الباب رأسه على الرصيف وساقاه على مقعد السيارة، مازال دمه ينزف، ثلاثة آخرون تنتشر جثثهم بين السيارة والباب، ساق أحدهم مجروحة جرحًا يقطر دمًا فوق الركبة، بينما دماء غزيرة تنبثق من رقبة الثاني، الثالث منبطح على وجهه، أصابع يديه مفروشة على عتبة الباب، لم يجد سائق السيارة الثانية، رجع إلى (نبْع)، حملها، هتف برقّل:

– تعالي، اركضي.

عَبَرَ الشارع، وضع (نبْع) في صندوق سيارته الصالون، سأل رقّل:

– هل رأيتِ أحدًا يتفرج علينا.

– لا. لم أرَ أحدًا.

قالت وهي ترتجف، وتفقد كلماتها بعض الحروف:

– حينما يسمعَ الناس أصوات الانفجارت والرصاص يختبئون، لا يجرؤون على الخروج أو النظر إلى الشارع.

شغّل السيارة، كان يرتعد ودموعه تسح، يختض من رأسه إلى قدمه، أخذ يردد مهدئًا نفسه من دون وعي، بصوت منخفض:

– لا تسرع، اهدأ، لا تسرع، اهدأ.

ساق سيارته نحو جراج الشاحنة، فتح صندوق السيارة، حمل "نبْع" وقال لرقّل:

– ساعديني.

تعاونا على وضعها في المخبأ، كان جسدها وثوبها منقوعين بالدم في الصدر والبطن، لكن وجهها أبيض مصفر، وضع معها الرمانة اليدوية الوحيدة الباقية، المسدس، الرشاشة وعتادها، قبّلها ودموعه تنهمر على خديه، فعلت رقّل كذلك، أغلق المخبأ، جلب فرشاة وماء من ظهر الشاحنة، نظّف السيارة الصغيرة من الدماء قبل أن يتركها، نظّف درج الشاحنة حتى المخبأ، فعل ذلك كله وهو يرتجف ويبكي بصمت، نزع ملابسه الملطخة بالدم، أبدلها بأخرى

نظيفة من الحقيبة، حضَّر كتاب رئيس الوزراء بعدم التفتيش، أخذ يلوح به حينما يمر من قرب نقاط التفتيش، قسم من الجنود كانوا يعرفونه يتركونه يمر، بينما كان الباقون يسمحون له حين يرون في أعلى الكتاب رمز رئاسة الوزراء وشعار الدولة، ساق باتجاه الرمادي.

لم يدر كيف انتصب أمامه لعيبي أبو خطاف، لم يكن يتصور أنه سيكون ممتنًا له، لولاه لقُتل هو ورفل مع نبْع، أليس من المضحك أن يساعده لعيبي على التخلص من عصابته، أليس ذلك معجزة؟

قال لرفل:

- اتصلي بخالي كي يأخذ السيارة، عنده مفاتيح إضافية، قولي له ليأتي مع زوجته حالاً إلى عمّان اليوم، ألا يضيع دقيقة واحدة، عنده عنوان مستشفى عمك، لنلتقي هناك.

لكن خاله ما إن سمع صوت رفل طلب أن يتكلم معه، ناولته الهاتف، سأله خاله عمّا حدث، قال:

- لا أستطيع الكلام الآن، سأتكلم معك عندما نجتاز الحدود، أسرع يجب أن تُغادر البلد الآن أنت وأمينة، السيارة جاهزة، نلتقيكم في الأردن.

قال ذلك وأغلق الهاتف، انحاز إلى اليمين حينما رأى مخرج الشارع الدولي يُشير إلى الفلوجة، دخل بساتين المدينة، سار لا على هدى، ثم رأى من بعيد على ضوء القمر الأشعة الفضية تلمع على

هلال جامع في ضواحي المدينة، اتجه إليه، وقف على بُعد مائتي متر منه في ظلال النخيل، قال لرقل:

– أدركني التّعب والنعاس، لا أستطيع أن أتحرك، سأنام في ظهر الشاحنة، يوجد بطانيات كافية، هل تريدين المجيء؟

– لا. سأقضي الليل هنا في مكاني.

– سأغلق الباب، إن سمعتِ صوتًا لا تفتحي الباب، بل اضغطي هنا على المنبه.

أشار إليه، تناول من المخبأ المسدس، أغلق الباب، ما يتذكّره الآن أنه أغفى حالاً على ظهر الشاحنة، استيقظ عدة مرات على كوابيس لا يتذكرها، رجع بعدها لينام ثم سمع صوت أذان الصبح، فتح عينيه، كان غبش الفجر سائدًا بضوئه الخافت الهادئ.

رمى على وجهه كفي ماء، ثم فتح باب الشاحنة، كانت رقل مستيقظة، صعد إلى مكانه، فجأة انهمرت عيناه بالدموع، بكت رقل بصوت عالٍ مع نشيج، بدأ بعض الرجال يتجهون إلى الجامع من عدة اتجاهات، ثم سمع بعد نحو نصف ساعة إقامة الصلاة بصوت متحشرج، حتى إذ انتهوا من صلاة الصبح انتظر حتى خرج أمامهم، همَّ بغلق باب الجامع، قال حسين لرقل تعالي معي.

الشيخ شاب لا يتجاوز الخامسة والثلاثين، لحيته صغيرة سوداء، عينان سوداوان، بشرة بيضاء، نحيف، أقنى الأنف، اقترب منه حسين، سلم عليه، قال له:

- قتلت عصابات السود زوجتي، هربتُ بجثتها، أخشى إن وجدوها أن ينتقموا من أهلها، كما فعلوا مع عائلة الدكتور صبحي عبد القادر صاحب مستشفى الأمان، قتلوهم كلهم، لم يبق سوى ابنتهم هذه.

تعمَّد أن يذكر اسم المستشفى لأنه سمع الدكتور مروان أكثر من مرة يقول للمحاسب أن لا يطالب أهل الفلوجة بمستحقات العلاج إن لم يستطيعوا الدفع، هتف الشيخ كالملدوغ، ردد:

- قلتَ قتلوا الدكتور صبحي؟

- نعم.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا الإنسان الطيب هو وأخوه كانا يقومان بالعمليات مجانًا للفقراء، أجرى عملية في صمام القلب لوالدي، سألنا عنها في عمان قالوا تُكلف عشرة آلاف دولار! لم يأخذ فلسًا واحدًا، لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم نظر إلى رقل، أأنت ابنته؟

- حفيدته، هو جدي، قتلوا أبي وأمي وأخي وجدتي أيضًا. طفقت تبكي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله. ردد ثم حدَّق بحسين: ما المطلوب مني يا أخي؟

- أن تدفنوا زوجتي، تكتبوا اسمها على الشاهد، فقد تتحسن الأمور في المستقبل لنأتي لزيارتها، أما أنا فلا أستطيع المكوث في العراق، سأذهب برقل إلى عمها في عمان.

- لماذا لا تستطيع البقاء؟ ابقَ معنا، حالك حالنا، كلنا نعاني الظلم نفسه، لابد أن تنجلي الظلمات يومًا ما، لا تفقد الأمل بالله.

- سيصفونني، قتلت ثلاثة عشر أسود منهم وهربت.

ابتسم الشيخ، قال بفخر:

- أنت بطل يا أخي، اكتب اسمها وهاتها، سندفنها شهيدةً رحمها الله، كان الله بعونك وعون أهلها.

هُرع، فتح باب الجامع، جلب حصيرًا فرشه في ظل سقيفة لا يصلها ضوء الشمس حينما تشرق، بينما جاء حسين بـــ(نبْع) وضعها على الحصير، انحنى عليها يقبلها، يعانقها، شاركته رقل البكاء، لم ينفكَّا عنها حتى دفع الشيخ حسين عنها بقوة، عندئذ ابتعدت رقل.

استقبلهما الدكتور مروان في العبدلي، عانقته رقل وهي تنتحب، بكت بصوت عالٍ وهي تجز شعرها، شاركها حسين ومروان البكاء، تجمَّع عدد كبير من المسافرين حولهم، كان قسم كبير منهم موتورين، حزينين، هاربين. مُهجَّرين. انتقل خبر مأساتها ومأساة حسين بين الجميع، أصبحوا بالمئات، كانوا يهمون بركوب

سياراتهم وحافلاتهم إلى عمّان فتوقفوا، أخذ كثير من النساء يبكين بصوت عالٍ.

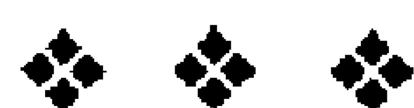
قال حسين لمروان قبل أن يتَّجها نحو عمان:

- أريد أن تساعدني على التخلص من الشاحنة، سأسير بها وراءكما حتى إذ رأيت واديًا تخلصت منها هناك، بقاؤها يعني موتي.

وإذ اختار هو ومروان مكانًا ملائمًا توقفا، كان واديًا في درب فرعي غير مطروق، أوقفها على سفح منحدر ينتهي بصخور على بُعد مئات الأمتار، نزع عنها لوحتي أرقامها، مزَّق قطعًا كثيرة من الملابس، ربط قطعة بأخرى حتى أصبحت بطول بضعة أمتار، نقعها جميعًا بالوقود، سكب كمية كبيرة من البنزين في المخبأ، وعلى الماكينة وفي القمرة، بخاصة في الحقيبة التي تحوي القنبلة اليدوية الوحيدة الباقية والمسدس وشواجير الرصاص، ثم وضع مُغيِّر سرعة الشاحنة على الحياد، وفي اللحظة التي قفز من الشاحنة أشعل الدكتور مروان النار بقطع الملابس المبللة بالبنزين، دفع هو ومروان الشاحنة فانحدرت ببطء أول الأمر، ثم ازدادت سرعتها، اشتعلت النار، انتشر اللهيب في القمرة ثم سُمِعَ دويّ انفجار قوي، أتبعه بضعة انفجارات متسلسلة، قال حسين إنها الرمانة اليدوية والرصاص، عندئذ دوى انفجار أكبر تناثرت فيه أشلاء الشاحنة كلها قبل أن تصل إلى قرارة الوادي. قال

حسين إنه مستودع الوقود، ملأتُه في العراق، التفتَ رأى حجارة كبيرة، جلس عليها، سحَّ دمعه رغمًا عنه، امتلأ الكون بصدى يردد:

- أينَ أنت يا نبْع؟



انتهت

المؤلف في سطور

- روائي عراقي من مواليد الموصل عام ١٩٣٩م، ومقيم حاليًا في الولايات المتحدة الأمريكية.
- منع من النشر في العراق منذ ١٩٦٣ وحتى الآن.
- فاز بعدة جوائز أدبية مهمة، منها :

- أفضل رواية في العراق : "زنقة بن بركة" ١٩٩٣م
- جائزة نادي القصة : "نهاية النهار" ١٩٩٦م
- جائزة في القصة القصيرة في العراق ١٩٥٦م
- وقصة أطفال ١٩٩٩ في أبو ظبي
- فازت روايته "الدنيا في أعين الملائكة" بجائزة الملك فهد لأحسن كتاب مترجم إلى الإنكليزية وسينشر في جامعة سيراكوز في نيويورك في كانون الأول ديسمبر ٢٠١٠.

- اعتبر موقع شؤون المكتبة ٢٠٠٨ في نيويورك:

http://www.librarything.com/topic/28295

روايته (أنا الذي رأى- Saddam City) إحدى أفضل ٥٦ رواية في العالم. بينما اعتبر موقعان أوربيان آخران الرواية نفسها من أفضل روايات العالم في قائمتين تضمان نحو مئتي رواية.

- اختارته منظمة العفو الدولية مع ٣٦ كاتباً على مستوى العالم، لكتابة قصص قصيرة عن ميثاق حقوق الإنسان، في ذكرى صدروه الستين، وصدرت المجموعة بالإنكليزية في آب ٢٠٠٩ في لندن وأدنبرة، ثم في كندا، ومن المتوقع أن تترجم إلى أكثر من عشرين لغة.
- أشادت به ككاتب متميز مجلة النيويوركر في ٢٠١٠ في كانون الثاني/ جنوري:

http://www.newyorker.com/arts/critics/books/2010/01/18/_100118crbo_books

- الإصدرات :

كتب مئات المقالات، ونحو عشرين رواية ومجموعة قصص، منها:

- قضية قديمة : ١٩٦٣م
- زنقة بن بركة : ١٩٧٠م
- نهاية النهار : ١٩٩٦م
- أنا الذي رأى : ١٩٨٠م
- ثلاثية شيكاغو : ٢٠٠٣م
- الدنيا في أعين الملائكة : ٢٠٠٦م
- بنات يعقوب : ٢٠٠٦م

- البريد الإلكتروني : maltaie39@gmail.com

يعرف أنه وُلِدَ سنة ٠٨٩١ في بغداد، لكنه لم يرَ والده، كان اسمه حسين، غيَّره، أصبح له اسمٌ آخر، جواز سفر آخر، وطن آخر.

هو الآن في مأمن في منفاه، لا أحد يعرفه في الدّولة التي اختارها وطنًا ثانيًا، ولا في مدنها أو قراها أو أسواقها ومقاهيها، بيته على قمَّة جبل يطل على البحر، يشرب؛ كما يقول أبو مازن؛ "شراب أهل الجنة" النبيذ والجعة فقط، لم يعد يشرب الماء، ولا يريد أن يرجع طعمه على لسانه، الماء لا يدفعه إلى النسيان والنعاس!.

أمله أن يغفو وينام بلا كوابيس، ذلك مستحيل.. يحاول طرد الماضي عبثًا، الماضي شعاع لا يراه الإنسان، يخترق زجاج الشباك، الجدران، ينسل من تحت الباب.. ينبجس من الرمال، من هبات الهواء، من موجات البحر الذي يمتد أمامه الآن.

يغلق الأبواب بإحكام، يرقد وهو مطمئن، لكن الكوابيس تلاحقه.. تلك الانفجارات الجبارة، الانفجارات الهائلة المدمِّرة أسفل غرفته مصحوبة بصوت مرعوب...

